دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا

430 . 515 هـ - 1038 . 1121 م

مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي

تأليف
الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
بكلية الآداب بالرباط

دار الغرب الإسلامي

دور المرابطين في نشر الإسلام

في غرب إفريقيا

الطبعة الأولى

1408 — 1988

دار الغرب الإسلامي

ص.ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفصل الثالث

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس

الموضوع	الصفحة

ملحق

المقدمة

دولة المرابطين دولة إسلامية مغربية ، قامت على الجهاد ، ونشر الإسلام ، فيما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين (11 ، 12 م) ويتناول الكتاب الدور التاريخي الذي قام به المرابطون في غرب إفريقيا ، وما قاموا به من جهود في سبيل إسلام معظم قبائل غرب إفريقيا ، وما استتبع ذلك من انتشار الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة .

وتمتد المنطقة التي كانت مجال نشاط المرابطين في غرب إفريقيا ، بين ساحل البحر المحيط (المحيط الأطلنطي) غرباً ، ونهاية السفانا جنوباً ، وليس من اليسير تحديد الحدود الشمالية والشرقية تحديداً دقيقاً بالمصطلحات الجغرافية التقليدية ، فليس هناك في الشرق ، أو في الشمال حواجز جغرافية طبيعية تعتبر علامات بارزة تحدّد بوضوح اتساع الأقاليم التي تحتوي على إفريقيا الغربية ، ولم تكن الصحراء الكبرىٰ ، أو النهران الكبيران « السنغال ، والنيجر » اللذان يجريان بمحاذاة حافة هذه الصحراء الجنوبية تحول دون تحرّكات القبائل المختلفة ، أو تعوق تجارتها[1] .

وأدّىٰ عدم وجود مظاهر تضاريسية بارزة في غرب إفريقيا إلى اختلاط قبائل الملثمين بالزنوج ، إلّا أنّ ديار قبائل الزنوج التي كانت تتخطّىٰ منحنىٰ نهر النيجر . وتوغل نحو الشمال ، كانت تقف حجر عثرة أمام هجرة القبائل

(1) Fage, J.D., An Introduction to the History of West Africa, P.I.

الملثمة ، فلمّا أسلم الملثمون ، أخذوا يعملون على نشر الإسلام بين قبائل السودان الغربي ، ومن ثمّ أخذت هذه القبائل الملثمة تندفع إلى الجنوب من أجل الجهاد ، وتدفع بالتالي قبائل السودان نحو الجنوب حتىٰ تمّ لها إدراك منحنىٰ النيجر[1] .

ويُطلق على الملثمين في الوقت الحاضر اسم الطوارق[2] ، وقبائل الطوارق لا تختلف كثيراً عن قبائل الملثمين في العصور الوسطىٰ حتىٰ أنّ بعض أسماء هذه القبائل ظلّت كما هي دون أن تتغيّر ولا يزال الأحفاد يحسّون بصلتهم بالأجداد .

---

(1) د . حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ص 43 ، د . عبد العزيز كامل ، نحو تخطيط علمي لدراستنا الإفريقية (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية) 1962 ص 20 .

(2) ويرىٰ الدكتور حسن محمود أنّ اسم الطوارق مشتقّ من ترغة ، وترغة قبيلة من قبائل الملثمين في العصور الوسطىٰ ، كانت مضاربها في المنطقة الواقعة في وادي درعة في المغرب الأقصىٰ ، فلمّا تفرّق حلف المرابطين تفرقت في الصحراء، بحثاً عن وطن تأوي إليه ، كما أنّ دولة الزنوج في الجنوب قد توسّعت نحو الشمال ، وأخضعت هذه القبائل لسلطانها ، فهاجرت ترغة صوب الشرق ، وظلّت باقية حتىٰ اليوم ، وقد عمّ الاسم حتىٰ أصبح عاماً على شعوب الملثمين كلهم ، لأنّ القبائل في المغرب كانت تتداول السلطة والنفوذ ، فإذا تمّت السيادة لقبيلة فرضت سلطانها ، وأخضعت القبائل الأخرىٰ ، فقد سادت لمتونة وأسست دولة المرابطين فأصبح اسمها عامّاً على الملثمين ، فلمّا سقطت الدولة وضعفت لمتونة ، وسادتها قبائل أخرىٰ من الملثمين وخلفتها قبيلة ترغة ، فأخضعت القبائل لسيادتها ، وخلعت اسمها على الشعب كله فأصبح يُعرف باسم الطوارق ، ومن الممكن جمعها على توارف ، وتوارغ .

بينما يرىٰ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة أنّ اسم القبيلة التي سادت هي تاركا أو تريكة ودليله على ذلك أنّ قبيلة تاركا كانت في القرن الثامن الهجري تنزل إلى الشرق من ديار الملثمين في نواحي الهقار الحالية .

د . حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص 48 ، د . محمد عبد ا لهادي شعيرة ، المرابطون ص 30 ، وعن الطوارف انظر :

Barth, H., Travels and Discoveries in North and Central Africa, 1849 - 1855.
Duveyrier, H., Les Touareg du Nord,
Rodd, F.R., Peoples of the Veil
Julien, A., Histoire de l'Afrique du Nord.

وتحكّمت في تاريخ منطقة غرب إفريقيا في العصور الوسطىٰ ظاهرتـان عظيمتا الأثر هما :

هجرة بعض قبائل البربر، وقيامها بالإغـارة على تلك القبائـل الزنجيـة التي تسكن المنطقة ، هذه الإغارات التي كان لها أكبـر الأثر في الاتصـال ، والاحتكاك المستمرّ بين شعوب شمال الصحراء ، وجنوبها .

ثمّ التجارة التي مارستها قبائل الملثمين مع قبائل السودان الغربي منـذ فجر التاريخ ، والتي عُرفت باسم التجارة الصامتة ، تجارة الذهب ، والعـاج وريش النعام ، والرقيق ، في نظير الملح ، والمنسـوجات التي كـان يحملها تجّار البربر .

غيـر أنَّ هذه الهجـرات والاتصالات اتَّخـذت طابعـاً آخـر بعـد دخـول الإسلام إلى شمال إفريقيا ، وتوغّل القبائل العربية إلى داخل القارة ممّا أوجد نوعاً من الضغط على قبائل الملثمين ، التي اتَّجهت بدورها صوب الجنوب في حركات مستمرّة .

وكان لإسلام قبائل الملثمين ، وقيام دولة المرابطين على أكتـاف ثلاث من أكبر قبائلهم هي لمتونة ، وجـدالة ، ومسـوفة ، أثـر بالـغ في تاريـخ هذه القبائل ، بل في تاريخ المغرب والسودان والأندلس ، فقد كانوا حديثي عهـد بالإسلام ، وأسهموا في حركة الجهاد الذي أدّىٰ إلى سقوط إمبراطورية غانـة أقوىٰ ممالك السودان الغربي ، في ذلك الوقت .

وفي ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية العربية متدفّقة إلى غرب إفريقيا من مـدارس المغرب والأنـدلس ، وفي عهدهم تمَّ أعـظم مجهود في الميدان الثقافي في غرب إفريقيا ، حينما أُسِّست مـدينة تمبكت ، وازدهـرت المراكز الثقافية الأخـرىٰ مثل أودغشت ، وغـانة ، وجنىٰ ، وانـطبعت الثقافـة العربية في المنطقة بطابع مغربي واضح ، فكان المذهـب المالكي هو مذهب هذه الشعوب ، كما كانت المدارس ، والكتب المتداولة مغربية السمة .

وممّا يؤسف له ، أنّ هذه الدولة تعرّضت لعداوات الكثيرين ممّن جاؤوا بعدها من الموحّدين ، والأندلسيين الذين حملوا عليها حملة ظالمة ، فمحوا آثارها ، وحاولوا النيل منها ، وتشويهها ، ولم يكن ذلك إلاّ نتيجة للتعصّب القبلي ، والتعصّب الديني والمذهبي(1) .

وتبعهم في تلك الكراهية بعض المؤرّخين المستشرقين المحدّثين مثل راينهارت دوزي(2) ، الذي دفعه إعجابه بالمعتمد بن عباد ملك أشبيلية ، وغيره من ملوك الطوائف إلى كره المرابطين الذين خلعوهم ، واتهامهم بالجهل ، والوحشية ، والقضاء على العلم ، والحضارة بالأندلس ، وتبعه في ذلك بعض المحدّثين(3) .

وعلى الرغم ممّا أحاط بنشأة دولة المرابطين من الغموض ، وندرة المصادر التي عرضت لتاريخها بوجهٍ عام ، فقد قام بعض الباحثين المحدّثين(4) بجهود صادقة من أجل كتابة تاريخ منصف لهذه الدولة المجاهدة ، ولكن معظم هذه البحوث كانت مقصورة على الفترة المغربية الأندلسية ، ولم تتعرّض للدور الذي قامت به الدولة في غرب إفريقيا إلاّ بالقليل .

---

(1) البيدق (أبو بكر الصنهاجي) أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحّدين ، تحقيق ليفي بروفنسال حيث نجد باباً خاصاً في ذكر مثالب المرابطين ؛ المقري (شهاب الدين أبو العباس) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ 4 ، ص ص 177 ، 193 حيث رسالة الشقندي التي كتبها في فضل الأندلس وهاجم فيها يوسف بن تاشفين والمرابطين واتهمهم بالجهل .

(2) Dozy, R., Loci Abbadides.

(3) Froelich, J.C., Essai sur les causes et Methodies de l'Islamisation de l'Afrique de l'Quest du XI siécle, «Islam in Tropical Africa».

جان وجيروم طارو : أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحّدين ترجمه وعلّق عليه أحمد بلا فريج ، ومحمد الفاسي .

(4) د . أحمد مختار العبادي ، د . إحسان عباس ، د . حسن أحمد محمود ، د . حسين مؤنس ، د . محمد عبد الهادي شعيرة ، د . محمد عبد الله عنان ود . محمود مكي .

وقد قابلتني صعاب كثيرة ، في هذا البحث ، منها ندرة الوثائق والمصادر التي تتحدث عن نشاط المرابطين في غرب إفريقيا ، وإغفال المؤرّخين الأوائل تدوين هذه الفترة ، وتعمَّد البعض عدم الإشارة إليها ، بسبب موقف الموحّدين من المرابطين ، الذين حاولوا التشكيك في عقيدتهم ، وفقدان بعض هذه المصادر التي كانت معاصرة للمرابطين مثل كتاب « الأنوار الجليّة في أخبار الدولة المرابطية » الذي ألّفه أبو زكريا يحيىٰ بن محمد يوسف الأنصاري الذي يكنّىٰ بأبي بكر ويعرف بابن الصيرفي ، وكان هذا المؤرّخ كاتباً للأمير تاشفين بن عليّ بن يوسف بن تاشفين ، فكنت أجد معظم هذه المصادر بل كلها تقف صامتة حيال دور المرابطين في غرب إفريقيا ، ممّا جعل مهمة البحث شاقّة وعسيرة .

وقد اعتمدت أساساً على المصادر العربية ، وعلى ما كتبه المؤرّخون والرحّالة والجغرافيون العرب ، وما كتبه المؤرّخون من علماء السودان الغربي ثم ما ألّفه المؤرّخون والرحّالة الأوروبيون .

ولا شكّ أنّنا ندين بالكثير للرعيل الأول من الرحّالة والمؤرّخين العرب من أمثال ابن حوقل ، والبكري ، والإدريسي ، وابن بطوطة ، وابن عذارى ، وابن أبي زرع ، وابن الخطيب ، وابن خلدون ، والقلقشندي ، والنويري ، وغيرهم ، ومن المؤرّخين السودان أحمد بابا التنبكتي ، وعبد الرَّحمٰن السعدي ، ومحمود كعت وغيرهم .

فكتاب ابن عذارى المراكشي : « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » يعد من أهم المصادر عن الفتح العربي للمغرب ، بل من أهم مصادر تاريخ بلاد المغرب والأندلس في العصر الإسلامي . ويتناول ابن عذارى في كتابه تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح حتىٰ أواخر القرن السادس الهجري ، وقد اعتمد فيه على مصادر مغربية أندلسية ، ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجري ، وقد نشر في أربعة أجزاء ، الجزء الرابع خاص بالمرابطين نشره الدكتور إحسان عباس في بيروت سنة 1967 .

أمّا كتاب ابن أبي زرع : « الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » فهو يشتمل على تاريخ المغرب عموماً ، وتاريخ مدينة فاس خصوصاً ، ويبدأ بالدولة الإدريسية الحسنية إلى سنة 726 هـ ـ 1325 م من سنوات حكم السلطان المريني عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المشهور بكنيته أبي سعيد .

وطريقة ابن أبي زرع في كتابه ليست طريقة الحوليات التي جرىٰ عليها أغلب المؤرّخين المسلمين ، إذ أنَّه يؤرِّخ للدول ، فيُشير إلى الدولة ونسبها ، وتشعّب قبائلها ، ومراحل تأسيسها ثم يذكر ملوكها ، واحداً ، واحداً ، وما قاموا به من أعمال ، ثم يذكر في نهاية الكلام عن كل دولة ، ما حدث في أيامها من أحداث اجتماعية واقتصادية ، وظواهر طبيعية كوفيات الأعيان ، ورخاء الأسعار ، وانتشار الأوبئة ، والمجاعات ، ونزول الأمطار بغزارة وظهور نجوم غريبة .

ويعتبر من أهم المصادر نظراً لشموله ، ووفرة أخباره بالرغم ممّا فيه من بعض الأخطاء .

وكتاب « أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام » ألّفه الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب (713 — 776 ـ 1313 — 1374 م) في مدينة فاس حينما التجأ إليها ، في الفترة ما بين (774 — 776 هـ ـ 1372 — 1374 م) وقد ألّفه بمناسبة تولية السلطان أبي زيان محمد السعيد بن عبد العزيز سلطاناً على المغرب ، وكان لا يزال طفلاً لم يبلغ الحلم بعد ، ولهذا السبب أعطىٰ ابن الخطيب ذلك العنوان .

على أنه يلاحظ أنَّ عنوان الكتاب لا ينطبق على محتوياته التاريخية لأنه لم يقتصر على ذكر ملوك المسلمين صغار السن فحسب ، بل تناول جميع عهود الملوك والخلفاء المسلمين في المشرق والمغرب ، ولكنه حرص في كل مرة تعرض فيها لعهد ملك لم يبلغ الحلم ، على أن يضيف عبارة « وهو من شرط كتابنا » .

أمّا كتاب الحلل الموشية ، فإنَّ مؤلّفه يشير إلى أنَّه فرغ من تأليفه في يوم الخميس 12 ربيع الأول سنة 783 هـ ـ 1381 م ولقد نسب بعض المؤرّخين المغاربة المحدِّثين[1] تأليف هذا الكتاب إلى أديب مالقي اسمه أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن السمّاك العاملي (كان حياً في أواخر القرن الثامن الهجري) غير أنَّ هؤلاء المؤرّخين للأسف لم يذكروا لنا الدليل الذي اعتمدوا عليه لإثبات صحة هذه النسبة[2] .

ويقع كتاب الحلل الموشية في جزء واحد ، وقد طبع أولاً في تونس في سنة 1910 ، ونسبه الناشر خطأً إلى الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب الذي توفي قبل تاريخ انتهاء الكتاب بنحو سبع سنوات .

وقد استمدَّ المؤلّف مادته التاريخية من كتب أصيلة معاصرة ، نص على أصحابها صراحة مثل كتاب « الأنوار الجليّة في أخبار الدولة المرابطية » لابن الصيرفي ، وكتاب « نظم الجمان في أخبار الزمان » لأبي الحسن علي الكتامي ، المعروف بابن القطان ، وكان كاتماً لأسرار الخليفة المرتضي الموحّدي ، ولم يبق من هذا الكتاب سوىٰ قطعة صغيرة تتناول أحداث سقوط المرابطين وقيام دولة الموحّدين ، كذلك اعتمد على كتاب أبي عبيد البكري الجغرافي الأندلسي المتوفى سنة 487 هـ ـ 1004 م والذي كان معاصراً لقيام دولة المرابطين .

ويعتبر القسم الخاص بتاريخ البربر ، من الجزء السادس من كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » للمؤرّخ عبد الرَّحمٰن بن خلدون من أهم المصادر التي تعالج تاريخ المغرب ، فرغم تأخّر ابن خلدون (ت 808 هـ ـ 1406 م) فإنَّ كتابه لا يعتبر مهماً بالنسبة لهذه الفترة فحسب ، بل بالنسبة لأقدم عصور المغرب العربي ، بفضل ملكة ذلك المؤرّخ العبقري الموهوب التي

---

(1) عبّاس بن إبراهيم المراكشي : الإعلام بمن حلَّ بمراكش وإغمات من الأعلام ، جـ 1 ص 23 ، عبد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصىٰ ص ص 55 ، 56 .

(2) ترجمة ابن سمّاك العاملي في الكتيبة الكاملة ، ص 198 .

جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل ، الذي يتلخّص في أنَّ الحدث التاريخي أكبر من أن يكون حدثاً سياسياً فقط ، بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية ، والاجتماعية ، وكذلك النفسية ، وهذا ما دعا ابن خلدون إلى الكلام عن كل هذه الفنون في المقدمة ، حتىٰ جعل مفهوم التاريخ أشبه ما يكون بمفهوم الحضارة ، أي جعله تاريخاً للأمم ، والشعوب بدلاً من سير الملوك والأمراء أو طبقات الأعيان ، أمّا عن السبب الثاني الذي يجعل للجزء الخاص بتاريخ المغرب أو تاريخ البربر أهمية خاصة فلأنَّ معظم النظريات التاريخية التي استنبطها ابن خلدون ، كانت نتيجة دراسة لتاريخ المغرب ، إلى جانب تجاربه الخاصة ، أثناء عمله وتجواله ، في دول المغرب قبل رحيله إلى مصر والشام ، كما أنَّ ابن خلدون بفضل علمه ، ومركزه الاجتماعي ، كان في موقف يسمح له بالاطّلاع على أمهات ومراجع تاريخ المغرب .

وكتاب النويري : « شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب محمد بن عبد الدايم (ت 733 هـ ـ 1333 م) » المعروف باسم نهاية الإرب في فنون الأدب ، وهو عبارة عن موسوعة كبرىٰ في الأدب ، والجغرافية ، والتاريخ ، والاجتماع ، وهو أشبه ما يكون بكتاب حديث فهو مرتّب ومنسّق ، ومع ذلك فما زال بعض أجزائه مخطوطة ، والجزء الثاني والعشرون تاريخ للمغرب والأندلس منذ الفتح العربي حتى أيام المؤلّف ، وهذا الجزء ما زال مخطوطاً .

ومن الجغرافيين العرب البكري « أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت 487 هـ ـ 1094 م) وكتابه المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب » الذي نشره دي سلان De Slane بالجزائر سنة 1911 وهو يتضمَّن معلومات دقيقة عن الطرق والمسالك ، يحتمل أن تكون مستقاة من وثائق الدولة ، إذ يبدو أنَّ البكري كان في موقف يسمح له بالاطّلاع على وثائق وسجلّات ديوان قرطبة .

ومن الجغرافيين العرب الإدريسي : « محمد بن عبد العزيز الشريف (ت 649 هـ ـ 1251 م) » الذي ألّف الكتاب المسمّىٰ بنزهة المشتاق في

اختراق الآفاق ، والمعروف أيضاً بكتاب روجر صاحب صقلية النورمندي ، والجزء الخاص بالمغرب نشره وترجمه إلى الفرنسية راينهارت دوزي ، وديمويه تحت عنوان : « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » وهو فيما يتعلّق بالمعلومات الخاصة بأحوال المغرب في القرون الأولىٰ ، لا يرقىٰ إلى مستوىٰ البكري وابن حوقل ، ولكنه يضيف معلومات ثمينة عن الفترات التالية الخاصة بالقرنين الخامس والسادس الهجريين .

وصاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، يصف مكة والمدينة ، ومصر وبلاد المغرب والسودان ، وينقل عن البكري ، والإدريسي ، لكنه يضيف معلومات قيّمة تاريخية ، وجغرافية ، وعمرانية خاصة بالقرن السادس الهجري ، وقد نشره وعلّق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، وأصدرته مطبعة جامعة الإسكندرية سنة 1958 .

وكتب الطبقات ومنها العامة مثل وفيّات الأعيان لابن خلّكان : « أبو العباسي شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 608 — 681 هـ ـ 1211 ـ 1282 م) » ، والخاص مثل طبقات الصحابة ، وطبقات الصوفية مثل كتاب المالكي ، أبو بكر بن عبد الله بن أبي عبد الله المالكي توفي حوالي منتصف القرن الخامس الهجري 11 م ، والمسمّىٰ برياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا ، وزهّادهم وعبادهم ، وقد نشر الجزء الأول منه الدكتور حسين مؤنس بالقاهرة سنة 1951 .

وكتاب القاضي عيّاض : « أبو الفضل عيّاض بن موسىٰ بن عيّاض اليحصبي (ت 544 هـ ـ 1149 م) » ، والمسمّىٰ بترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، ونشر في بيروت سنة 1967 ، وقد تضمّن ترجمة لأصحاب مذهب مالك إلى عصر المؤلّف .

وفضلاً عن هذه المصادر ، فإنَّ زيارتي لمنطقة البحث في الفترة من أغسطس 1973 إلى مارس 1974 قد ساعدتني في جمع المادة العلمية كما

سهّلت لي الاطّلاع على الكثير من المخطوطات والاستفادة منها ، ممّا كان له فائدة كبيرة .

وقد قسّمت البحث إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة .

تناولت في الفصل الأول دراسة قبائل الملثمين التي قامت على أكتافها دولة المرابطين ، وهي لمتونة ومسوفة وجدالة . بالتفصيل ، وشرحت كيف وصل الإسلام إليها ، وتناولت بالدراسة أيضاً قبائل غرب إفريقيا ، ثمّ تعرّضت للأوضاع الاقتصادية والسياسية في المنطقة قبل ظهور المرابطين .

والفصل الثاني خصصته لصاحب دعوة المرابطين الشيخ عبد الله بن ياسين والظروف التي أدّت إلى اختياره ، وتعرّضت بالتفصيل لظروف إنشاء الرباط والآراء المختلفة حول مكان هذا الرباط ، وبيّنت جهود عبد الله بن ياسين في نشر الإسلام في السودان والمغرب .

وتناولت في الفصل الثالث جهود الأمير أبي بكر بن عمر السياسية والعسكرية في أول الدعوة ، واتجاهه للجهاد في السودان ، وبخاصة في إسقاط إمبراطورية غانة التي كانت تقف حجر عثرة في تقدّم الإسلام في هذه المنطقة .

أمّا الفصل الرابع فقد درست فيه جهود الأمير يوسف بن تاشفين في الجهاد وأوضاع المنطقة بعد استشهاد الأمير أبي بكر ، واستطاعة الأمير يوسف بن تاشفين الاستمرار في سياسة الأمير أبي بكر في السودان ، ثم تناولت فترة حكم الأمير علي بن يوسف ، وانشغاله بجبهة الأندلس ، وظهور الموحّدين ، عن استمرار مواصلة الجهاد في السودان .

وفي الفصل الخامس بيّنت ما قام به المرابطين من جهود لنشر الثقافة العربية ، والإسلامية ، وجهود الدعاة والتجّار من المرابطين في السودان الغربي ، وتكوين طبقة جديدة من دعاة التكرور والديولا .

والملحق خصصته لنشر وتحقيق رسائل القاضي أبو بكر المعافري

الأندلسي ، رسول الأمير يوسف بن تاشفين إلى المستظهر الخليفة العباسي في بغداد .

وفي الخاتمة استخلصت بعض النتائج التي توصّلت إليها من تحديد جديد لمكان الرباط الذي أقامه الشيخ عبد الله بن ياسين ، وبيَّنت حقيقة عودة الأمير أبي بكر المفاجأة إلى المغرب وترك جبهة السودان ، وألقيت الضوء على الموقف بينه وبين الأمير يوسف بن تاشفين ، ووضّحت سبب ترك يوسف بن تاشفين جبهة الأندلس بعد معركة الزلاقة فجأة دون مطاردة ملوك المسيحيين ، وعودته إلى المغرب بعد وفاة ابنه وليّ عهده الأمير أبو بكر بن يوسف ، كما أظهرت الدور الذي قام به المرابطين في نشر الحضارة الإسلامية والثقافة العربية في السودان ، كما قمت بتعيين أماكن جديدة لبعض المدن على الخرائط .

وهذا الكتاب في الأصل رسالة ماجستير قدمت لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة سنة 1975 نالت تقدير جيد جداً ، وقد توسّعت في شرح الهوامش حتىٰ يستطيع طلبة شعب التاريخ استيعاب أسماء الأعلام والأماكن بسهولة .

وأخيراً أشكر أساتذتي الدكاترة حسن أحمد محمود ، والسيد دراج ، ومحمد أمين ولا أنسىٰ مساعدة الأستاذ إبراهيم شبوح من تونس ومن المغرب إبراهيم الكتاني والدكتور محمد بن شريفة على معاونتهم ومساندتهم لي في البحث ، كما أشكر الأستاذ الفاضل الحبيب اللمسي الذي كان له الفضل في نشر هذه الرسالة بعد أن ظلّت قابعة أكثر من ثلاث عشر عاماً لا ترىٰ النور ، ومن الصدف العجيبة التي صاحبت هذه الرسالة أنَّ الحكومة التونسية قدمت لي منحة دراسية مدة ستة شهور لإعدادها من عام 1973 ، ثم يكون الناشر من الجمهورية التونسية الشقيقة وهذا إن دلَّ على شيء فهو فأل حسن على تعاون أمة العرب والإسلام لخير العلم والمعرفة .

وأرجو أن أكون بهذا الجهد المتواضع قد أضفت شيئاً إلى المكتبة التاريخية لانصاف دولة المرابطين.

الفصل الأول

غرب افريقيا قبل ظهور المرابطين

* * *

القبائل الملثمة التي قامت على أكتافها دولة المرابطين ـ تسمية الملثمين مضارب لمتونة وجدالة ومسوفة ـ الحياة الاجتماعية ـ إسلام الملثمين قبائل السودان الغربي ـ مضاربهم ـ صفاتهم ـ دور الملثمين في الحياة الاقتصادية في غرب إفريقيا ـ الأوضاع السياسية في المنطقة (الحلف الصنهاجي الأول الحلف الصنهاجي الثاني) ـ انتقال زعامة الحلف إلى جدالة .

* * *

الملثمون

عرفت قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة بالملثمين ، لاتخاذهم اللثام شعاراً لهم ، يميّزهم عن سائر قبائل المغرب ، وهم يتخذون اللثام منذ طفولتهم فيعتقدون أنَّ ظهور الفم عورة يجب إخفاءها ، أو أنَّ « الفم سوءة تستحق الستر كالعورة »[1] فلا يتركون اللثام ليلاً ، أو نهاراً ، فيذكر البكري أنهم : « لا يفارقون ذلك (اللثام) في حال من الأحوال »[2] بل إنَّهم لا يعرفون بعضهم البعض إلاَّ بهذا اللثام ، ولا يستطيعون التمييز بينهم إلاَّ به[3] ، « ولا يميز رجل من وليه ، ولا حميمه إلاَّ إذا تنقّب ، وكذلك في المعارك ، إذا قتل منهم القتيل ، وزال قناعه ، لم يعلم من هو حتىٰ يُعاد عليه القناع ، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم ، وهم يسمّون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان »[4] .

والرجال فقط هم الذين يتلثّمون ، أمَّا نساؤهم فهنَّ حواسر الوجوه . ويبدو أنَّ العرب هم الذين أطلقوا عليهم هذه التسمية ، كما يبدو أنهم لم

---

(1) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، ص 99 .

(2) البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ص 170 .

(3) Leo Africanus, History and Discription of Africa.

(4) البكري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

يكونوا محجبين أيام الرومان ، والبيزنطيين ، لأنه لا ذكر لهذه الخصلة المميّزة في كتابات القدماء[1] .

وقد ذهب المؤرّخون والرحّالة مذاهب شتّىٰ في تفسير أسباب اتخاذهم اللثام ، من ذلك ما ذكره ابن خلّكان من أنَّ اللثام كان سنة لهم يتوارثوه خلفاً عن سلف ، وفسَّر سبب اتخاذهم اللثام بأمرين ، الأول : أنَّ الخاصة كانوا يتلثّمون لشدة الحر ، والبرد ، ثم قلدهم العامة ، والثاني أنَّ قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم عند غيابهم ، فيأخذون أموالهم ، ويسبون حريمهم ، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن تتخذ النساء زيّ الرجال ، ويرسلونهم في ناحية ، وأن يقعدوا هم في البيوت متلثّمين في زيّ النساء فإذا أتاهم العدو ، وظنّوهم نساء خرجوا عليهم ، ففعلوا ذلك ، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم فلزموا اللثام تبرّكاً بما حصل لهم من الظفر بالعدوّ »[2] .

وذكر اللثام على أنّه نوع من السحر ، أو أنَّ له أسباباً سياسية أو يحتمل أنَّ هذه القبائل اتخذت اللثام في أعراسها ، ثم أصبح عادة[3] .

ومن المحتمل أن يكون اللثام اتخذ في أول الأمر للحماية من الغبار ، ومنغصات جوّ الصحراء ، فتوارثه الأبناء عن الآباء ، حتىٰ صار عادة بمرور الزمن[4] . ويرجح هذا الرأي أنَّ بدو الصحراء في شبه الجزيرة العربية يتلثمون لنفس هذه الأسباب .

واستقرَّت الرياسة في قبائل الملثمين في قبيلة لمتونة ، في بيت

---

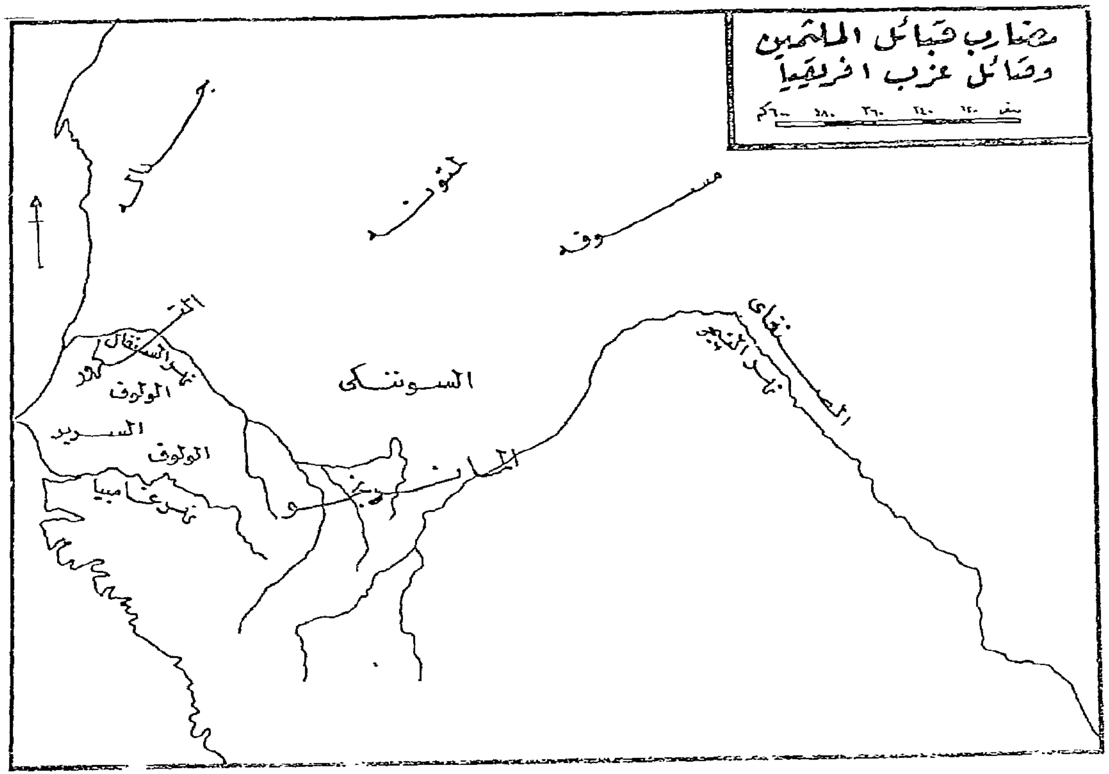
(1) Bovill, E.W., The Golden trade of the Moors, p.51,
Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa, p.20.

(2) ابن خلّكان ، وفيّات الأعيان وأبناء الزمان ، جـ 7 ص 129 ، مؤلّف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص 28 ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ 9 ص 260 ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، جـ 22 ص 62 .

(3) أشباخ (يوسف) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين ص 62 .

(4) ابن الأثير ، المصدر السابق ص 67 ، د . حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ص 50 .

خريطة رقم (1)



Trimingham, J.S. A History of Islam in West Africa, pp.38 - 39.

ورتنطق ، الذي كان منه الأمير يحيىٰ بن عمر (ت 448 هـ ـ 1056 م) وأخوه الأمير أبو بكر بن عمر (ت 480 هـ ـ 1086 م) ، وابن عمهما الأمير يوسف بن تاشفين (ت 500 هـ ـ 1106 م)[1] .

وتميَّزت قبيلة جدالة بكثرة العدد[2] ، بينما اشتهرت قبيلة مسوفة بقدرتها العسكرية ، وبأنَّ أفرادها أجمل البربر صوراً[3] .

وكانت مضارب هذه القبائل في شمال إفريقيا ، في صحارىٰ المغرب وسهوله ، ولكنها أخذت منذ القرن الثالث الميلادي تهجر مواطنها ، متّجهة صوب الغرب ، ثم ما لبثت أن انحدرت نحو الجنوب[4] . يشير ابن خلدون إلى ذلك بقوله : « وهذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطّنون بالقفر ، وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ، أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور ، قبل الفتح لا يعرف أولها ، فأصحروا عن الأرياف ، ووجدوا بها المراد ، وهجروا التلول وجفوها »[5] .

وفي القرن السابع الميلادي ، وعلى أثر الفتح العربي ، فرَّت بعض القبائل الصنهاجية إلى المغرب الأقصىٰ ، فلمَّا أوغل المسلمون في هذه البلاد ، اتجهت هذه القبائل إلى الجنوب . وكلَّما تعرضت بلاد المغرب لأزمة سياسية ، كلَّما أوغلت هذه القبائل في هجرتها للجنوب ، حتىٰ بدأت في أواخر القرن العاشر الميلادي تستقر في منطقة أدرار . ووصلت بعضها إلى مشارف نهر السنغال[6] .

امتدَّت مضارب لمتونة من وادي نول على المحيط الأطلسي حتىٰ رأس

---

(1) ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ 6 ، ص 373 .

(2) الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص 238 .

(3) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص 190 .

(4) Terrasse, H., Histoire du Maroc, Tome I, p.72.

(5) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 370 .

(6) De La Chapelle, F., Moors "Ency of Islam" Vol.3, p.561.
Trimingham, J.S., The influence of Islam upon Africa, p.10.

بوجادور الحالية ، وإلى الشرق من وادي نول على مسيرة سبعة أيام منه تقع مدينة أَزُكِي ، وهي حصن لمتونة ، ومعقلها ، وتعتبر أَزُكِي الباب الشمالي لبلاد السودان ، فلا اتصال بين المغرب وبين بلاد السودان إلّا عن طريقها ، ويبدو أنَّ مضارب هذه القبيلة ، امتدَّت في الصحراء شرقاً حتىٰ الطريق الواصل ما بين غانة[1] ، وسجلماسة[2] ، حتىٰ قيل إنَّ ديارهم تمتد مسيرة شهرين طولاً ، وعرضاً ولكنها لم تمتد على ساحل المحيط حتىٰ مصبّ السنغال ، ولا يبعد أن تكون بعض بطونها قد استقرَّت بالقرب من غانة ، وقد استطاعت لمتونة أن تسيطر على الطريق التجاري الهام بحذاء المحيط الأطلنطي ، لذلك لم يكن غريباً أن تكون لها السيادة على غيرها من القبائل ، ففضلاً عن الموقع الممتاز كانت لها الوفرة في العدد والمال[3] .

وإلى الجنوب من مضارب لمتونة تمتد صحراء تيسر أو ازواد إلى البحر المحيط (الأطلنطي) ، ثم تمتد جنوباً نحو بلاد السودان ، حيث تحتل قبيلة جدالة جنوب ذلك النطاق حتىٰ مصبّ نهر السنغال ، متخذة من مدينة أوليل[4] مركزاً لها ، حيث يكثر الملح الذي تحمله القوافل إلى الشمال ، وإلى الجنوب بصفة خاصة[5] .

---

(1) المقصود مملكة غانة القديمة .

(2) سجاماسة : مدينة مندرسة في أقصىٰ جنوب المغرب بالقرب من مدينة الريساني في مقاطعة تافيلالت على طرف الصحراء ، بنيت سنة 140 هـ (757) ، وكانت تمتاز بكثرة نخيلها وأعنابها وقصورها . انظر خريطة رقم 2 ص 25 .

ابن حوقل ، المصدر السابق ص 95 ، البكري ، المصدر السابقص 148 ، الإدريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ص 60 - 62 ، الدمشقي ، المصدر السابق ص 238 ، ياقوت ، معجم البلدان في معرفة المدن والقرىٰ جـ 3 ص 45 .

(3) د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون تاريخهم السياسي ص 28.

(4) أوليل : جزيرة في البحر وعلى مقربة من الساحل بها الملاحة المشهورة ، ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها .

الإدريسي ، المصدر السابق ص 2 .

(5) البكري ، المصدر السابق ص 172 ، انظر خريطة رقم 2 ص 25 .

أمّا قبيلة مسوفة فتمتد مضاربها في منطقة قاحلة مجدبة تقع بين سجلماسة في الشمال ، وأودغشت[1] في الجنوب ، وكانت بعض بطونها توغل شرقاً حتىٰ تصل إلى تادمكة[2] ، وكوكو[3] .

وكل قبيلة تنقسم إلى طبقتين ، السادة المسمون إيماجيغان Imajeghan أمازيغ والأمجاد Imghad أو الرقيق[4] . ويحتكر السادة الحياة السياسية فيؤلّفون مجالس القبيلة ويتولون قيادة الجيوش ، ويسيرون أمور القبيلة وفق إرادتهم ، كما يحتكرون التجارة ، ويدافعون عن أفراد القبيلة ضد أيّ مكروه .

أمّا « الأمجاد » أو الرقيق فهم لا يباعون ، ولا يشترون كالعبيد ، ولا يعتقون ، وإنّما يورثون كما يورث المتاع ، وهم يتفانون في الدفاع عن القبيلة ، ولهم الحق في اقتناء الثروات كيفما طاب لهم ، ولكن هذه الأموال يرثها السيد بعد وفاتهم ، كما أنهم يقومون بكل الأعمال فهم يرعون الماشية ، ويؤدّون كل ما تحتاجه القبيلة من عمل يدوي ، ويؤدّون لسادتهم نصيباً معلوماً كل عام من الإبل ونتاجها[5] .

وتمتاز هذه القبائل بالشجاعة الفائقة ، والقدرة على تحمّل الصعاب والمشاق ، والتحرّك السريع ، ففيهم البسالة ، والجرأة ، والمهارة في ركوب الإبل[6] .

وهم طوال القامة ، وفيهم رشاقة ، ذوو وجوه سمراء طويلة ، ولأولادهم

---

(1) أودغشت : مدينة في الصحراء كانت سوقاً كبيرة تتحكّم في الطرق التجارية بين الشمال والجنوب ، البكري ، المصدر ا لسابق ص 158 ، الإدريسي ، المصدر السابق ص 31 ، انظر خريطة رقم 2 ص 25 .

(3،2) انظر مواقع هذه المدن على الخريطة رقم 4 ص 101 .

(4) Bovill, E.W., op.cit., p.51.

(5) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ص 16 .

(6) ابن حوقل ، المصدر السابق ص 99 ، الدمشقي ، المصدر السابق ص 239 .

في العادة شعور مموجة فاتحة اللون ، سرعان ما تصبح سـوداء[1] ، وبعضهم يهتم بشعره ، وذلك أنهم يصبغونها في كل أسبوع بالحناء ، ويغسلونها في كل أسبوع مرتين بدقيق البيض ، وبالطين الأندلسي[2] .

ولباس الرجال منهم ، والنساء أكسية الصوف ، ويحتزمون في أوساطهم بمآزر صوف ، ويسمّـونها أسفـاقس[3] ، ويرتـدون فوقهـا الأكسية المعلمـة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل[4] .

ويتّخذ السادة لثاماً مغايراً للثام العبيد ، وممّا يؤيّد ذلـك أنّ ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة قد نصّ على أنّ من يلتثم يجب أن يكون صنهاجياً ، أو لمتونياً أو لمطياً ، لأنّ ما عداهم من الحشم ، والعبيد حين يتّخذون اللثـام ، يأتون بكثيـر من الفواحش ، بسبب تخفّيهم وراء اللثـام ، وقال : « إنّ عبيـد المرابطين إذا تلثّموا وجب أن يكون ذلك بعلامـة يعرفـون بها مثـل أن يتلثّموا بخمار ، أو مئزر »[5] .

ولا يمشي الرجل منهم أبداً إلّا وفي يده رمحان قصار العصي ، طـوال الأسنان ، رقاقها ، وينتخبونها من أطيب الحدايد[6] .

ويسكن الملثمـون في بيـوت من الحجـارة ، والـطين ، ومن الخـوص والشجر ، ومن الشعر ، والوبر ، وأكثر أثاثهم من الصوف[7] .

وطعـامهم يعتمـد على اللحم ، واللبن والعسـل ، والزبيـب ، وبعض

---

(1) Bovill, E.W., op.cit., p.50.

(2) الإدريسي ، المصدر السابق ص 62 .

(3) الإدريسي ، المصدر ا لسابق ، الصفحة نفسها .

(4) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 173 .

(5) ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي) رسالة في الحسبة ، نشرها ليفي بروفنسال ص 28 .

(6) الإدريسي ، المصدر السابق ص 62 .

(7) Leo Africanus, op.cit., p.151.

الحبوب[1] ، ويأكلون الجراد مقلوا ، ومملحاً[2] ، وشرابهم اللبن بدلاً من الماء[3] .

وللمرأة في هذه القبائل مكانة رفيعة ، بل تعتبر نداً للرجل ، وتتمتّع بالمساواة التامة ، فهنَّ يقتنين الثروات ، ويتمتّعن بنفوذ لا حدَّ له ، ولا يباشرون أعمالهنَّ المنزلية ، بل يقوم بها العبيد ، كما أنّهنَّ يشاركن في مجلس القبيلة ، وفي البتّ في الأمور الهامة[4] ، وقد كانت لزينب النفراوية زوجة يوسف بن تاشفين دوراً عظيماً في إدارة دفّة الأمور ، في حياة زوجها[5] .

إسلام الملثمين

عرف الملثمون الإسلام منذ منتصف القرن الأول للهجرة ، فبعد أن أتمَّ العرب المسلمون فتح مصر ، اتجهوا غرباً إلى برقة[6] ، وطرابلس ، ثم تدفّقوا بعد ذلك إلى إفريقيا[7] ، بقصد الاستيلاء عليها ، ولم تتوطّد أقدامهم إلاّ بعد تأسيس مدينة القيروان[8] سنة 51 هـ ـ 670 م ، على يد عقبة بن نافع الفهري[9] ، على أنَّ دخول البربر في الإسلام كان بطيئاً ، وتذهب بعض

---

(1) ابن حوقل ، المصدر السابق ، البكري ، المصدر السابق ص 164 .

(2) الإدريسي ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(3) البكري ، المصدر السابق ص 170 ، صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار ص 213 .

(4) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 52 .

(5) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص 128 . انظر هامش 1 ص 99 .

(6) برقة : هو الاسم العربي لولاية سيرانيك Syrénaique الرومانية ، وعاصمتها الحالية بنغازي .
Yver, G., Barka "Ency. of Islam art".

(7) أفريقية تطلق على المغرب الأدنىٰ وهو ما يقابل القطر التونسي الآن ونصف ولاية قسنطينة بالجزائر .
Hadj Sadok, Moh., Description du Maghreb et de l'Europ au 3 - 4 siécle, p.92, note 24.

(8) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، جـ 1 ص 6 .

(9) عقبة بن نافع الفهري ، تولّىٰ إمارة جيش إفريقية مرتين ، الأولىٰ من سنة 50 هـ إلى 55 هـ =

الـروايات إلى أنَّ عقبـة بن نـافـع ، قـد أدرك مـدينـة نـول[1] ، في المغـرب الأقصىٰ ، وبذلك يكون عقبة بن نـافع قـد توغَّـل في ديار الملثمين ، الـذين ينتشـرون في المنطقـة الممتدة من جبـال درن إلى نهر السنغـال وهناك ابتنىٰ مسجـداً في مدينـة ماسـة[*][2] . وقد تـرك بين هذه القبـائل بعض أصحـابـه يعلمونهم القرآن ، والإسلام[3] . ويبدو أنَّه أقرَّ شيـوخهم على ما بـأيديهم من سلطة[4] ، فيذكر ابن عذاري أنَّه لم يدخل المغرب الأقصىٰ أحد من ولاة خلفاء بني أمية بالمشرق ، إلَّا عقبة بن نافع الفهري ، ولم يعرف المصامدة غيـره ، وقيل إنَّ أكثرهم أسلموا طوعاً على يديه[5] . كما أنَّه فتح هذا الطريق أمام تجار العرب الذين بدأوا يرتادون هذه المنـاطق ، واتخذوا من مـدينة أَزُكِي قـاعدة لهم ، وبدأوا يجوبون الصحراء إلى أودغشت ، وربما كانوا ينظمون حملات

= (670 - 674 م) والثانية من 60 هـ إلى 64 هـ (679 - 683 م) وقـد اشتهرت ولايتـه الأولىٰ بتأسيسه مدينة القيروان كقاعدة عسكرية ثابتة لجيوشه ، أمَّا ولايته الثانيـة فقد تميَّـزت بحملته الكبرىٰ التي وصل فيها إلى المحيط الأطلنطي في أقصىٰ المغرب ، وفي أثناء عودته ، استشهد في معركة ضد البربر بقيادة كسيلة زعيم بربر البرانس عند بلدة تهودة في أرض الزاب حيث دفن هناك ، ويُعرف هذا المكان اليوم باسم سيدي عقبة ، وهو واحة صغيرة بالقرب من بسكرة في الجنوب في ولاية قسنطينة .

ابن الخـطيب ، القسم الثالث من أعمـال الأعلام فيمن بـويع قبـل الاحتـلام من ملوك الإسلام ، تحقيق د . أحمد مختار العبادي ، محمد إبراهيم الكتاني ، ص 2 حاشية 2 ، د . عبد العزيز السيد ، المغرب الكبير ، جـ 2 ص ص 191 - 228 .

(1) نول : مدينة صحراوية على نهر يحمل نفس الاسم ، خلفتها اليوم مدينة تندوف . الإدريسي ، المصدر ا لسابق ص 75 ، الحميري : مارة نول ، ص 584 ، د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص 16 .

(*) ماسة في السوس الأقصىٰ جنوب أغادير .

(2) المالكي ، رياض النفوس ، في طبقات علماء إفريقيا وزهادهم وعبادهم ص 28 .

ابن عذاري : المصدر السابق ص 21 ، د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 61 ، De La Chapelle, D'une histoire de Sahara Occidental, Hesperis, Tome XI, 1930, p.24.

(3) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 42 .

(4) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 61 .

(5) ابن عذاري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

مسلّحة يعاونهم فيها الملثمون ، لجلب الرقيق من بلاد السودان ، وحمله إلى المغرب الأقصىٰ ، للإتجار فيه[1] .

وقد عمل أبو المهاجر دينار[2] ، وحسّان بن النعمان[3] على محاولة استمالة قبائل البربر للإسلام .

وفي ولاية ابن نصير[4] ، أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقّهوهم في الدين[5] ، وكانت سياسته متمّمة للسياسة التي بدأها أبو المهاجر ، وحسّان بن النعمان ، إذ أخذ موسىٰ يعمل على اصطناع البربر وإشراكهم في جيوشه ، وتكليف الفقهاء المسلمين بتعليمهم قواعد الإسلام ، فنشأ عن تلك السياسة ، اندماج المغرب في جسم الدولة الإسلامية ، فصار يدين بدينها ، ويتكلّم بلغتها .

وكان نشر الإسلام ، يسير مع الفتح جنباً إلى جنب ، فأكثر من المساجد وأنشأ مسجداً في أغمات هيلانة في المغرب الأقصىٰ[6] .

---

(1) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(2) أبو المهاجر دينار تولّىٰ إمارة جيش إفريقيا في الفترة التي بين ولايتيّ عقبة الأولىٰ والثانية أي من سنة 55 هـ إلى 60 هـ (679:674 م) على عهد معاوية الخليفة الأموي وكان رجلاً سياسياً بارعاً ، عمل على تجنّب سياسة العنف مع البربر محاولاً استمالتهم ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً ، فاتّحدت جيوش العرب مع البربر بزعامة أبي المهاجر وكسيلة ، واستولوا على البلاد الساحلية حتىٰ نهر ملوية آخر حدود المغرب الأوسط . د . السيد عبد العزيز ، المرجع السابق ص ص 208 ، 216 .

(3) حسان بن النعمان الغساني تولّىٰ إمارة جيش إفريقيا على عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة 76 هـ (695 م) واستطاع أن يستولي على قرطاجنة ، وغيرها من المدن الساحلية واستمال قبائل البربر ، فاتّخذ منهم عمالاً وقوّاداً ، وعرب الدواوين .
الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقيا والمغرب ص ص 55 ، 67 .

(4) موسىٰ بن نصير هو عبد الرّحمٰن بن موسىٰ بن نصير اللخمي ولد سنة 19 هـ (640 م) وتوفي سنة 98 هـ (716 م) .
الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ص ص 68 ، 89 .

(5) ابن عبد الحكم ، كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص 204 .

(6) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 43 .

استمرّت جهود الولاة العرب في نشر الإسلام ، بجانب فتح الأراضي فأرسل عبيد الله بن الحبحاب[1] ، حبيباً بن أبي عبيد بن عقبة بن نافع الفهرى غازياً إلى بلاد السوس الأقصىٰ ، فوصل إلى المناطق الجنوبية للصحراء حيث بلاد مسوفة ، ولمتونة الصنهاجية المؤدِّية إلى مدينة أودغشت[2] ، فأخضع القبائل الموجودة في تلك الأقاليم ، وعاد بعدد وفير من السبي ، وأحمال عظيمة من التبر[3] .

ومع ذلك فقد نقض البربر طاعة والي[4] الحبحاب بطنجة ، وأقاليمها فتداعت برابر المغرب ، وثار البربر بالمغرب الأقصىٰ ، فكانت أول ثورة في المغرب الأقصىٰ على الحكم العربي[5] .

وكان لهذه الثورة عدة أسباب منها سوء معاملة والي الحبحاب على طنجة وما والاها ، وسوء سيرته في البربر ، والتعسّف في الاستيلاء على طرائف المخرب وسباياه . وقد أذكىٰ هذه الثورة وأجمع أوارها الخوارج[6] ،

---

(1) عبد الله بن الحبحاب ولاه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك على المغرب والأندلس بالإضافة إلى عمله في ولاية خراج مصر وذلك سنة 116 هـ (734 م) ، ومن مآثره أنّه أتمّ مدينة تونس ، وجدَّد دار الصناعة بها ، كما أتمَّ جامع الزيتونة سنة 116 هـ والذي كان اختطّه حسّان بن النعمان .

د . حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص 176 .

(2) ابن خلدون ، المصدر السابق ص110 .

(3) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ص 217 ، ابن عذاري ، المصدر السابق ص 51 .

(4) كان يدعىٰ عمر بن عبد الله المرادي ، ابن عذاري ، المصدر السابق ص 52 . .

(5) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 67 .

(6) الخوارج إحدىٰ الفرق الإسلامية ، الذين قبلوا التحكيم بين عليّ بن أبي طالب وبين معاوية الذي كان يطالب بدم الخليفة عثمان بن عفان في موقعة صفين سنة 37 هـ (657 م) وأجبروا عليّاً على قبول التحكيم ، وعندما قبله ، وفطنوا أنه خدعه ، عادوا وطلبوا من عليّ رفض التحكيم ، فلمّا رفض خرجوا عليه ، وكانوا يرون أنَّ الخلافة حق لكل مسلم تتوافر فيه صفات خاصة من العلم والتقوىٰ والشجاعة .

الشهرستاني ، الملل والنحل ص ص 168 ، 196 ، محمد أبو زهرة ، المذاهب الإسلامية ص ص 124 ، 125 .

واستمالوا بعض القبائل إلى عقائدهم ، فعمّت الثورة بلاد المغرب الأقصىٰ ، وجاوزت أطراف الصحراء ، فاشترك فيها الملثمون ، وسقطت القيروان ، وكاد سلطان العرب في المغرب أن يُقضىٰ عليه[1] ، إلاّ أنّ حنظلة بن صفوان[2] استطاع أن ينجح في إعادة الأمن والسلام إلى المغرب في مدة ولايته ، التي استمرّت سنتين ، ولكنه لم يستطع أن يعيد الوحدة إلى المغرب ، فقد وضحت شخصية المغرب بظهور دويلات مستقلّة[3] .

ورغم أنّ ولاة القيروان فقدوا نفوذهم بالمغرب الأقصىٰ ، فقد ظلّوا يهتمّون بشؤونه ، ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات التي تربطه بإفريقيا فقد استطاع عبد الرَّحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ، زعيم اليمنية ، بعد أن أخرج حنظلة بن صفوان من ولاية إفريقيا سنة 127 هـ ـ 744 م أن يتم ما بدأه جده من نصف قرن تقريباً ، فاستطاع جنوده أن يعبروا الصحراء لأول مرة ، وأن ينشروا الإسلام في ربوع صنهاجة الجنوب أهل اللثام ، الضاربين في جوف الصحراء ، كما أقام سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقيا ، وأودغشت بصحراء المغرب الأقصىٰ ، فاتّصل التجّار بديار الملثمين وبلاد السودان عن طريقين ، طريق ساحل المحيط ، وطريق الصحراء ، وأصبحت القوافل أكثر جرأة على ارتياد هذا الطريق ، ميممة جهة غرب إفريقيا ، كما أسفرت هذه الجهود عن وصول الإسلام إلى غرب إفريقيا[4] .

---

(1) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 67 ، د . حسن إبراهيم حسن ، الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء ص 49 .

(2) حنظلة بن صفوان والي مصر الذي أرسله الخليفة هشام بن عبد الملك إلى المغرب لإنقاذ الموقف ، فوصل القيروان سنة 124 هـ (741 م) إلى أن أخرجه عبد الرَّحمٰن بن حبيب الفهري. د . حسين مؤنس ، المرجع السابق ص ص 176 ، 180 .

(3) دولة ابن صالح بن طريف البرغواطي في شالة بتامسنا ، دولة بني صالح بن منصور الحميدي في نكور والريف الغربي ، وفي سجلماسة قامت دولة بني مدرار . د . السيد عبد العزيز ، المرجع السابق ص 372 .

(4) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 68 ، د . حسين مؤنس ، المرجع السابق ص ص 170 ، 180 .

وقد استطاعت دولتان أن تقتسما النفوذ السياسي في بلاد المغرب وأن تستقل عن نفوذ الخلافة العباسية ، فاستقلّ الأغالبة[1] بالقسم الشرقي مع التبعية الإسمية للخلافة العباسية ، بينما استقلّ الأدارسة[2] بالمغرب الأقصىٰ .

وقد عملت دولة الأدارسة على توحيد المغرب الأقصىٰ تحت لواء أمرائها من العلويين ، كما أقرَّت السلام في ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج أن تمزّق شمله ، وكان لانتساب الأدارسة إلى سبط الرسول ـ عليه السلام ـ أثر كبير في توحيد القبائل المتنافرة ، فاستطاعوا أن يظفروا بتأييد الأهالي على اختلاف ميولهم ، واستطاع إدريس لأول مرة أن يوحِّد بين السهول الساحلية (المغرب الأقصىٰ) ، وإقليم المراعي ، إذ أنهم ظفروا بتأييد صنهاجة المغرب الأقصىٰ ، وصنهاجة اللثام ، وبذلك استطاعوا أن يوحّدوا بين إقليم الحضارات القديمة ، وإقليم البداوة ، فازدهرت الحياة الاقتصادية ، ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل[3] .

---

(1) الأغالبة نسبة إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي ، وكان أبوه من أنصار أبي مسلم الخراساني في نشر الدعوة العباسية ، وقد قدم إلى إفريقيا صحبة ابن الأشعث الذي كان قد أرسله الخليفة المنصور سنة 144 هـ (761 م) لتهدئة الأمور في المغرب بعد أن زال عنها نفوذ بيت عبد الرَّحمٰن بن حبيب الفهري ، وقد استطاع إبراهيم في سنة 184 هـ (800 م) أن يوطِّد الأمر لنفسه في إفريقيا ، وأن يستقلّ بالأمر جزئياً عن الخلافة العباسية ، والاكتفاء بالتبعية الإسمية ، فأقرَّه الرشيد لرغبته في أن تكون دولة الأغالبة بغرض القضاء على دولة الأدارسة .

ابن الخطيب ، المصدر ا لسابق ص 14 ، الناصري ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصىٰ ، جـ 1 ص 129 ، د . السيد عبد العزيز ، المرجع السابق ص 373 .

(2) الأدارسة : نسبة إلى إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، لحق بالمغرب سنة 172 هـ (788 م) ونزل على قبيلة أوربة من بربر البرانس ، فالتفَّ حوله البربر وبايعوه ، وتزوّج منهم ، توفي مسموماً بيد أحد رجال الرشيد سنة 175 هـ (790 هـ) .

ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 51 ، ابن الخطيب ، المصد ر السابق ص ص 190 ، 194 .

الناصري ، المرجع السابق ص 159 .

(3) د . حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ص 28 ، د . حسن إبراهيم ، المرجع السابق ص 97 .

وبفضل هذه الوحدة استطاعوا أن يوجّهوا أنظارهم إلى جهاد مقدس يقصد نشر الإسلام ، فكانوا أشبه بالدعاة منهم بالولاة ، فقد جاوز نفوذهم منطقة المغرب الأقصىٰ إلى الصحراء الكبرىٰ التي تفصل بلاد المغرب عن إقليم السودان[1] .

وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ الثقافة العربية في المغرب الأقصىٰ ، وغرب إفريقيا ، فقد أصبحت هذه المدينة منارة للعلم يقصدها العلماء والتجّار ، من كل حدبٍ وصوب ، وأخذت معاهدها تتأثّر بالمؤثّرات الثقافية من معاهد القيروان ، والأندلس ، وتشيعها في البلاد ووصل نفوذ فاس إلى درعة[2] بالدعوة والكلمة الطيّبة ، وليس بالسيف[3] .

وبذلك انضوىٰ الملثمون تحت لواء الأدارسة ، وأصبحت جزء من أملاكهم يولون عليها الولاة ، ويخضعونها للحكومة المركزية في فاس ، فزاد تحوّل صنهاجة اللثام إلى الإسلام ، الذي بدأ في عهد عقبة بن نافع ، وزاد في عهد الأدارسة ، وانتشر بين الملثمين في القرن الثالث الهجري[4] .

قبائل السودان الغربي

تعيش هذه القبائل في منطقة شمال الغابات في الغرب في منطقة فوتا

---

(1) الجزنائي ، زهرة الآس في مدينة فاس ص 22 .

(2) درعة مدينة وولاية خصبة في جنوب المغرب الأقصىٰ ، وراء جبال الأطلس ، وتقع شرقيّ إقليم السوس ، ويخترقها نهر يُعرف بوادي درعة ، يصبُّ في المحيط الأطلنطي ، بالقرب من رأس نون ، وكانت ولاية درعة في العصور الوسطىٰ محطة تجارية مزدهرة ، ولاسيّما في واردات السودان من الذهب والفضة ، كما كانت مركزاً علمياً اشتهر بعلمائه وزواياه ، وسكان درعة خليط من العرب وبربر صنهاجة ، وتسمّىٰ بالبربرية تيومتين .

البكري ، المصدر السابق ص ص 155 ، 156 ، ابن الخطيب المصدر السابق ص 142 حاشية 1 . وانظر خريطة رقم 2 ص 25 .

(3) د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص 26 .

(4) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 373 .

Futa ، فعلىٰ امتـداد شاطىء نهـر السنغال عـاش شعب التكـرور Tacoror أو لتكـولور Toucouleurs ، والسـرير Serer والـولوف Woloff وفي الشـرق على متداد الشاطىء الأيسـر لنهر النيجـر بين مدينتيّ تـلابري Tillabery ، وبـوسا Bussa الحاليتين[1] .

وقد أطلق الرحّالة والمؤرّخون العرب على هذه القبائل اسم السودان ، فالإصطخـري يصفهم بقولـه : « وسكانهـا ليسوا بنـوبة ، ولا بـزنج(*)[2] ولا بحبشة ولا من البجة ، إلاّ أنهم أشدّ سواداً من الجميع ، وأصفىٰ »[3] .

وهم بصفة عامة من الزنوج ، سواء ممَّن يعيشون في منطقة الغابات أو في الأراضي المكشوفة الزراعية التي تقع في شماليها بين الصحراء ، ونهريّ السنغال والنيجر ، أمَّا الأقوام الذين يعيشون في منطقة الغابات فهم أكثر زنجية من ناحية الدم ، وأكثر سواد بشرة ، من أخوانهم في الشمال ، ويـرجع ذلـك إلى أنَّه في خلال العصور السابقة ، كان السودان الغربي معرّضاً لنفوذ ، وتأثير الشعوب غير الزنجية من سكان الصحراء ، وشمال إفريقيا[4] .

التكرور أو التكلور شعب زنجي يسكن الجزء الأوسط ، من وهاد فوتـا السنغالية ، على جانبيّ نهر السنغال ، وإن كان أكثرها على الجانب الأيسر من هذا النهر ، وتنتشر مواطن التكرور أيضاً في أنحاء إفريقيا الغربية ، وبخاصـة في السنغال الأعلىٰ[5] . واختلطت قبائل التكرور بقبائل البربر التي كانت تندفع إلى الجنوب بسبب توسّع الفتوحات العربية في الشمال الإفريقي ، وقد تزاوج

---

(1) Fage, J.D., An introduction to the Mistory of West Africa, p.5.
انظر خريطة رقم 1 ص 5 .

(*) (2) المقصود بالزنج سكان شرق إفريقيا .
الإصطخري ، المسالك والممالك ص 74 .

(3) المقـدسي ، أحسن التقاسيم في معـرفة الأقـاليم ص 231 ، الإصطخـري ، المصدر السـابق ص 34 . القزويني ، المصدر السابق ص 24 .

(4) Fage, J.D., op.cit. p.5.

(5) Seligman, C.G., Races of Africa, p.48.

هؤلاء البربر مع التكرور ، واستطاع كثير من هؤلاء البربر ، أن يتبوّأوا مراكز سياسية هامة ، ويحتلّوا مكانة اجتماعية بارزة[1] .

واشتهر التكرور حتىٰ أنّ اسمهم كان يطلق على السودان كله ، وكانت تعني عند العرب أرض المسلمين السود[2] . واعتنق التكرور الإسلام قبل غيرهم من قبائل غرب إفريقيا ، فدخلها الإسلام في عهد الملك وارجابي بن رابيس سنة 430 هـ[3] .

أمّا الشعب الآخر في هذه المنطقة ، فهم قبائل الفولاني[4] ، الذين يُعرفون حالياً في السنغال باسم التكرور ، وكانت أوطانهم الأولىٰ في السنغال الأوسط ، وقد تأثّروا بالدعاة من البربر ، إذ كانت جماعات البربر تأتي من الشمال وراء المرعىٰ ، في منطقة السفانا ، في منطقة فوتا تورو Futa Toro في اتجاه الجنوب والغرب ، واختلطت هذه الجماعات ، وتزاوجت ، واستوعبت البربر لغاتهم ، وانفصلت هذه الجموع عن أصولها في الشمال ، بعد أن استقرّوا ووجدوا المرعىٰ لماشيتهم[5] .

أمّا قبائل الماندي ، أو الماندنجو فقد انتشرت لبضعة قرون في المنطقة

---

(1) Mahoney, F. and Idowu, H.O., The peoples of Senegambia, p.135.

(2) القاقشندي ، المصدر السابق ص 282 ،
Ifemesia, C.C., The peoples of West Africa, p.50,
Trimingham, I.S., op.cit, p.42.

(3) البكري ، المصدر السابق ص 172 ،
Ifemesia, C.C., op.cit. p.50 and
Trimingham, J.S., op.cit. p.28.

(4) يُطلق عليهم أيضاً اسم الفلاني Fellani الفلاتا Fellata ، الفيلاني Felani ، الفوله Foulah ، الفول Ful ، الفولبي Fulbe ، البيول Peul ، البولو Pullo .
Murdoch, G.P., Africa its Peoples and their Culture History, p.413.
Trimingham, J.S., Islam in West Africa, p.II.

(5) Ifemesia, C.C., op.cit, p.52.
Trimingham, J.S., op.cit, p.12.

الممتدّة بين نهر النيجر ، والمحيط الأطلنطي[1] .

والماندنجو تعبير لغوي يُطلق على عدة قبائل تحمل أسماء مختلفة مثل ديولا Dyula ، خاسونكي Khasonke ، بامبارا Bambara وسننكي Soninke ، ومالنكي Malinke أو ماندنكا Mandinka .

ويوصف الماندنجو بأنه طويل نحيل تقاطيعه تقرب من السحنة القوقازية غزير شعر اللحية إذا قورن بسائر الزنوج ، والبشرة خفيفة السمرة ، وهم من الزراع المهرة[2] .

وقبائل السرير Serer فقد عاشت ما بين نهريّ جامبيا Gambia ونهر السنغال إلى الجنوب من الرأس الأخضر ، بجوار التكرور ، بل انّهم يعتبرون جزءاً من مملكة التكرور مع قبائل الولوف[3] .

أمّا قبائل الولوف Woloff فيشغلون المناطق التي تمتد إلى الجنوب من نهر السنغال ، وتنسب الروايات الشعبية أصول الولوف إلى مجموعة من قبائل البربر والفولبي Fulbe ، والسرير Serer ، والماندنكا .

وكان يعتقد أنهم يشغلون المناطق الشمالية من نهر السنغال ، ولكن توسّع الفولبي ، والبربر ، الآتية من مملكة التكرور ، دفعتهم في اتجاه الجنوب إلى المنطقة بين نهريّ السنغال ، وجامبيا وهي المناطق التي ما زالوا يشغلونها[4] حتىٰ اليوم .

وتقاطيع الولوف زنجية ، شديد السمرة ، يعتمدون على الزراعة ، أمّا

---

(1) Labourt, H., Mali "Ency. of Islam", Vol.3, p.239.

(2) Seligman, C.G., op.cit, p.49 and
Trimingham, J.S., op.cit. pp.13 - 14.

(3) Seligman, C.G., op.cit. p.49.

(4) Mahoney, F. and Idowu, H.O., op.cit, p.135 and
Murdoch, G.P., op.cit, p.74.

اقتناء الماشية فيكاد يكون مقصوراً على الطبقة الميسورة ، وأهم خواص مجتمع الولوف تعدّد طبقاته ، وبعضها أرقىٰ من بعض ، ولا يجوز أن يتزوّج الشخص إلّا من طبقته ، وأعلىٰ الطبقات هي طبقة الأحرار ، المنحدرون من أحرار ، تليهم طبقة أتباعهم الذين أصبحوا أحراراً ، ويأتي بعد ذلك في المرتبة الثالثة ، أصحاب الحرف مثل الحدادين ، ودباغي الجلود ، ثم طبقة المنشدين ، والمغنين ثمّ العبيد المتحرّرين أو نسلهم[1] .

وممّا يؤثّر عن مجتمع الولوف أنهم كثيراً ما يؤلّفون جماعات تعمل معاً وتتألّف كل جماعة من نحو بضعة عشر فرداً ، وللشباب جماعاتهم ، وكذلك الفتيات قبل الزواج ، أو بعده ، وقبل أن يلدنَ أطفالاً ، وكل جماعة تقوم بالعمل مجتمعين ، ومتنافسين ، وأهم هذه الأعمال إعداد الأرض وزراعتها[2] .

أمّا قبائل السوننك Soninke أو السراكول[3] Scrakoulé فكانت تعيش في الصحراء ثم تركّزوا بعد ذلك على حافتها الجنوبية ، فيما عرف باسم « الساحل » واليوم يعيشون بالقرب من ساحل المحيط[4] .

وقد امتزجوا بالبربر ، والفولانيين ، وهم من الزرّاع الذين ارتبطوا بالأرض غير أنّ هذا لم يحل دون اشتغالهم بالتجارة ، ولعلّ اختلاط السوننك بغيرهم من العناصر ، ولاسيّما البربر هو الذي غيّر بعض الشيء في لون بشرتهم ، وقد أقاموا أقوىٰ إمبراطوريات السودان الغربي وهي إمبراطورية غانة[5] .

---

(1) د . محمد عوض ، الشعوب والسلالات الإفريقية ص 53 .

(2) المرجع السابق ص 54 .

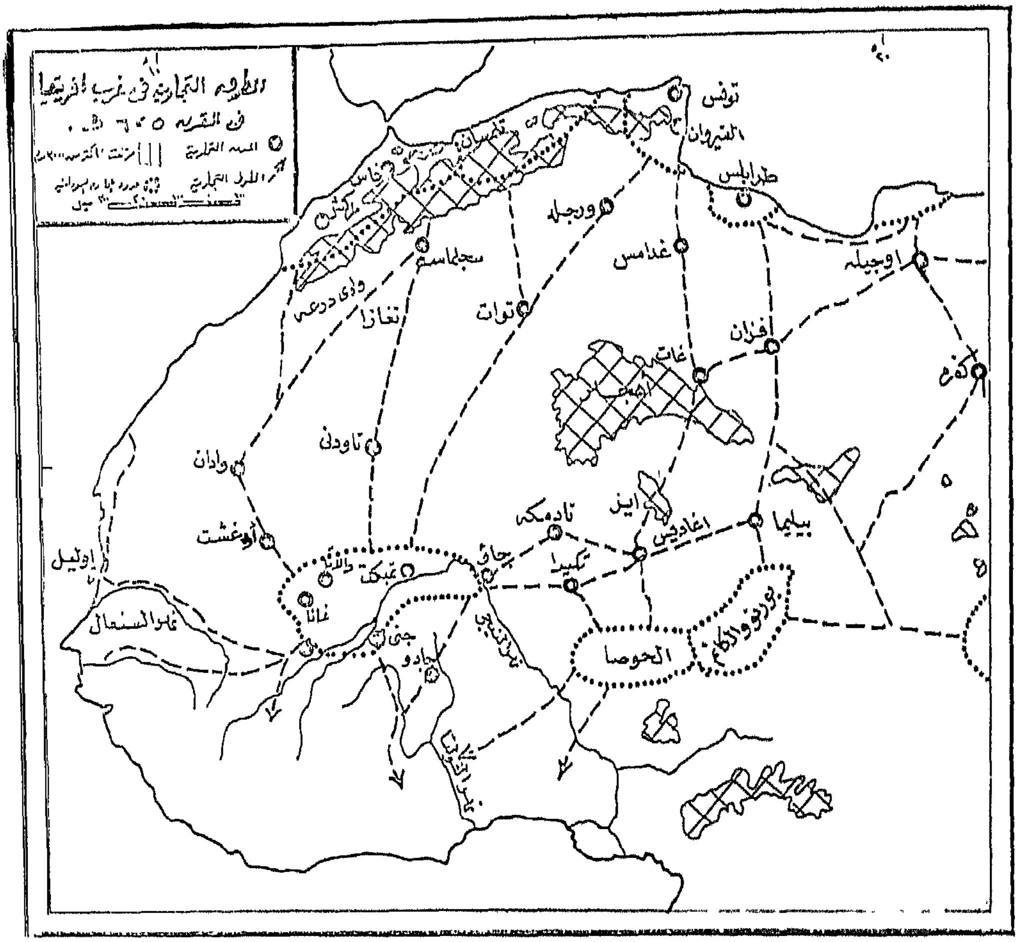
(3) تعني كلمة السراكول عند قبائل الولوف الرجال الحمر .

Trimingham, J.S., op.cit. p.13.

(4) Trimingham, J.S., ibid., p.14.

(5) Fage, J.D., op.cit. p.18.

خريطة رقم (2)



Fage, J.D., An Atlas of African History, p.17.

أمّا قبائل الصوصو Soso أو Susu فهي إحدىٰ فروع قبائل الفولاني[1] أمّا قبـائل الصنغـاي فتتكوّن من جمـاعتين رئيسيتين هما المـزارعين ، وصائـدي الأسماك في إقليم منحنىٰ النيجر[2] .

العلاقات الاقتصادية بين الملثمين في غرب إفريقيا

قـامت قبائـل الملثمين بدور الـوسيط التجاري بين شمـال الصحـراء ، وجنوبها ، بحكم سيطرتها على الـطرق التجاريـة ، التي تمرّ عبـر أراضيها ، والتي تربط بين شعوب شمال إفريقيا ، وشعوب غرب إفريقيـا . وقد تكـوّنت المحطّات التجارية ، وأصبحت مدناً عامـرة ، تمتد بين الشمـال والجنوب ، وازدهرت هذه المدن فصارت مراكز هامة للتجارة ، والعلـم .

وأهم الطرق التجارية التي كانت تمرّ في أراضيهم ، الطريق الساحلي ، الذي يبدأ من تارودنت شرقيّ أغادير على نهر السوس ، ويسير إلى نول ، ثم يسير إلى جزيرة أوليل[3] .

فكانت تارودنت من محطات هذا الطريق ، تستقبل القـوافل الآتيـة من الجنوب ، كما أنّها كانت تقوم بتزويد القوافل المتجهة نحو السودان الغربي ، فكانت أشبه مـا تكون بعـاصمة الجنـوب ، وكانت مـركزاً لصنـاعة السكـر ، وصناعة الأكسية الرقاق ، والثياب الرفيعة « ممّا لا يقدر أحد على عمله بغيرها من البلاد »[4] .

كما أنّ نساء هذه المدينة كنّ مشهورات بالصناعـات اليدويـة ، وكانت تقـع في إقليم خصب صالـح للزراعة ، وتـربية الحيـوان ، تكثُر بهـا الجنات

---

(1) Trimingham, J.S., op.cit, p.14.

(2) Delafosse, M., Songhay "Ency. of Islam", Vol.IV, p.488.

(3) أوليل يقابلها اليوم مدينة سانت أتين ، د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص 16 . انظر خريطة رقم (2) .

(4) الإدريسي ، المصدر السابق ص 61 ـ

والبساتين ، فإذا عادت إليها القوافل ، وجدت ما ينسيها مشقّة الرحلة[1] .

أمّا المحطة الثانية فهي مدينة نول التي تكثُر بها المراعي ، يعيش عليها البقر ، والغنم ، حتىٰ ليكثر فيها السمن واللبن ، كما أنها كانت مشهورة بصناعة الدرق اللمطية[2] ، وهي من الدرق العجيب الذي يفضله كل محارب ، يصفها الإدريسي بقوله : « لا شيء أبدع منها ، ولا أصلب ، ولا أحسن صنعاً ، ولا أخفّ وزناً »[3] . يُضاف إلى ذ لك صناعة السروج ، ولجوم الخيل ، والأقتاب[4] . وقد ازدهرت هذه الصناعة نظراً لكثرة القوافل التي تمرّ بالمنطقة .

أمّا أوليل فهي عبارة عن جزيرة قريبة جداً من الساحل ، وفيها معدن الملح ، ويذكر الإدريسي أنّ « بها الملاحة المشهورة ، ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها » ، وكان الملح يحمل منها إلى جميع بلاد السودان من الجزيرة بالسفن إلى البرّ ، ثم تحمله الإبل بعد ذلك إلى مناطق توزيعه[6] .

أمّا الطريق الأوسط فيمتد من سجلماسة ، ثم درعة إلى أودغشت ثم النيجر ، ويمر بأزْكِي .

وسجلماسة هي رأس الطريق ، وهي من أقدم رؤوس طرق القوافل في المغرب ، وهي داخلة في مناطق الصحراء ، تقع على وادي كثير المياه يزيد ماؤه في الصيف ، « ويزرع فلاحوه بمائه على نحو ما يزرع فلاحو مصر »[7] .

---

(1) الإدريسي ، المصدر السابق ص 62 .

(2) نسبة إلى اللمط وهو دابة دون البقر ، لها قرون دقاق حادة للذكر والأنثىٰ ، وكلّما كبر منها الواحد طال قرنه حتىٰ يكون أكثر من أربعة أشبار ، وأجود الدرق ، وأغلاها ثمناً ما صنع من جلود العواتق منها ، وهي التي كبر قرناها لكبر سنها . البكري ، المصدر السابق ص 171 .

(3) الإدريسي ، المصدر السابق ص 59 .

(4) الأقتاب : سروج الجمال .

(5) الإدريسي ، المصدر السابق ص 2 .

(6) الإدريسي ، المصدر السابق ص 2 .

(7) المصدر نفسه ، ص 60 .

وفيها تنبت الزراعات النقدية ، وهي الكمون ، والكراوية ، والحناء ، ويجود فيها التمر(1) .

وتقع مدينة درعة إلى الجنوب ، وهي تشبه سجلماسة من حيث وقوعها على وادي (وادي درعة) . وتستمد ثروتها من القوافل ، وكانت درعة أهم من سجلماسة ، لأنها تتصل بالأقاليم الواقعة غربي جبال الأطلسي إلى تارودنت ، وغيرها ، بحيث كانت درعة تزداد أهمية كلّما ازداد العمران في سهول المغرب المطلّة على المحيط ، ويصفها الإدريسي بأنها مدينة كبيرة آمنة ، غير مسورة ، ولا مُحاطة بحفير ، وإنَّما هي قرىٰ متّصلة ومزارع ، وهي تشارك سجلماسة من ناحية زراعة الحنّاء(2) .

أمَّا المحطة التالية فهي أَزُكِي ، وهي من بلاد مسوفة ، ولمطة . وهي الباب الشمالي إلى السودان ، ومن أراد الدخول إلى بلاد سلىٰ ، وتكرور وغانة من بلاد السودان ، فلا بدَّ لـه من المرور بهـذه المدينـة ، وهي مدينـة ليست كبيرة ، ولكنها متحضّرة(3) .

أمَّا مدينة أودغشت فهي الباب الجنوبي التي تقف عندها قوافل السودان الواردة من كل ناحية نحو المنحنىٰ العلوي للنيجر الذي كان يعتبـر الممر إلى بـلاد السودان ، وهي مـدينة تتحكّم في مـدخل السـودان ، وصفهـا كـل من البكري ، والإدريسي ، « بأنها مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل موت ، لا ينبت شيئاً ـ وحولها بساتين النخل ، ويزرع فيهـا القمح بـالقوس ، ويسقىٰ بالدلاء»(3) . وكانت أودغشت تتصل بخط تـارودنت وسجلماسـة بالمغـرب ، وخط آخر ينتهي عند ورجلة بالجزائر ، وتعتبر من الأسواق الكبيرة التي يكثر بها البيع ، والشراء « فسوقها عـامرة ـ لا يسمـع الرجـل فيها كـلام جليسه لكثـرة

(1) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(2) الإدريسي ، المصدر السابق ص 61 .
(3) البكري ، المصدر السابق ص 158 ، الإدريسي ، المصدر السابق ص 32 .

جمعه ، وضوضاء أهله ، وتبايعهم بالتبر ، وليست عندهم فضة »[1] .

أمّا الطريق الثالث فهو طريق الصحراء الذي يمتد من أرض السودان إلى جبل نفوسة وطرابلس »[2] .

هذه الطرق كانت تتحكّم فيها قبائل الملثمين طوال تاريخهم ، وشاركوا البرابيش[3] Brabish الطريق من سجلماسة إلى والاتا .

وكانت المحافظة على تجارة الصحراء ، ضرورة اقتصادية ، ففرضوا المكوس ، والضرائب على القوافل التجارية التي تستخدم الطرق ، التي تحكموا فيها « فكانت لهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة ، من كل جمل وحمل ، ومن الراجعين بالتبر من بلاد السودان »[4] . كما أنّهم كانوا حريصين على أن ما يفرضونه من المكوس ، لا يكون أكثر ممّا تحتمله التجارة[5] .

وقد نعمت القبائل الملثمة بلون من الرخاء الاقتصادي ، ولون من الاستقرار « فهم أرباب نعم جزلة ، وأموال جليلة ، أملياء ، تجار مياسير »[6] .

وارتقت بعض الصناعات في مدن الصحراء كصناعة السكر « الذي يعمّ أكثر الأرض ، ويشفّ على جميع أنواع السكر ، في الطيب والصفاء »[7] . وكذلك صناعة الأقتاب ، والدرق اللمطية ذات الشهرة .

---

(1) البكري ، المصدر ا لسابق ص 158 .

(2) محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص 23 .
Fage, J.D. and Oliver, Ronald, Ashort history of Africa, p.42.

(3) البرابيش : شعب عربي تبربر ويحتمل أن يكونوا من أصل حامي .
Bovill, E.W., op.cit, p.53.

(4) ابن حوقل ، المصدر السابق ص 99 .

(5) Bovill. E.W., op.cit, p.53.

(6) البكري ، المصدر السابق ص 158 ، الإدريسي ، المصدر ا لسابق ص 66 .

(7) الإدريسي ، المصدر السابق ص 61 .

فكانت قوافل الصحراء تحمل هذه المصنوعات ، ومصنوعات الشمال من الصوف وأساور النحاس الأحمر ، وحلق وخواتم النحاس ، وخرز الزجاج الأزرق والودع علاوة على أهم ساحة تصدر للسودان وهي الملح[1] . وكانوا يبادلونهم بالذهب والرقيق[2] .

الأوضاع السياسية في المنطقة

كان لإسلام الملثمين في القرن الثالث الهجري ، أثر بالغ في تاريخ المغرب والسودان . فقد نتج عن ذلك قيام تحالف قوىٰ من قبائل صنهاجة اللثام « لمتونة ، وجدالة ، ومسوفة » ، وكان هذا الحلف بزعامة لمتونة ، فجاهدوا جيرانهم من السودان[3] . ومن الملاحظ أنَّ هذا الحلف اتجه إلى الجنوب في توسّعه ، ولم يتجه نحو الشمال ، حتىٰ لا يصطدم بقوة الأدارسة وبقبائل المصامدة القوية المحاربة ، التي كانت ما تزال في أوجّ قوتها ، وكانت على استعداد للدفاع عن أراضيها الخصبة ، التي تحتلّها ضد أي إغارة ، أو عدوان من قبائل البدو جنوب جبال درن[4] .

ويرجع الفضل إلى تيولوتان زعيم هذا الحلف ، فاستطاع أن يوحِّد تلك القبائل الملثمة تحت قيادته ، ويوجهها للجهاد ، ونشر الإسلام في السودان الغربي ، فدان له معظم ملوك السودان ، واتّقوه بدفع الجزية ، ويذكر البكري ، وابن أبي زرع ، ما وصل إليه تيولوتان من سلطة وسيطرة على قبائل

---

(1) الإصطخري ، المصدر السابق ص 34 ، الإدريسي ، المصدر السابق ص 22 ، ياقوت الحموي ، المصدر السابق ص 821 ، ابن الوردي (زين الدين أبو حفص عمر) تاريخ بن الوردي ، جـ 1 ص 84 .

(2) الإدريسي ، المصدر السابق ص 2 ، ابن الوردي ، المصدر السابق ص 84 .

(3) البكري ، المصدر السابق ص 159 .

Terrase, H., Histoire du Maroc, Tome I, p.72.

(4) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ص 72 .

Terrase, H., op.cit, p.72.

الصحراء بأنّه « ملك الصحراء بأسرها ، ودان له بها أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان ، كلهم يؤدّون له الجزية ، وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها عمارة ، وكان يعتد في مائة ألف نجيب »[1] . كما أنّه استطاع أن يستولي على مدينة أودغشت التي كانت محطة رئيسية لقوافل الصحراء ، وأن يستخلصها من يد ملك غانة ، ويتخذها عاصمة له ، وبذلك نجح هذا الملك في أن يصل إلى نهر السنغال لأول مرة[2] .

وفي عهده استعان بـه الملك بعرين ملك مـاسينا[3] ، ضـد ملك أوغام التي تقع شرق مملكة غانة ، فأمد تيولوتان الملك بعـرين بخمسين ألف بعير وهاجم بلد أوغام في غفلة من حراسها ، واستطاعوا الاستيلاء عليها ، وعندما تحقّق أوغام من الهزيمة ، وما حلّ ببلاده « هان عليه المـوت فرمىٰ بـدرقته ، وثنىٰ رحله عن دابته ، وجلس عليها . فقتله أصحاب تيولوتان »[4] . ولمّا رأت نساء أوغام ما حلّ بملكها وببلدهنّ قتلن أنفسهنّ حتىٰ لا يقعن في أيدي رجال تيولوتان[5] .

وقد طال عمر تيولوتان نحواً من ثمانين عـاماً ، وتـوفي سنة 222 هـ[6] ـ (836م) .

وتعاقب الرئاسة بعده حفيده الأثير[7] . (ت 287 هـ ـ 900 م) ، ثمّ بعده ولده تميم (ت 306 هـ ـ 918 م) .

---

(1) البكري ، المصدر السابق ص 159 ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ص 120 ، 121 .
Trimingham, J.S., A history of Islam in West Africa, p.22.

(2) De la Chapelle, F., op.cit, p.561 and
Trimingham, J.S., op.cit, p.22.

(3) البكري ، المصدر السابق ص 159 ،

Trimingham, J.S., op.cit, p.22.

(4 ، 5) البكري ، المصدر ا لسابق ص 159 .

(5) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 121 .

(6) يالتو ابن بطّي في ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 226 .

ثم حدثت خلافات في هذا الحلف ، أدَّت إلى قيام شيوخ صنهاجة على تميم ، وقتلوه ، فافترق أمرهم ، ولم يجتمعوا على أحد بعده ، واختلفت كلمتهم ، وظلُّوا كذلك مدة مائة وعشرين سنة[1] . إلى أن تكوَّن الحلف الصنهاجي الثاني ، بزعامة الأمير أبي عبد الله بن تيفاوت المعروف بتارسنا اللمتوني[2] . فاجتمعوا عليه وقدموه على أنفسهم ، واتَّصف هذا الأمير بأنَّه كان من أهل الدين والفضل ، والحج ، والجماعة ، حارب قبائل من السودان بموضع بغارة بالقرب من مدينة تاتكلاتين غرباً منها ، وكانوا على دين اليهودية ، وقد ساعدته في جهاده ، قبيلة بني وارث الصنهاجية ، التي كانت تسكن تاتكلاتين ، وهذه القبيلة اعتنقت الإسلام على يد عقبة بن نافع الفهري أيام فتحه المغرب ، « وهم صالحون متمسكون بالدين ، يجاهدون السودان الذين هم على غير دين الإسلام »[3]. وقد استشهد الأمير أبو عبد الله بن تيفاوت في هذه الموقعة بعد ثلاث سنوات من رياسته[4] .

وقد اختلفت الرواية في تحديد سنة إتمام الحلف الصنهاجي الثاني وفي مدة حكم أبي عبد الله هذا ، فيذكر بعض المؤرِّخين أنه تولىٰ رياسة هذا الحلف سنة 426 هـ[5] ـ 1034 م ، واستشهد بعد ثلاث سنوات من رياسته ، بينما يذكر بارث Barth أنَّ مدة رياسته كانت خمسة سنوات أي أنَّه استشهد سنة 431 هـ[6] ـ 1038 م .

---

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 121 ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 226 ، القلقشندي ، المصدر السابق ص 189 ، الناصري ، المرجع السابق ص 5 .

(2) تارشت في البكري (المغرب ص 165) ، ابن تيفات المعروف بتارشتا في ابن أبي زرع (روض القرطاس ص 121 ، محمد بن تيفات اللمطي في ابن الخطيب (القسم الثالث من أعمال الأعلام ص 226) تيفاوت المعروف بتارست في الناصري (الاستقصاء جـ 2 ص 5) .

(3) البكري ، المصدر السابق ص 164 ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 121 .

(4) البكري ، المصدر السابق ص 165 ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 121 ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 226 ، الناصري ، المرجع السابق ص 5 .

(5) البكري ، المصدر السابق ص 164 ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 121 ، ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقيا والمغرب في 101 ، الناصري ، المرجع السابق ص 5 .

(6) Barth, H., Travels and Disoveries in North and Central Africa, Vol. IV, p.582.

ولكنَّ أغلب المراجع تتفق على أنَّ خليفة هذا الزعيم قد خرج للحج ، ولقي الفقيد أبا عمران الفاسي(*) ، فقيه القيروان[1] . قبل وفاته سنة 430 هـ[2] ، وهذا يرجح أنَّ الحلف تمَّ قبل عام 429 هـ ـ 1037 م .

وقد انتهزت إمبراطورية غانة فرصة استشهاد ابن تيفاوت ، وتفرق الحلف ، فاستعادت مدينة أودغشت التي كانت تتحكّم في طريق التجارة بين السودان والمغرب ، وكان من نتيجة هزيمة لمتونة هذه أن تخلّت عن زعامة الحلف الصنهاجي وعن زعامة الملثمين ، ويرجع ذلك إلى أنَّ مضاربها كانت في أقصىٰ الشمال جنوب جبال درن ، فكان انتقالها للجنوب ، وتخطّيها حوض السنغال للهجوم على السودان ، يتطلّب الجهد والمال ، فلم تستطع بعد هذه الحروب المتّصلة ، أن تمضي في الجهاد إلى نهايته[3] .

آلت الزعامة في قبائل الملثمين إلى قبيلة جدالة ، في شخص يحيىٰ بن إبراهيم الجدالي صهر أبي عبد الله بن تيفاوت اللمتوني ، ولكنَّ القاضي عيّاض[4] ، اتّفق مع ابن الأثير[5] ، والنويري[6] ، في أنَّ هذا الأمير يدعىٰ

(*) هو الفقيه الصالح أبو عمران موسىٰ بن الحاج الفاسي ، رحل من فاس إلى القيروان فاستوطنها ، وأخذ بها العلم ، حتىٰ تقوّىٰ على علمائها ، ثم رحل إلى قرطبة ، وبعدها ذهب إلى المشرق ، وحجَّ وذهب إلى بغداد ، فحضر مجالس العلماء ، وعاد إلى القيروان حيث توفي بها سنة 430 هـ (1038 م) .

القاضي عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك ، جـ3 ، 4 ص 702 ، التادلي ، التشوّف إلى رجال التصوّف ص 64 ، عبد القادر زمامة : أبو عمران الفغجومي ، مجلة البيِّنة ، الرباط ، عدد 3 سنة 1962 .

(1) البكري ، المصدر السابق ص 165 ، ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، جـ 4 ص 7 ، القلقشندي ، المصدر السابق ص 189 ، الحلل الموشية ص 9 ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 122 ، ابن خلدون ، المصدر ا لسابق ص 374 .

(2) القاضي عيّاض ، المصدر السابق ص 706 ، التادلي ، المصدر السابق ص 64 .

(3) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 72 .

(4) القاضي عيّاض ، المصدر السابق ص 781 .

(5) ابن الأثير ، المصدر السابق ص 74 .

(6) النويري ، المصدر السابق ص 172 .

الجوهر ، وليس يحيىٰ بن إبراهيم . بل لقد نسبه القاضي عيّاض إلى قبيلة جزولة[1] ، وهذه القبيلة كانت تنزل قرب جبال درن في المغرب الأقصىٰ ، ولكنَّ البكري[2] ، وابن عذاري[2] ذكرا أنَّ الجوهر هذا كان من الخارجين على الفقيه عبد الله بن ياسين فيما بعد ، وأنَّ زعيم جدالة في ذلك الوقت كان يُدعىٰ يحيىٰ بن إبراهيم ، ويرىٰ نورس Norris أنَّ الجوهر كان أحد الفقهاء الذين صحبوا يحيىٰ بن إبراهيم في حجة على أساس أنَّ هذا الأخير لا يجيد العربية ، أو ربما كان يحضر معه مناقشات القيروان الدينية[4] . وهذا هو المرجع .

وقد استمرَّ الأمير يحيىٰ بن إبراهيم على طريقة أسلافه في حركة الجهاد في السودان ، فاستخلف ولده إبراهيم بن يحيىٰ على رياسة صنهاجة اللثام لمواصلة الجهاد ، وارتحل إلى المشرق للحج إلى ا لبيت الحرام[5] .

وقد اتّسمت حروب الملثمين في بلاد السودان بطابع الجهاد في سبيل نشر الإسلام ، وكانت هذه القبائل أشبه بالدماء الجديدة التي ساهمت في حركة الجهاد المقدس ، لنشر الإسلام في مضارب القبائل الزنجية في السودان ، علاوة على محاولة الاستيلاء على المحطات الرئيسية لطرق القوافل وتأمينها[6] .

---

(1) القاضي عياض ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(2) البكري ، المصدر السابق ص 164 .
(3) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 8 .
(4) Norris, H.T., op.cit, p.413.
(5) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 122 .
(6) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 102 .

الفصل الثاني

عبد الله بن ياسين وظهور المرابطين

* * *

الـظروف التي أدَّت إلى اختيار عبـد الله بن ياسين ، نشـأتـه قبـل لقـائـه مـع الملثمين ـ لقاء عبد الله بن ياسين بالملثمين ـ إنشـاء رباط ابن يـاسين ـ مكان الرباط ـ الحياة في الرباط ـ إعداد المرابطين للجهاد ـ توجيه الدعاة للقبائل ـ فشـل الدعـاة ـ جهاد القبـائل ـ اشتهـار عبـد الله بن يـاسين ـ استنجـاد فقهـاء سجلماسة ودرعة به ـ الاستيلاء على سجلماسة ثم أودغشت تمرد سجلمـاسة ثم جدالة ـ استشهاد الأمير يحيـىٰ بن عمر ـ اختيار الأمير أبو بكر بن عمر أميراً للمرابطين ـ فتح أغمات ـ قتال برغواطة ـ استشهاد ابن ياسين .

* * *

الظروف التي أدَّت إلى اختيار عبد الله بن ياسين

استشهد أبو عبد الله بن تيفاوت اللمتوني المعروف بتارسنا في إحدىٰ غزواته ضد قبائل السودان الوثنية ، فولي صهره الأمير يحيىٰ بن إبراهيم الجدالي رياسة صنهاجة اللثام ، واستمرَّ في مدافعة ملك غانة في الجنوب ، وجهاد السودان ، ثم خرج إلى الحج عام 429 هـ ـ 1037 م ، مع طائفة من زعماء قومه ، وناب عنه في رياسة صنهاجة اللثام ، ابنه إبراهيم بن يحيىٰ[1] .

وكان لرحلة الأمير يحيىٰ إلى الحج آثاراً بعيدة المدىٰ ، إذ أنَّ ما رآه الأمير يحيىٰ من تقدّم الحركة العلمية في المغرب الأقصىٰ ، جعله يحسّ بالفرق الشاسع بين بيئة المغرب الزاخرة بالعلم والحضارة وبيئة الصحراء التي خيَّم عليها الجهل[2] .

فقد كانت الحياة العلمية في مدن المغرب الأقصىٰ قد بلغت أوجها في القرن الخامس الهجري ، حتىٰ أصبحت مدارس المغرب وفي مقدمتها مدرسة

---

(1) البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ص 164 ، ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص 122 . ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ص 226 . ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ 6 ص 373 .

(2) د . حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ص 304 .

فاس قبلة العلماء والطلّاب[1] .

مرَّ الأمير يحيىٰ بن إبراهيم في طريق العودة بمدينة القيروان حيث حضر وصحبه مجلس الفقيه أبي عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي يومئذٍ ، وأعجب الشيخ أبا عمران بالأمير يحيىٰ لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعلم ، فسأله عن بلاده ومن فيها من الخلق وعمّا ينتحلون من المذاهب ، فأخبره الأمير يحيىٰ بن إبراهيم بأنّه « ليس منهم من يقرأ القرآن وهم مع ذلك محبون للخير ، ويرغبون فيه ويسارعون إليه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرسهم العلم ، ويفقههم في دينهم ويدعوهم إلى العمل بالكتاب »[2] وطلب من الشيخ أبي عمران أن يعين له فقيهاً ، يذهب معه إلى قومه بالصحراء ليعلّمهم أمور دينهم ، ويرجعون إليه في نوازلهم ، وقضايا دينهم[3] .

ويرىٰ بعض المؤرّخين أنَّ أبا عمران لم يجد من بين تلاميذه من يقبل تلبية هذه الدعوة ، لأنهم استصعبوا دخول أرض الصحراء ، وأشفقوا منها[4] .

من ذلك ما يذكره النويري من أنَّ الفقيه أبا عمران استدعىٰ « ابن أخيه عمر فقال له : اذهب مع هذا السيد إلى الصحراء ، فعلم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الإسلام ، ولك الثواب الجزيل من الله عزَّ وجلّ ، والذكر الجميل من الناس فأجابه إلى ذلك فلمّا أصبح عمر من الغد ، جاء إلى عمه ، فقال له : « أعفني من الدخول إلى الصحراء ، فإنَّ أهلها جاهلية قد ألفوا سيراً

---

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 47 . الجزنائي ، مهرة الآس في بناء مدينة فاس ص 33 . د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 104 .

(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 123 .

(3) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 374 .

(4) البكري ، المصدر السابق ص 165 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 123 . ابن عذاري ، البيان المعرب ، جـ 4 ص 8 . الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص 9 . الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ ، جـ 2 ص 6 .

Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa, p.22.

نشأوا عليها ، فمتىٰ نقلوا عنها قتلوا من أمرهم بخلافها »[1] .

ويتعارض هذا الرأي مع ما عرف عن فقهاء المالكية في المغرب من حرصهم على رفع لواء المذهب ، ونشره لا يهمهم اغتراب ، ولا تثنيهم مشاق ، ويبدو أنَّ أبا عمران رأىٰ أنه من الأوفق لنجاح هذه المهمة أن يختار فقيهاً من البربر يعرف البيئة الملثمة معرفة تامة ، ويلمّ بلسانها إلماماً جيداً ، حتىٰ يستطيع أن يهدي هؤلاء القوم إلى الدين الصحيح[2] .

فلمّا لم يجد بغيته من بين تلاميذه ، أرسل الفقيه أبو عمران الأمير يحيىٰ إلى الشيخ وجاج[3] بن زللو اللمطي[4] فقيه المالكية بالسوس الأقصىٰ .

سار يحيىٰ بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران إلى الفقيه وجاج بمدينة نفيس[5] أو قرية ملكوس[6] ، وعهد إليه أن « يلتمس له من يثق بدينه وفقهه ويروّض نفسه مسغبة أرضهم في معاشه »[7] وكان ممّا جاء في رسالة فقيه القيروان أن « ابعث معه إلى بلاده من طلبتك من تثق بدينه وورعه ، وكثرة علمه وسياسته ليعلّمهم القرآن وشرائع الإسلام ، ويفقّههم في دينهم »[8] .

فما كاد الفقيه وجاج يتسلّم رسالة شيخه أبي عمران حتىٰ جمع مريديه

---

(1) النويري ، نهاية الإرب ، جـ 22 ص 146 .
(2) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 112 .
(3) أوكاد في القاضي عيّاض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، جـ 4 ص 0781 . وكاك في ابن خلدون ، المصدر السابق ص 374 .
(4) من تلاميذ الشيخ أبي عمران ، وكان قد رحل إلى القيروان وأخذ العلم عنه ثم عاد إلى السوس فبنىٰ داراً سمّاها دار المرابطين لطلبة العلم ، وقرّاء القرآن وكان المصامدة يزورونه ، ويتبرّكون بدعائه ، وإذا أصابهم قحط استسقوا به الشادلي ، التشوّف إلى رجال التصوّف ص 66 .
(5) في منطقة أجلو وهي قريبة من مدينة تزنيت .
(6) البكري ، المصدر السابق ص 165 .
(7) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 374 .
(8) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 123 .

رواد رباطه وأطلعهم على رغبة إمام القيروان ، وانتدب لذلك رجل منهم جزولي النسب ، من أحذق الطلبة الأذكياء يدعىٰ عبد الله بن ياسين[1] .

عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن علي ، وقد ذكر بعض المؤرّخين أ نه ينتسب إلى قبيلة جزولة الضاربة في أقصىٰ المغرب قرب جبال درن[2] . وذكر البكري أنَّ عبد الله بن ياسين ولد في قرية تيماما ناوت في طرف صحراء مدينة غانة[3] . أي في أحواز مدينة أودغشت ، ولا يبعد أن يكون قد انحدر من هذه القبائل الملثمة التي تضرب في تلك النواحي ويرىٰ الدكتور حسن محمود أنَّ ذلك يرجّح نسبته إلى قبيلة جدالة التي تضرب قرب منطقة السنغال ، وتوغل جنوباً حتىٰ منحنىٰ النيجر ، وأنه من السهل أن يحرّف الرواة اسم الجدالي إلى الجذالي ، أو الجزولي ، فيصبح سبب خطأ في النسخ أو عدم التحقيق[4] ، ممَّا يفسِّر تطوّع عبد الله بن ياسين لهذه المهمة دون تردّد ، فإن صحَّت نسبة عبد الله إلى قبيلة جدالة ، فإنَّه يكون أعرف الناس بأحوال قومه ، وأكثرهم اطّلاعاً على مواطن الضعف فيهم ، وأقدرهم على رأب الصدع وتقويم المعوج[5] .

ولا تذكر المصادر المتداولة إلاَّ القليل عن حياة عبد الله بن ياسين ، فلا تذكر إلاّ فقرات مقتضية ، وإذا كان القاضي عيّاض أشار في كتابه ترتيب

---

(1) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(2) البكري ، المصدر السابق ص 165 . القاضي عياض ، المصدر السابق ص 780 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 124 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 374 . مفاخر البربر ص 52 .

(3) البكري ، المصدر السابق ص 165 .

(4) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 113 .

(5) د . حسن محمود ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

المدارك في ترجمة عبد الله بن ياسين ، أنه كتب له ترجمة مفصّلة في كتاب له عن تاريخ سبتة ، فإنّ هذا الكتاب ما زال مفقوداً[1] .

أمّا عن تحصيل عبد الله بن ياسين للعلم ، فيبدو أنه رحل من مسقط رأسه في فجر شبابه إلى بلاد الأندلس في دولة ملوك الطوائف[2] أي بعد عام أربعمائة هجرية ، فأقام بها سبعة أعوام ، وحصل فيها على علوم كثيرة ، ثم رجع إلى المغرب الأقصى[3] ، حيث التقى بالفقيه وجاج بن زللو في رباطه الذي بناه للعبادة ، والدراسة ، وقراءة القرآن .

ولمّا كان الشيخ وجاج قد تتلمذ على فقيه القيروان أبي عمران الفاسي

---

(1) القاضي عيّاض ، المصدر السابق ص 781 .

(2) بعد سقوط الدولة الأموية في الأندلس قامت على أنقاضها عدة دويلات أُطلق عليها دول الطوائف ، شغلت من حياة الأندلس نحو ثمانين عاماً وكان عصر تفكّك وانحلال سياسي ، وهذه الدويلات هي :

1 — العامريون في شرق الأندلس في المرية ومرسية ، وبلنسية ودانية ، وما ولاها من جزائر .

2 — بنو زيري الصنهاجيون في غرناطة .

3 — بنو الأفطس في بطليوس.

4 — بنو ذي النون في طليطلة .

5 — بنو رزين في السهلة .

6 — بنو عباد في إشبيلية .

7 — بنو هود في سرقسطة أو الثغر الأعلى .

8 — بنو القاسم الفهريون في البونت .

9 — بنو حمود وبنو جهور الذين كانوا يتنازعون قرطبة حتى استولى عليها بنو العباد عام 446 هـ .

د . إحسان عباس ، عصر الطوائف والمرابطين . عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي .

(3) الحلل الموشية ص 9 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 10 . د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 166 . محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ص 301 ،

Dr. Hossain Mones, Les Almoravides, Separata de la Revista del Instito de Estudies Islamicos en Madrid, Vol. XIV, 1967 - 1968, and

Norris, H.T., New evidence on the life of Abdalla b. Yasin, p.263.

فـإنَّ عبد الله بن يـاسين يكـون بـذلـك قـد جمـع بين علم الأنـدلس ، وعلم القيروان[1] .

ويذكر ابن بشكوال أنَّ عالماً أخذ الحـديث عن ابن ياسين[2] ممَّـا يدلُّ على أنَّه كان يدرس الحديث قبل أن ينتقل إلى الصحراء ، وأنَّه لم يكن فقط عالماً على مقياس القفار الصحراوية البعيدة عن العلم ، وربما كان معروفاً من قبل الأمير يحيىٰ بن إبراهيم ، فإنَّ هذه القبائل تكون أكثر معرفة برجالها فإنَّ أفراد القبائل عادة يفخرون برجالهم الذين حصلوا على العلم ويعرفونهم على الأقل سماعاً ، ولا يبعد أن تكون سيرة ابن ياسين موضوع حديث عند كل كلام عن علماء صنهاجة اللثام ، وعن الإصلاح ، ولما كان عبد الله بن يـاسين من أهل الجنوب من مواليد تيماماناوت ، فليس ببعيد أن يكون كـل مـا جدَّ من اختيار عبد الله بن ياسين هو تزكيته من علماء المغرب[3] .

كان عبد الله بن ياسين من الفقهاء النابهين ، المتأثّرين بمبادىء فقهـاء المالكية مثل البعد عن السلطان ، والزهد والتقشّف ، والإيواء إلى الربط تقرّباً من الله فقد وصفه ابن أبي زرع بـأنَّه كـان من أهل الفـطنة والـدين والتقىٰ ، والورع والعفّة ، والأدب ، والسياسة ، مشاركاً في العلوم[4] .

دخـل عبد الله بن يـاسين بلاد صنهـاجة في صحبـة زعيمهـا يحيـىٰ بن إبراهيم فلمَّا وصلا نزل يحيىٰ بن إبـراهيم عن راحلته ، وأخـذ بزمـام البعير الذي يركبه عبد الله بن ياسين تعظيماً له ، وكان يعرفه للناس بقوله لهم : هذا حامل سنَّة رسول الله . وقد تلقاهما الناس بالإكرام وفرحوا بقدومهما ، وتيمّنوا بالفقيه وبالغوا في إكرامه[5] ، وبـره لأنهم كما يبـدو أحسّوا بـذلك المستقبـل

---

(1) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 166 .

(2) نفس المصدر السابق والصفحة .

(3) د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون ص 34 .

(4) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 113 .

(5) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 124 . الناصري ، الاستقصا ، جـ 2 ص 8 .

الزاهر الذي أخذ هذا الفقيه الجريء يرسمه لهذه الشعوب ، حتىٰ أنَّ شيخاً منهم قال حين رآه يمتطي راحلته ، ويمضي في طريقه ، « أرأيتم هذا الجمل ، لا بدَّ أن يكون له في هذه الصحراء شأنٌ عظيم »(1) .

أمَّا يحيىٰ بن إبراهيم فقد عظم سروره به ، وكان فخوراً به ، يدعو الناس لحضور مجلسه والاستماع إلى مواعظه(2) .

رأىٰ عبد الله بن ياسين المنكرات ظاهرة في الملثمين ، شائعة عندهم إذ أهملوا شعائر الدين ، واستسلموا لكل ألوان العادات المرذولة(3) فكان الرجل منهم يتزوج ما شاء من النساء ، فأنكر ذلك عليهم(4) وكرَّس نفسه متحمّساً لهدايتهم إلى أصول الإسلام ، وتفقيههم في أمور دينهم ، وأخذ يرسم لنفسه النهج الذي يحقِّق الأهداف التي حالف يحيىٰ بن إبراهيم عليها وهي تأليف قلوب الملثمين ، وجمع شمل القبائل المتنافرة على أسس من الدين الصحيح ، والخلق الكريم ، حتىٰ لا يكتب لها أن تتفرَّق ، كما تفرَّقت من قبل ، واستطاع بفضل معرفته اللهجات البربرية ، ومقدرته الخطابية وقدرته على التأثير أن يجتذب إليه الطلبة من كل فج ، فكانوا يشدُّون الرحال إليه ليستمعوا إلى دروسه(5) .

ويبدو أنَّ عبد الله بن ياسين أخذ الكثير من أفكار معلمه الشيخ وجاج ومدرسته ، كأساس لتعليمه فضلاً عن أفكاره التي اكتسبها أثناء إقامته القصيرة في الأندلس ، وقد اضطرَّته ظروف الصحراء ، وعادات أهلها البدو إلى تعديل هذه الأسس لكي تلائم هذا المجتمع(6) . فكان يتدرَّج بهم في فهم الإسلام

(1) النويري ، نهاية الإرب ، جـ 22 ص 173 . ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، جـ 8 ص 74) .
(2) الحلل الموشية ص 10 . ابن الأثير ، المصدر السابق الصفحة نفسها .
(3) توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د . حسن إبراهيم ، ص 352 .
(4) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 114 . الناصري ، المرجع السابق ص 7 .
(5) الحلل الموشية ص 9 .
(6) Norris, H.T., op.cit, p.263.

من البسيط إلى المعقّد ، أي أنه نزل إلى مستوىٰ أفهامهم ، ليلقنهم المبادىء الصحيحة للدين ، حتىٰ إذا تمكّن من نفوسهم وأقبلوا عليه بعقولهم ، وأفهامهم أخذ يفسّر لهم القرآن ، ويروي لهم الحديث[1] . وقد استطاع بفضل ذكائه وخبرته بطباع الناس ، وسعة أفقه أن ينفذ إلى قلوب العامة ، فوثقوا به ، وأقبلوا عليه وتفتّحت أذهانهم لتعاليمه ، وحفظوا من فتاويه وأجوبته « ما لا يعدلون عنه »[2] .

وهناك احتمال كبير أن كثيراً من هذه الأحكام سواء كانت شفاهية أو مكتوبة كانت بالبربرية ، وليست بالعربية[3] .

أحدث عبد الله بن ياسين هزة في الحياة العامة في هذه المنطقة ، فغير بعض العادات ، فأحيا الروح الدينية ، وأقام حدود الإسلام ، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس ، خاصة بعد ما لمس استغلاء طبقة النبلاء من الملثمين على عبيدهم ، ومواليهم ، يذيقونهم ألوان التعسّف والذلّ ، فحاول عبد الله بن ياسين أن يخفّف عن كاهل هؤلاء ، ويحدُّ من تسلّط السادة النبلاء ، وأمرهم ببناء مدينة سموها أرتنني « وأمرهم أن لا يشف بناء بعضهم على بناء بعض فامتثلوا ذلك ، وهم يسمعون له ويطيعون »[4] .

لم يشارك عبد الله بن ياسين مجتمع الملثمين في حياتهم المعيشية فقد كان يتورّع عن أكل لحومهم ، وشرب ألبانهم ، لإحساسه بأنها غير حلال ؛ وكان عيشه من صيد البرية ، يتقرَّب إلى الله بالعبادة ، ويروض النفس على الصبر[5] ويبدو أنَّ سيرته تركت في نفوس الناس أثراً بعيداً ، حتىٰ أنهم نسجوا حول شخصه القصص التي جعلته يسمو إلى مرتبة الأولياء[6] .

---

(1) الحلل الموشية ص 9 .

(2) القاضي عيّاض ، المصدر السابق ص 701 .

(3) Norris, H.T., op.cit, p.299.

(4) البكري ، المصدر السابق ص 165 .

(5) البكري ، المصدر السابق ص 168 .

(6) البكري ، المصدر السابق ص 169 .

تعرَّضت دعوة عبد الله بن ياسين للمقاومة من أهل الشر ، والفساد ، وحمل لواء هذه المقاومة أحد الفقهاء ، وهو الجوهر بن سكم ، مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار ، والآخر اينتكوا ، فعزلوه عن الرأي ، والمشورة ، واستعادوا منه بيت مالهم ، وطردوه ، وهدموا داره ، وانتهبوا ما كان فيها من أثاث[1] . اختلف المؤرّخون في تحديد وقت هذه الفتنة ، فالبعض يرىٰ أنها حدثت أيام يحيىٰ بن إبراهيم الجدالي ، عندما شدَّد عبد الله بن ياسين على الملثمين في ترك المنكرات[2] .

ويشير ابن الأثير إلى أنَّ سبب الثورة لم تكن لشدة عبد الله بن ياسين فقط ، بل لأنَّه أفتىٰ بقتل يحيىٰ بن إبراهيم نفسه[3] . بينما أشار فريق آخر من المؤرّخين إلى أنَّ هذه الثورة كانت في عهد يحيىٰ بن عمر اللمتوني ، الذي اختاره عبد الله بن ياسين ، خليفة للأمير يحيىٰ بن إبراهيم الجدالي[4] .

وممَّا يرجح هذا الرأي أنَّ عبد الله بن ياسين نزل أول ما نزل في جدالة مع زعيمها ، فهو علاوة على أنه رجل الدين الذي يتبارك به الناس فهو ضيف زعيمهم ، وعادة قبائل الصحراء أن يكون الضيف في حمىٰ ورعاية المضيف وعلى ذلك فإنَّه بالرغم من تذمّر بعض الناس من قسوة تعاليم عبد الله بن ياسين إلاَّ أنهم كانوا يحسبون حساب زعامة يحيىٰ بن إبراهيم ، وحمايته له ، فلمَّا مات يحيىٰ بن إبراهيم ، أصبح عبد الله بن ياسين بلا سند ، وفقد الحماية التي كان يبسطها عليه زعيم جدالة ، ورئيس الحلف الصنهاجي وأصبح

---

(1) المصدر السابق ص ص 165 ، 166 .

(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 124 ، جامع تواريخ فاس ص 28 . الناصري ، المرجع السابق ص 8 . د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 122 .

(3) ابن الأثير ، المصدر السابق ص 75 .

(4) البكري ، المصدر السابق ص 165 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 9 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 374 . القلقشندي ، صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء ، جـ 5 ص 189 ،
Bovill, E.W., The Golden Trade of the Moors, p.71 and
Hossain Mones, p.cit, p.57.

مكروهاً خاصة أنه اختار يحيىٰ بن عمر اللمتوني ، خلفاً ليحيىٰ بن إبراهيم الجدالي ، فقد نقل بذلك الزعامة من جدالة إلى لمتونة ، إذ كان عبد الله بن ياسين مقتنعاً بأنَّ المستقبل لدعوته سيكون مع لمتونة لموقعها الجغرافي الممتاز في أدرار ، ولشجاعتهم الحربية ، ولخضوع يحيىٰ بن عمر وعائلته لأوامره وتعاليمه[1] .

وتختلف الآراء أيضاً في الاتجاه الذي اتخذه عبد الله بن ياسين بعد طرده فيرىٰ بعض المؤرّخين أنه عاد إلى أستاذه فقيه السوس وجاج[2] .

وقيل إنَّه كتب إليه ، ولم يتوجّه بنفسه ، فأعلم الشيخ بما جرىٰ في جدالة وبيَّن له أمره معهم ، فكتب الشيخ وجاج رسالة إلى بعض أشياخ جدالة « يعاتبهم على ما صدر لعبد الله منهم ، وما بلغه من فعل المشغبين عليه ، وهو مقيم بينهم وعاتبهم عتاباً شديداً لانقيادهم إليه ، ثم انتقدوا ما شيّعه عدوه عليه منهم »[3] ولمَّا وصل الشيخ وجاج جواب رسالته هذه من أشياخ جدالة المذكورين يعتذرون عن تقصيرهم في حق عبد الله بن ياسين أمره بالرجوع إلى تلك القبائل الصحراوية ، وكتب إلى شيوخهم يعلمهم أنَّ من خالف عبد الله بن ياسين فقد خالف الجماعة ، وأنَّ دمه هدراً[4] . ولا شك أنَّ مثل هذا الكتاب يجعل شيوخ هذه القبائل تعمل حساباً لعبد الله بن ياسين حتىٰ لا تخرج عن جماعة المسلمين خصوصاً وأنَّ هذه الفتوىٰ صادرة من الشيخ وجاج .

---

(1) الحلل الموشية ص 10 ،

Norris, H.T., op.cit, p.261.

(2) البكري ، المصدر السابق ص 166 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 9 .

(3) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 9 .

(4) البكري ، المصدر السابق ص 166 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 9 .

رباط عبد الله بن ياسين

رأىٰ عبـد الله بن ياسين أن يـرحـل إلى بـلاد السـودان ، ولكنَّ الأميـر يحيـىٰ بن عمر تمسك بـه ، وأشار عليـه بمكان بعيـد ، حيث يمكنه اعتـزال المشغبين والتعبّد فيه ، فوافقه على ذلك الشيخ الفقيه ، خاصة أنَّ هذا الرأي وجد هوىٰ في نفسه الميالة إلى حياة الربط ، وتعوده الحياة فيها[1] ، إذ أنه أخذ العلم وتفقّه في الدين في رباط وجاج بن زللو اللمطي[2] .

وكلمة رباط تعني ملازمة ثغر العدوّ ، والمحافظة على أوقات الصلاة ، ومن أهم صفات المرابطة الجهاد في سبيل الله ، خاصة في الثغور حيث ترابط خيـل المقاتلين لحمـاية أرض المسلمين ، ففي الآيـة الكريمـة توضيـح لهذا المعنىٰ : ﴿ يـٰأَيُّهـا الذين آمنـوا اصبروا وصـابروا ورابـطوا واتّقـوا الله لعلّكم تفلحون ﴾[3] .

وقـد فسَّر الإمـام الطرطـوشي كلمة الـرباط في الآيـة الكريمـة بقوله: « ورابـطوا فيه قـولان ، قيل رابـطوا على الجهاد ، وقيـل رابطوا على انتـظام الصلوات »[4] .

وكان المسلمون يـرون في المرابـطة ، نوعـاً من ألوان الجهـاد ، سواء جهـاد العدو ، أو جهـاد النفس ، فتسابقـوا إلى الربط للدفـاع عن المسلمين ولتلقّي العلم أيضاً ، حيث أصبح يدرس فيها الفقـه ، والحديث ، وفي هـذا المجـال ذاع صيت رباط رادس حتىٰ كتب علمـاء المشرق إلى أهـل إفريقيـا يقولون : « من رابط عنا برادس يوماً واحداً حججنا عنه حجة»[5] .

---

(1) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ص 124 . الناصري ، المرجع السابق ص 8 .

(2) انظر ما سبق ص 46 .

(3) سورة آل عمران ، الآية : 199 .

(4) الطرطوشي ، سراج الملوك ص 97 .

(5) التيجاني ، الرحلة التيجانية ص 6 .

واشتهر أصحاب مذهب مالك بحبهم للتعبّد في الربط وكانوا يردّدون دائماً حديثاً للرسول ـ عليه السلام ـ : « سئل رسول الله ﷺ أيُّ ا لناس أفضل فقال مؤمنٌ مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله عزَّ وجلَّ في الشعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة »[1] .

لعب رباط وجاج بن زللو في المغرب الأقصىٰ دوراً هاماً في حياة عبد الله بن ياسين ، لذلك رحَّب بما عرضه عليه الأمير يحيىٰ بن عمر من اتخاذ مكان بعيد للعبادة .

اختلف المؤرّخون في تحديد الموضع الذي لجأ إليه ابن ياسين وأقام فيه رباطه . فيرىٰ فريق منهم أنه جزيرة في البحر ، يسهل الخوض في الماء للوصول إليها إذا كان الجزر ، وتركب إليها الزوارق إذا كان المدّ ، وبعضهم يذكر كلمة البحر الغربي (المحيط الأطلنطي) والبعض الآخر يذكر كلمة « البحر » فقط كما يذكرون أنَّ الأمير يحيىٰ بن عمر اللمتوني هو الذي أشار على عبد الله بن ياسين بمكان هذه الجزيرة[2] .

وليس من المعقول أنَّ الأمير يحيىٰ بن عمر ، وهو من قبيلة لمتونة يختار جزيرة في البحر المحيط في مضارب قبيلة جدالة التي كانت تشغل المنطقة المطلّة على ساحل المحيط ، فضلاً عن أنها هي التي قامت بالثورة على ابن ياسين وحاولت الفتك به .

ويرىٰ الدكتور حسين مؤنس أنَّ رباط ابن ياسين كان على حدود الصحراء فيما يلي تارودانت إلى الجنوب[3] ، معتمداً على ما ذكره كل من

---

(1) المالكي ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا تحقيق د . حسين مؤنس ص 211 .

(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 124 . ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 227 . الناصري ، المصدر السابق ص 8 .

De la Chapelle, Moors "Ency. of Islam", Vol.3, p.501.

(3) د . حسين مؤنس ، مقدمة رياض النفوس ص 26 م .

البكري ، وصاحب الاستبصار ، من أنه يوجد على مصبّ وادي ماسة رباط مشهور ومقصود[1] إلاَّ أننا نستبعد هذا الرأي ، لأنَّ تارودانت على حدود المغرب الأقصىٰ الجنوبية على مقربة من جبال درن وهذا يتنافىٰ مع ما ذكره المؤرّخون من أنَّ عبد الله بن ياسين اتَّجه إلى بلاد السودان ، ولم يذهب إلى الشمال ، كما أنَّ البكري وهو معاصر للفترة الأولىٰ من عصر المرابطين لا يمكن أن تفوته الإشارة إلى رباط ماسة على أنَّه رباط ابن ياسين .

بينما أشار نورس Norris إلى أنَّ رباط ابن ياسين ربما يكون في أرتنني ، واقترح مكاناً لهذه المدينة بين مدينة تشيت ومدينة والاتا في منخفض حيث يوجد الماء ، وتنمو الأدغال ، ولكنه عاد واستبعد هذا الرأي على أساس أنَّ أرتنني هي المدينة التي أنشأها عبد الله بن ياسين أول نزوله في أرض جدالة ، وعلى هذا عاد وأشار إلى أنها ربما تكون مكان متحرك في الصحراء ، وانفصلت إلى جزيرة ساحلية[2] .

وأشار ابن خلدون إلى موضع الرباط على ربوة يحيط بها النيل من جهاتها « ضحضاحا في الصيف ، وغمرا في الشتاء ، فتعود جزراً متقطّعة »[3] .

وفسَّر فريق من المؤرّخين ما قصده ابن خلدون من « النيل » أنَّه نهر السنغال ، وأنَّ هذه الربوة ، أو الجزيرة في مصبّ السنغال الأدنىٰ[4] وعزّز الدكتور حسن محمود هذا الرأي على أساس أنَّ الرباط لا يبنىٰ عادة إلاَّ في

---

(1) البكري ، المصدر السابق ، صاحب الاستبصار ص 212 .

(2) Norris, H.T., op.cit, p.258.

(3) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 374 .

Golvin, lucien, Note sur le Mot Ribat, Revue de L'occidental Musulman, 1 - 2, 1969, p.95.

(4) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 126 .

Delafossé, M., Senegal, "Ency. of Islam", Vol.IV, p.223.

Cernevin, Robert, Histoire de l'Afrique des origines à nos jours, p.III.

المناطق التي تتعرَّض للغزو ، ويتطلَّب حشد القوىٰ للجهاد ، ولذلك لا يوجد ثمَّة خطر يتهدَّدهم من البحر ، بينما كانت ممالك الزنوج الواقعة في جنوب السنغال هي التي كانت تتهدَّدهم ، فاختار مصبَّ نهر السنغال مكاناً لمرابطته من أجل الجهاد ونشر الإسلام ، والحيلولة بينهم ، وبين الإغارة على مضارب الملثمين كما أنَّ الحياة في الجزيرة الواقعة في المحيط ، والتي أشار إليها بعض المؤرِّخين تكاد تكون شاقة لقلَّة موارد الماء ، وضيق رقعتها فلا يمكنها استيعاب إعداد المرابطين التي تضخَّمت ، وبلغت أكثر من ألف مرابط ، بينما الحياة في الجزر الواقعة في مصبِّ السنغال ميسرة ، لوفرة المياه والنبات .

علاوة على أنَّ الأطراف الجنوبية لديار جدالة كانت تمتد حتىٰ تدرك حوض السنغال ، وبذلك يكون ظهر العصبة المرابطة في حماية هذه القبيلة إذا ما فكَّر الزنوج في مهاجمتها[1] .

ولكن عندما خرج عبد الله بن ياسين ، واختار موضع رباطه ، لم يزد صحبه عن تسعة أشخاص ، فكيف له أن يجازف وهو في هذا العدد الصغير أن يقيم في حوض السنغال الذي كانت تسيطر عليه ممالك السودان ، وقبيلة جدالة الثائرة عليه ، كما أنَّ عبد الله بن ياسين عندما فكَّر في العزلة ، وإنشاء الرباط لم يكن في ذهنه في ذلك الوقت فكرة الحرب ، أو أنَّ عدد مريديه سوف يتكاثر حتىٰ يبلغ الألف مرابط بدليل أنَّه لم يفكِّر في الخروج بدعوته من الرباط ، إلَّا بعد أن كثر مريدوه وتأكَّد من طاعتهم ، وحسن إسلامهم[2] .

فكان كل همه في أول الأمر ، هو اختيار مكان يتعبَّد فيه هو وصحبه .

ويرجِّح الأستاذ محمد عبد الله عنان أنَّ رباط ابن ياسين في جزيرة في منحنىٰ نهر النيجر ، على مقربة من تمبكت[3] .

---

(1) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 126 .
(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 125 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 375 .
(3) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ص 302 .

وأرىٰ أنَّ الآراء التي رجحت أنَّ المقصود بـ « النيل » ربما يكون نهر السنغال أو نهر النيجر بعيدة عمَّا قصده ابن خلدون إذ أنَّه ذكر أنَّ هـذا النيل « ضحضاحاً في الصيف وغمراً في الشتاء »[1] وهـذا لا يتَّفق مع مـائية نهـريّ السنغال والنيجر ، إذ أنَّ هذه الأنهار تفيض في الصيف .

ولذا فإنِّي أرجّح أنَّ رباط عبد الله بن ياسين ، كان في أحد الأودية على حافة الصحراء الجنوبيـة في مضارب لمتـونة ، إذ المعـروف أنَّ هذه الأوديـة تغمرها المياه شتاءاً ، وينتشر بها الجفاف صيفاً ، وهو ما يتَّفق مع ابن خلدون « ضحضاحاً في الصيف ، وغمراً في الشتاء » . وإن كان من الصعب تحديد أيّ هذه الأودية أقيم به رباط ابن ياسين .

الحياة في رباط ابن ياسين

كـان الفضل في اختيـار مكان الـرباط إلى قـائدي الإصـلاح الفقيـه ، والأمير ، وانضمَّ إليهم بضعة نفر من لمتونة ، وجدالة ، وكانـوا على قلَّتهم ، النـواة التي كوّنت المجتمـع الجـديـد ، وكـان المؤسّسـون تسعـة عـاشـرهـم عبد الله بن ياسين ، اثنان من لمتونة هما يحيىٰ بن عمر ، وأخوه أبـو بكر بن عمر[2] ، وسبعة من جدالة[3] ، وقد اجتذىٰ عبد الله بن ياسين حين بنىٰ رباطه حذو ربط المغرب وإفريقيا في طريقة بناء الرباط وفي نمط الحياة فيه .

وضع عبد الله بن ياسين نظاماً خاصاً للقبول في رباطه ، ووضع قواعـد تطبّق داخل الرباط ، يسير عليها الجميع ، فكان القبول معلّقاً على امتحان ، وفترة مراقبة للتأكّد من استعداد الراغب في الانخراط في سلك الرباط لقبـول نظامه . فإذا توفّر له الاستعداد قبل عضواً في الرباط ، فيسلّم إسلاماً جديداً ،

---

(1) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 374 .
(2) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 374 .
(3) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 125 . ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 227 .

وتُقام عليه حدود الذنوب التي ارتكبها قبل دخوله الرباط[1] لتحريره من فكرة الذنب[2] .

واعتمد رجال الرباط على أنفسهم في الحصول على كل ما يحتاجونه عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من البر ، والبحر ، كما كانوا يعدّون طعامهم بأنفسهم ، مع الاكتفاء في الطعام بأقلّ القليل ، وبالخشن من الثياب فقد كانت حياتهم بسيطة متواضعة ، خشنة ، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة ، وآلوا على أنفسهم الإخلاص ، والتوبة والتعبّد[3] .

أمّا العبادة فقد كانت مقصورة على صلاة الجماعة في الصلوات الخمس وعلى صلاة القضاء الإجبارية ، لتحرير النفوس من فكرة التقصير ، وقد وضعت للرباط عقوبات على مخالفة ذلك ، فمن فاتته ركعة ضرب خمساً ومن تخلّف ضرب عشرين ، وكان الخشوع الصامت إلزامياً ، فمن رفع صوته في المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب له صلاحاً[4] .

وكان عبد الله بن ياسين هو الذي « يعلّمهم الكتاب ، والسنّة ، والوضوء ، والصلاة ، والزكاة ، وما فرض الله عليهم من ذلك »[5] .

ويبدو أنّ عبد الله بن ياسين كان يعلمهم ذلك باللغة البربرية[6] . ومن الطبيعي أن يكون تصريف شؤون الرباط طبقاً لأحكام المذهب المالكي الذي كان يتبعه عبد الله بن ياسين .

---

(1) كان يضرب حد الزاني مائة سوط ، وحد المفتري ثمانين سوطاً ، وحد الشارب مثلها ، وربما زيد على ذلك البكري ، المصدر السابق ص 169 .

(2) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 143 . د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص ص 37 ، 38 .

(3) ابن زرع ، المصدر السابق ص 125 .

(4) البكري ، المصدر السابق ص 169 . د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 142 . د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص ص 37 ، 38 .

(5) القاضي عيّاض ، المصدر السابق ص 781 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 125 .

(6) Norris, H.T., op.cit, p.264.

ولم تمض غير ثلاثة أشهر ، حتىٰ تسامع الناس بأخبار ابن ياسين ، وأخبار أهل الرباط ، فتوافدوا عليه ، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويفقّههم في الدين ، ويرغبهم في ثواب الله تعالىٰ ، حتىٰ تمكن حبه من قلوبهم[1] .

كذلك أرسل عبد الله البعوث إلى القبائل ، لترغيب الناس في مذهب أهل الرباط ، حتىٰ اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة[2] .

فلمّا كثر مريدوه على هذا النحو ، رأىٰ ابن ياسين أن يخرج بدعوته إلى خارج الرباط ، فبعد أن أعدَّ أنصاره ، إعداداً خاصاً وتأكّد من استعدادهم لحمل مسؤولية الجهاد ، قام فيهم خطيباً ، فوعظهم ثم دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائلهم ، ودعوة هذه القبائل للإسلام وقال لهم : « يا معشر المرابطين إنّكم جمع كثير ، وأنتم وجوه قبائلكم ، ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالىٰ وهداكم إلى الصراط المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم ، وتأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده »[3] ، فقالوا : أيُّها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين ، مطيعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا »[4] .

وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على التنظيم الدقيق ، وعلى تفاني المريدين في طاعته ، عندئذٍ قال لهم عبد الله بن ياسين : « اخرجوا على بركة الله ، وانذروا قومكم ، وخوّفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق ، وأقلعوا عمّا هم عليه ، فخلوا سبيلهم وإن أبوا من ذلك

---

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 125 .
(2) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa, p.23.
(3) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 125 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 375 .
(4) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 129 .

وتمادوا في غيّهم ، ولجوا في طغيانهم ، استعنَّا بالله تعالىٰ عليهم وجاهدناهم حتىٰ يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين »[1] .

ذهب هؤلاء الدعاة المجاهدين كل إلى أهله وعشيرته ، يعظهم وينذرهم ، فلم ينتهوا عمَّا هم فيه من ضلال ، وهنا خرج لهم عبد الله بن ياسين ، فجمع أشياخ القبائل ، ورؤسائهم ، وحذرهم ، ودعاهم إلى التوبة ، وخوفهم عقاب الله وأقام بحذرهم سبعة أيام ، فلم يزدادوا إلاَّ فسقاً ، فلمَّا يئس منهم ، أعلن الجهاد ، وبدأ بقبيلة جدالة عام 434 هـ ـ 1042 م ، فعزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المجاهدين وهزمهم ، وقد قتل منهم خلقاً كثيراً[2] وأسلم الباقون إسلاماً جديداً ، وأدوا جميع ما فرضه الله عليهم[3] .

وكان يلي لمتونة جبل فيه قبائل من البربر ، على غير دين الإسلام فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى الدخول في الإسلام ، فامتنعوا ، وقتلوا رسله ، فأمر لمتونة بغزوهم ، وخرج إليهم ، وصعد عليهم الجبل ، وقاتلهم ثلاثة أيام قتالاً عظيماً ، حتىٰ مات من لمتونة في ذلك القتال عدد كثير ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ، فلمَّا كان اليوم الرابع جمع عبد الله بن ياسين ، أصحابه من لمتونة وقال لهم : « إنَّا احتسبنا أنفسنا في حق الله وسنَّة نبينا محمد ﷺ ، وأراكم قد أعياكم حرب هؤلاء المشركين ، ولم يأمرنا الله أن نتركهم فاستعينوا بالله ربكم ينصركم عليهم »[4] فخرجت لمتونة في اليوم الرابع وهي أشدّ حماساً وعزماً على الانتصار ، وقد اشتدَّت الحرب ، وحميٰ وطيس القتال بين الطرفين ، إلى أن انهزم أعداؤهم وقتلوهم ، وسلبوا أموالهم وسبوا نسائهم

---

(1) ابن أبي زرع المصدر السابق ص 125 .

(2) ذكر ابن أبي زرع (ص 125) أنها وقعت عام 434 هـ (1042 م) واتّفق معه ترمنجهام في
A History of Islam in West Africa, p.24.

بينما ذكر ابن الخطيب (ص 228) أنها عام 446 هـ (10.54 م) .

(3) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 126 . ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 227 .

(4) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 12 .

وعادوا بعد ذلك إلى بلادهم ، وقسم عبد الله بن ياسين الغنائم ، فقسم سِبْيَهُم وكل ما حازوه ، وأعطىٰ أميرهم خمسهم[1] ، فكان هذا أول خمس قسمه اللمتونين في صحرائهم[2] وقد فقد في هذه المعركة أكثر من نصف عسكرهم ، وأطلق عبد الله بن ياسين عليهم اسم المرابطين[3] . لما رأىٰ من شدة صبرهم ، وحسن بلائهم كما سمّي أميرهم يحيىٰ بن عمر بأمير الحق[4] .

وقد وصفهم البكري بقوله : « وكان للمتونة في قتالهم شدة ، وجلد ، ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام »[5] . وكانوا يعتمدون على صنفين من المقاتلة ، يعتمدون على الرجالة ، وعلى الأبالة الذين يقاتلون على النجب التي تقوم في القتال مقام الخيل ، وكانوا يجعلون المشاة صفوفاً يجعلون في الصف الأول فريقاً من المقاتلين مسلحين بالقنا الطوال ويجعلون خلفهم صفاً آخر من المشاة يتألّف من رجال بيدهم المزاريق وكان هؤلاء عادة من مهرة الرماة وحذاقهم ، لا يكاد الواحد منهم يخطىء أو يشوي وكانوا يقدمون أمام الصف رجل بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً ، فكانوا أثبت من الهضاب[6] .

---

(1)﴿ واعلمُوا أنَّما غَنمتُم مِّن شيءٍ فأنَّ لِلَّهِ خُمسَهُ وَللرَّسول ولِذي القُربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابنِ السَّبيل إنْ كنتُم آمنتُم باللَّهِ ﴾ .

سورة الأنفال ، الآية : 41 ، وعن الخمس انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ 1 ص ص 41 ، 47 .

(2) الحلل الموشية ص 10 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 13 .

(3) ذكر ابن أبي زرع (روض القرطاس ص 125) أنّ عبد الله بن ياسين قد أطلق اسم المرابطين على الذين لازموا الرباط ، راجع حول سبب التسمية د . أحمد مختار العبادي ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (مجلة تطوان) العدد الخامس عام 1960 ص ص 146 ـ 151 .

(4) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 12 .

(5) البكري ، المصدر السابق ص 166 .

(6) البكري ، المصدر السابق ص 166 . الحلل الموشية ص 11 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 11 .

كان لهذا النصر صدىً كبيراً بين القبائل في الصحراء ، فسارعت بقية لمتونة إلى الدخول في الدعوة الجديدة ، في عزة ، وكان دخولها دون حرب ، نجاحاً كبيراً ، نظراً لمكانتها ، وإجلال الناس لرياستها[1] .

كما سارعت قبائل مسوفة ، ولمطة ، إلى الانضمام للنظام الجديد فقد تجاوز الأمر حدود الشخصية القبلية ، وأصبح دعوة دينية ، ونداءاً إلى دعوة الحق ، وإلى نظام سياسي يقوم به الدين على نمط غير الأنماط القبلية وإجابتهم إلى ما طلبوا من دفع ثلث أموالهم[2] .

وكان عبد الله بن ياسين يطهّرهم بأن يضرب كل منهم مائة سوط ، ثم يعلمه القرآن ، وشرائع الإسلام ، ويأمره بالصلاة والزكاة ، وإخراج العشر[3] ، وجعل لذلك بيت مال يجمعه فيه ، ينفق منه على الجيوش ، ويشتري السلاح[4] .

وقد أرسل ممَّا اجتمع عنده بمال عظيم إلى طلبة المصامدة وقضاتها

---

(1) الحلل الموشية ، ص 10 ، د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص 25 .

(2) البكري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 10 .

(3) الأنواع التي تجب فيها الزكاة والعشر :

1— زكاة النقد (الذهب والفضة) وتجب الزكاة فيهما إذا بلغا النصاب ، فنصاب الذهب عشرون مثقالاً ، ونصاب الفضة عشرون مثقالاً .

2 — زكاة السوائم وهي الإبل والغنم ، فأوّل نصاب الإبل خمس وفيها شاة وهكذا في كل خمس شاة ، فإذا بلغ خمس وعشرين ففيها بنت مخاض .

3 — زكاة عروض التجارة وفيها ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة وأن يحول عليها الحول .

4 — المعدن والركاز وما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس ، وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة .

5 — زكاة الزرع أو الثمار ، وحكم زكاتها هو أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقىٰ بالدلاء .

د . حسن إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ص ص 277 ـ 280 .

د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 409 .

(4) ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 227 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 126 .

فاشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء ، وبلاد القبلة ، وبلاد المصامدة وسائر بلاد المغرب[1] ، واشتهر أنه يدعو إلى الله ، وإلى الطريق المستقيم ويحكم بما أنزل الله ، وأنّه متواضع ، زاهد في الدنيا ، واشتهر ذلك ببلاد السودان أيضاً[2] .

وعاد عبد الله بن ياسين إلى تأمين المركز القوي الذي حازه في الصحراء وكان لقدرته الفائقة على التنظيم ، كقائد ملهم ، أن كوّن جيشاً بلغ عدده ثلاثين ألفاً يلتهبون حماساً دينياً ، فلم تشهد إفريقيا من قبل أو من بعد قوة ذات عزم كهذه[3] .

وردت على ابن ياسين المخاطبات من فقهاء سجلماسة ، ودرعة ، يستدعونه لإقامة العدل ، ورفع ما ارتكبه أمراء زناتة من الجور[4] ، فجمع عبد الله بن ياسين جميع رؤساء المرابطين ، وقرأ عليهم ما وصله من مخاطبات ، وشاورهم في الأمر فقالوا له : « أيُّها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله »[5] ، فأمرهم بالاستعداد وخرج بجيش عظيم من المرابطين ، فقد كانت الاستجابة لدعوة فقهاء سجلماسة من شأنها أن تفتح أمام المرابطين باباً واسعاً ومجالاً فسيحاً للتدخّل في شؤون المغرب ، لأنَّ المغرب كله كان في مثل حالة سجلماسة ودرعة يومئذٍ في يد أمير زناتي ، هو مسعود بن وانودين بن خزرون المغراوي[6] .

---

(1) ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ 6 ص 375 . الناصري ، المرجع السابق ص 10 .

(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 126 .

(3) ابن خلّكان ، المصدر السابق ص 114 .

Bovill, E.W., op.cit, p.72.

(4) البكري ، المصدر السابق ص 122 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 10 .

(5) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 127 .

(6) كانت سجلماسة مقرّ دولة خارجة صغيرة هي دولة بني مدرار (بني واسول) ممتدة إلى درعة ، قائمة على التجارة إلى أن وحّد الفاطميون المغرب كله ، وظلّ المغرب موحداً من بعدهم إلى آخر حكم بلكين بن زيري الصنهاجي الذي استخلفه الفاطميون على إفريقيا والمغرب ، بعد رحيلهم إلى مصر فقضىٰ على نزعة المغرب الانفصالية في حملة مشهورة أخضع بها =

توجَّه المرابطون من الصحراء إلى سجلماسة ، ودرعة في جيش عظيم فوجدوا بها عامل أمير سجلماسة ، فأخرجوه عنها واستولوا على خمسين ألف ناقة كانت بها في مراعيها لصاحب سجلماسة مسعود المغراوي ، فلمَّا علم مسعود بذلك جمع جيوشه ، وخرج لملاقاتهم ، فكان النصر للمرابطين على مغراوة ، وقتل مسعود بن وانودين ، وأكثر جيوشه ، وفرَّ الباقون فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الإبل التي كان قد استولىٰ عليها في درعة ، فأخرج الخمس ، وفرَّق على فقهاء سجلماسة ، ودرعة ، وصلحائها ، وقسم الباقي على المرابطين[1] وكان ذلك من سنة 446 هـ - 1045 م[2] .

أسرع ابن ياسين بدخول مدينة سجلماسة ، فقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتىٰ أصلح أحوالها ، وغير ما وجد بها من المنكرات ، فقطع آلات الطرب ، وأحرق الديار التي كانت تُباع بها الخمر ، وأزال المكوس وأسقط المغارم ، وترك ما أوجب الكتاب والسنّة ، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وترك بها حامية من المرابطين لرعاية مصالح المواطنين[3] .

عاد الفقيه عبد الله بن ياسين ، والأمير يحيىٰ بن عمر إلى الصحراء ليقابلا تهديداً خطيراً لهذه الدعوة ، وكان التهديد هذه المرة من ناحية أودغشت فقد انتهزت غانة فرصة تفرق الحلف الصنهاجي بعد استشهاد ابن تيفاوت فاستعادتها من لمتونة[4] .

= سجلماسة ، ثم عادت سجلماسة تشايع اتجاه المغرب إلى موالاة الدولة الأموية في الأندلس في ظلّ الزعامة الزناتية ، والتي كانت هي القائمة بالحكم أيام ظهور المرابطين ، وأيام إجماع الفقهاء على التظلّم إلى المرابطين . ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 150 ، مفاخر البربر ص 33 .

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 128 .

(2) البكري ، المصدر السابق ص 168 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 13 .

(3) البكري ، المصدر السابق ص 166 . ابن عذاري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(4) البكري ، المصدر السابق ، ص 159 .

فقد كان هناك صراع دائم بين لمتونة وسوننكي غانـة ، فكثيراً مـا نهب الآخرون القوافـل القادمـة من الشمال كلّمـا اقتربت من أودغشت ، وأجـابت لمتونة بمحاولة التدخّل في شؤون غانة الداخلية ، والاشتراك في الإقطاعـات الخـاصة بين الـزعماء التـابعين ، ولم يلبث السوننكي أن أصبحـوا أصحـاب السيادة[1] ، بينما بقي البربر والعرب الذين يعيشون بها متباغضين ، يكره كل منهـم الآخر فانتهز ابن ياسين الفرصة ، واستطاع الاستيلاء عليها عام 441 هـ - 1045 م[2] .

وجد أهالي سجلماسة أنَّ حكامهم الجدد لم يختلفوا مطلقاً عن السابقين كـما كانوا يؤملون ، فصمّموا على أن يستعيدوا حريتهم ، فقاموا دون أن يفكّروا فيـمـا أصاب أودغشت ، وفتكـوا بحامية المـرابـطين[3] . فقـد زحفت زنـاتـة المغـراوية على سجلمـاسة فـدخلوهـا وقتلوا من كـان بهـا من اللمتـونين في المسجد الجامع عام 446 هـ[4] .

وندم أهل سجلماسة على ما فعلوه ، وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين ، يذكرون أنَّ زناتة المغراوية زحفت إليهم ، وأنهم هم الذين فعلوا ما فعلوا ، وقتلوا مـا قتلوا ، وطلبوا الـوصول إليهم ، والقـدوم ليـأخـذوا ثـأرهم منهم[5] .

رأىٰ ابن ياسين ضرورة استعادة سجلماسة ، لأنه كان يرىٰ بثـاقب فكره أنَّ استقراره سوف يكون محفوفاً بالخطر ، ما دام الملثمين خلفـه ، وأنهم لن يظلّوا مسالمين لمدة طويلة ، كما أنَّ سجلماسة كانت مركزاً لعالم آخر ، عالم عـربي في المغرب الأقصىٰ ، ويعـد احتلالـه تهديـداً له ، وخـطراً عليـه في

---

(1) Bovill, E.W., op.cit, p.70.

(2) البكري ، المصدر السابق ص 168 .
Bovill, E.W., op.cit, p.70.

(3) البكري ، المصدر السابق ص 167 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 13 .

(4) البكري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 13 .

المستقبل القريب ، أو البعيد ، لأنه سوف تأتي قوات قوية لطرده إلى الصحراء ، وستصبح سيادته غير مؤكّدة[1] .

كما أنَّ هناك الأسباب الاقتصادية ، فقد كانت سجلماسة نهاية لخطوط القوافل المارة بالصحراء ، آتية من أودغشت وأوليل ، وكان من الطبيعي بعد أن حالفوا ممالك السودان، أن يتطلّعوا إلى نهايات الطرق في الشمال[2] فقرر ان يكتسح منطقة أطلس ، ويغزو المغرب الأقصىٰ[3] ، فندب عبد الله بن ياسين المرابطين لغزو سجلماسة ثانية فرفضت قبيلة جدالة الاشتراك في الحرب ، وخالفت عبد الله بن ياسين وتركته ، وارتحلت إلى مضاربها على ساحل البحر المحيط[4] ، فأمر عبد الله بن ياسين الأمير يحيىٰ بن عمر ، بتأديب جدالة ، فتحصن يحيىٰ بن عمر بجبل لمتونة ، وهو جبل منيع ، كثير الماء ، والكلأ[5] .

بينما اتّجه عبد الله بن ياسين بجيش إلى سجلماسة ، في مائتيّ رجل من قبائل صنهاجة ، وكان أبو بكر بن عمر قد تركه أخوه يحيىٰ بن عمر أميراً على درعة ، فانضمَّت إليه أعداد كثيفة من لمتونة ، ومسوفة ، ولمطة وترجة[6] وانضمَّ بهذه الأعداد إلى عبد الله بن ياسين ، واستطاعا هزيمة زناتة شرّ

(1) Bovill, E.W., op.cit. p.73.

(2) د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص 85 .

(3) Bovill, E.W., op.cit. p.73.

(4) البكري ، المصدر السابق ص 167 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 14 .

Cornevin, Robert, op.cit, p.346.

(5) البكري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(6) في البكري ترجة ، وفي ابن عذاري مزحمة ، وفي الحلل الموشية هزرجة وكانت هذه القبيلة في العصور الوسطىٰ تمثّل المنطقة الممتدة جنوب مراكش عند السفح الشمالي لجبال الأطلس فيما وراء الجزء الأعلىٰ من وادي السوس ويُقال إنَّ اسمها البربري الحقيقي هو أرغن ، ثم حرفت إلى هرغة .

ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز ص 26 .

هزيمة ، واستطاعا استعادة سجلماسة مرة أخرىٰ[1] .

وطّد المرابطون أقدامهم في إقليم الواحات ، وأسّسوا مدينة تبلبلا[2] واتخذوها قاعدة للرحلة التالية من جهادهم .

وفي نفس الوقت الذي كان يحارب فيه ابن ياسين ، ومعه أبو بكر بن عمر في سجلماسة ، كانت جدالة تعاود الهجوم على الأمير يحيىٰ بن عمر وتشدّد الحصار عليه في الجبل بأعداد كبيرة ، بلغت نحو ثلاثين ألفاً وكان مع الأمير يحيىٰ بن عمر أيضاً إعداداً كبيرة ، كما كان يقوم بمساعدة ، لبىٰ بن وارجابي ملك التكرور وقد التقىٰ الجيشان بموضع يسمّىٰ تيفريلي[3] فاستشهد يحيىٰ بن عمر عام 448 هـ ـ 1065 م[4] ومعه عدد كبير .

كان الأمير يحيىٰ بن عمر ، مرابطاً محارباً ، أكثر منه حاجاً صالحاً كسلفة يحيىٰ بن إبراهيم ، كان من أهل الفضل والورع ، والزهد في الدنيا وكان شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين ، كثير الطاعة له ، فمن حسن طاعته له ، « أنّه قال له يوماً : وجب عليك أدب ، قال له : فيم يا سيدي ؟ قال له : لا أعرفك به حتىٰ آخذه منك ، فكشف له عن بشرته ، فضربه عشرين سوطاً ثم قال له : إنّما ضربتك ، لأنك باشرت القتال واصطليت الحرب بنفسك وذلك

---

(1) الحلل الموشية ص 11 .

(2) De La Chapelle, Esquise d'une histoire de Sahara Occidental, T.XI, p.62.

(3) البكري ، المصدر السابق ص 168 .

(4) اختلف المؤرّخون حول استشهاد يحيىٰ بن عمر ، فقد اتّفق البكري (المغرب ص 168) ، وابن عذاري (البيان المغرب ، جـ 4 ص 14) ، وصاحب الحلل الموشية (ص 11) في أنّه استشهد عام 448 هـ على يد قبيلة جدالة ، التي كانت تنافس لمتونة على زعامة صنهاجة ، بينما يشير ابن خلدون (العبر ، جـ 6 ص 375) ، القلقشندي (صبح الأعشىٰ ، جـ 5 ص 189) إلى أنّه قتل في الصحراء عام 447 هـ (1064 م) ويروي ابن الخطيب (القسم الثالث من أعمال الأعلام ص 229) أنّه استشهد في وقعة مع الزناتيين بسجلماسة عام 337 هـ ، أمّا ابن أبي زرع (روض القرطاس ص 128) فيرىٰ هو ومن نقل عنه أنّه مات في إحدىٰ غزواته ببلاد السودان ، والغالب أنّ رواية البكري أقرب للصحة .

خطأ منك ، فإنَّ الأمير لا يقاتل وإنَّما يقف ويحرض الناس ، ويقوّي نفوسهم ، فإنَّ حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيوشه »[1] .

لم يضع ابن ياسين وقتاً ، فاختار الأمير أبو بكر بن عمر ليحل محل أخيه الأمير يحيىٰ بن عمر ، وقلَّده أمر الحرب[2] ، وقد عمل عبد الله بن ياسين على أخذ البيعة له من القبائل ، فتوجَّه إلى سجلماسة ، وأخذ له البيعة من أهلها ، وبايعه فيها بعض الزناتيين[3] .

وقد تطلَّع عبد الله بن ياسين إلى بقية القبائل لأخذ البيعة للأمير ، فطاف على القبائل ، وقال لهم : « اتَّقوا الله ، وارتدعوا عمَّا أنتم عليه من فتنتكم وقدموا على أنفسكم من يؤلّفكم » فقالوا له : ما هو فينا ـ ولا في قبائلنا ـ إلاَّ كل قبيلة منا ترىٰ أن يكون الأمير فيها ، فقال لهم : إن أنتم سمعتم مني أدلّكم على رأي صالح ، يصلح الله به أحوالكم ، هذا أمير لمتونة الصحراء أهل الزهد والورع »[4] وكانوا قد سمعوا به ، وما أصلح الله من البلاد على يديه ، فوافقوه ورضوا بزعامة الأمير أبو بكر بن عمر فأخذ عبد الله عليهم العهود والمواثيق ، وأخذ البيعة لأبي بكر بن عمر ، ثم رحل عنهم ، ورجع إلى سجلماسة حيث بشر الأمير بالبيعة[5] .

كانت الحركة التي بثَّها عبد الله بن ياسين بمثابة طاقة عظيمة لا بدَّ أن تنصرف على صورة غزوة كبرىٰ ، أو هجرة عظيمة ، لأنه كان يعرف طباع

---

(1) البكري ، المصدر السابق ص 166 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 11 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 127 .

(2) البكري ، المصدر السابق ص 167 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 11 . الحلل الموشية ص 11 .

ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 127 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 375 . القلقشندي ، المصدر السابق ص 189 .

(3) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 14 .

(4) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(5) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

البدو ، فما تكاد قبيلة تتّحد برئاسة زعيم ، حتىٰ تهب غازية فاتحة ، وكان من الممكن أن تنصرف هذه الطاقة صوب الجنوب ، وتبقىٰ هذه القوة الجديدة في الصحراء ، وأن ينتهي الأمر بأن تأكلها الصحراء ، بما فيها من انتشار السكان ، وعدم تجمّعهم ، ومن مسافات بعيدة ، ومن تقلّبات قبلية[1] . ولكن الذي حدث هذه المرة هو اتجاه الدولة الجديدة نحو العالم المعمور ، المحتاج إلى قوة جديدة خاصة بعد أن تمخّضت هذه القوة عن هزيمة السودان ، وإخضاعهم ونشر الإسلام في بلادهم ، ومحالفة ملوك التكرور ، فكان لا بدَّ من أن تتّجه قبائل الملثمين إلى الشمال ، وأن تغادر مواطنها ، بعد أن بثَّ عبد الله بن ياسين فيها من روحه الميالة إلى الجهاد ، ونشر الإسلام ، وخاصة بعد استنجاد الفقهاء به[2] ، فكان لا بدَّ من جهاد أكبر يتّجه إلى الشمال ، حيث يكمل رسالته .

وكان هناك سبباً آخر لهذه الحركة هو أنَّ الصحراء تعرَّضت في هذا الوقت للقحط ، وضاقت عليهم[3] .

وتختلف روايات المؤرّخين في التاريخ الذي بدأت فيه هذه الحملة ، فالبعض يرىٰ أنها قبل سنة 450 هـ[4] ـ 1058 م بينما ذكر البعض الآخر أنها بعد سنة 450 هـ[5] . وهذا الرأي مستبعد لأنَّ أول عملة ظهرت للمرابطين ضربت في مدينة سجلماسة عام 450 هـ وهذا دليل على أنَّ المرابطين تحركوا إلى

(1) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 189 . د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق ص 55 .

(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 127 . ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 229 .

(3) ابن الأثير ، المصدر السابق ص 74 .

(4) ذكر البكري (المغرب ص 167) أنها في عام 446 هـ (1054 م) . ابن عذاري (البيان جـ 4 ص 13) ذكر أنها حوالي عام 446 هـ بينما أشار ابن خلدون (العبر جـ 6 ص 375) أنها عام 445 هـ (2053 م) ولكن القلقشندي (صبح الأعشىٰ جـ 5 ص 189) أشار إلى أنها في عام 448 هـ (1056 م) .

(5) ابن الأثير ، المصدر السابق ص 74 . النويري ، المصد ر السابق ص 177 .

المغرب قبل عام 450 هـ لأنه لا يمكن ضرب النقود في بلد لم يتم فتحها[1] .

ويبدو أنّ رواية ابن الخطيب أقرب لأنّ سجلماسة فتحت مرتين الأولىٰ ذكرها البكري[2] ، وابن عذاري[3] على أنها كانت عام 446 هـ ـ 1054 م ، وقد مكث بها المرابطين عدة أشهر ، ثم تركوا بها الحامية التي قضت عليها زناتة ، والمرة الثانية بعد أن فرغوا من فتح أودغشت[3] فيكون فتح سجلماسة للمرة الثانية حوالي عام 447 هـ ـ 1055 م أو بعدها بقليل .

كانت الخطوة الثانية لعبد الله بن ياسين أن يغزو بلاد السوس ، فبدأ يغزو جزولة ، ثم فتح مدينة ماسة ، ثم سار إلى مدينة تارودنت[5] ، وكان بتارودنت طائفة من الشيعة الرافضة ، تسمّىٰ البجلية نسبة إلى مؤسّسها عبد الله البجلي الرافضي[6] . فقتل المرابطون أولئك الروافض ، وعاد من بقي منهم إلى السنة ، وأخذ أموال من قتل منهم فيئاً للمرابطين[7] .

دوخ المرابطون بلاد السوس ، واستولوا على سائر نواحيها وإطاعتهم جميع قبائلها ، وعين عبد الله بن ياسين لها عمالاً من المرابطين وأمرهم باتّباع العدل والسنّة ، والاكتفاء بتحصيل الزكاة والإعشار ، وإسقاط ما عدا ذلك من المغارم الجائرة[8] . وارتحل بعد ذلك إلى بلاد المصامدة ، ففتح جبل درن ،

---

(1) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 192 .
Lavoix, H., Catalogu des Monnaies de la Bib. Nat. p.556, piece 507.

(2) البكري ، المصدر السابق ص 167 .

(3) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 13 .

(4) راجع الفصل الثاني من الرسالة ص ص 71 ، 72 .

(5) رودانة في ابن أبي زرع (المصدر السابق ص 129) .

(6) كان قد قدم إلى تلك البلاد أيام عبد الله الشيعي ، مؤسّس الدولة العبيدية ، في أواخر القرن الثالث الهجري ، ونشر مذهبه ، وهو يتضمّن كثيراً من البدع . البكري ، المصدر السابق ص 161 .

(7) البكري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(8) اليكري ، المصدر السابق ص 166 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 13 .

خريطة رقم (3)



د . عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، جـ 2 ص 942 .

وبلاد نفيس ، وسائر بلاد كدميوه[1] وأتاه قبائل رجراجة ، وحاحة فبايعوه[2] .

ثمَّ ارتحل إلى أغمات ، وبها يومئذٍ أميرها لقوط بن يوسف بن علناس المغراوي ، فنزل عليها ، وضيّق عليها الحصار ، ودافع عنها لقوط أشد دفاع ، ولكنه رأىٰ عبث المقاومة ، ففرَّ عنها في أهله وحشمه ، تحت جنح

(1) انظر الخريطة رقم 3 ص 82 .

(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 129 . عبد الله عنان ، المرجع السابق ص 305 .

الظلام إلى ناحية تادلة[1] فنزل في حمىٰ بني يفرن[2] ، أربابها ، ودخل المرابطون مدينة أغمات عام 449 هـ[3] ـ 1057 م .

أقام عبد الله بن ياسين في مدينة أغمات حوالي شهرين، حتىٰ استراح المرابطون ثم خرج بهم لغزو تادلة ، ففتحها وقتل من وجد بها من بني يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوي فقتله ، وتزوّج الأمير أبو بكر من زوجة لقوط زينب النفزاوية وبعد أن نظم ابن ياسين شؤون هذه المنطقة سار إلى تامسنا لمقاتلة قبائل برغواطة[4] .

كانت قبائل برغواطة تدين بمذهب تنافي تعاليمه الإباحية أحكام الإسلام ، أسّسه رجل يهودي الأصل يدعىٰ صالح بن طريف البرغواطي[5] وكان يُقال لمن تبعه ، ودخل في ديانته برناطي ، فعربته العرب وقالوا برغاطي ، فسموا برغواطة ، وقد وفد على منطقة تامسنا ، منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة ، ونشر مذهبه بين أهلها ، فادَّعىٰ النبوّة ، وأنَّه قد نزل عليه قرآن جديد ، وزعم أنَّه المهدي الذي يخرج في آخر الزمن ، وجعل الصلوات خمساً في النهار ، وخمساً في الليل والصوم في شهر رجب ، وأباح لهم الزواج بأيّ عدد من النساء ، وإلى غير ذلك ، وتوارث أعقابه ، وقرابته ، الملك من بعده ، واشتهر منهم في أواخر القرن الثالث أبو غفير بن معاذ بن اليسع بن صالح ، وكانت له مع البربر وقائع مشهورة ، وحارب ملوك العدوتين ، والمغرب والأندلس من الأدارسة ، وبني أمية والشيعة ، هذه القبائل

---

(1) تادلة تقع على بعد 200 كم جنوبي شرق الدار البيضاء . الصديق بن العربي ، دليل المغرب ص 43 .

(2) كان بني يفرن ، ومغراوة أحوان شقيقان من زناتة . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 104 .

(3) البكري ، المصدر السابق ص ص 168 ، 169 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 129 . القلقشندي ، المصدر السابق . ولكن صاحب الحلل الموشية (ص 12) ذكر أنها في عام 450 هـ (1058 م) .

(4) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 129 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 376 .

(5) نسبة إلى برناط وهو حصن من أعمال شذونة بالأندلس . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 130 .



قبر عبد الله بن ياسين بمنطقة كريفلة بالمغرب   مشاهدات الباحثة بالمغرب

(برغواطة) كما حاربهم بلكين بن زيري زعيم صنهاجة حينما غزا المغرب عام 368 هـ ـ 978 م ، ثم حاربهم المنصور بن أبي عامر ، حاجب الدولة الأموية بالأندلس ، فبعث مولاه الفتىٰ واضح لقتالهم ، وحاربهم بني يفرن ، وهكذا أصبحت قبائل برغواطة هدفاً للعداء ، والنقمة ، حتىٰ كان ظهور المرابطين في أوائل القرن الخامس الهجري[1] .

وكان من الطبيعي أن يتّجه المرابطون إلى قتال هؤلاء القوم فسار عبد الله بن ياسين ، وقائده الأمير أبو بكر اللمتوني في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة ، وكان الأمير عليهم يومئذٍ أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير ابن محمد بن معاذ ، ونشبت بين المرابطين وبين البرغواطيين ، وقائع شديدة

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 130 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 210 . الناصري ، الاستقصا جـ 3 ص 14 .
Slauch, Nahum, L'Empire de Berghouata et les origines de Blad es Siba, Revue de Monde Musulman, Tome X, 1910.

أصيب فيها عبد الله بن ياسين أمام المرابطين بجراح بالغة ، توفي على أثرها في نفس اليوم عام 451 هـ[1] - 1059 م ، وقد أُقيم على قبره فيما بعد مسجد ومزار[2] .

لم يكن عبد الله بن ياسين مجرد فقيه بل كان صاحب دعوة في الإصلاح وكان رأيه أن يقوم المنحرف بالشدة ، ولو تجاوزت هذه الشدة الحدود المرسومة ، وقامت دعوته على أساس مذهب مالك[3] ، وإذا كانت أصول الجهاد تقضي بأن يدعىٰ الناس إلى الإسلام ، قبل أن يعلن الجهاد فإن أبوا خيروا بين القتال أو الدخول في حكم الإسلام ، فإنَّ عبد الله بن ياسين أنذر ، وحذَّر ، وخوّف ، وبعث البعوث إلى القبائل تدعوا بالحسنىٰ والموعظة الحسنة ، ولم يعد إلى السيف إلَّا بعد أن أصمّوا آذانهم وتربّصوا به ، وهمّوا بالقضاء عليه وكان يفرض عليهم أن يسلموا إسلاماً جديداً وإلَّا عاملهم معاملة المشركين فإن أسلموا وتابوا ، وأتابوا ، بايعه على الكتاب والسنَّة ، ودخلوا في زمرة رجاله ، لهم ماله ، وعليهم ما عليه ، فإن أبوا ، حكم السيف في رقابهم ، وحاربهم حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة واعتبرهم كفاراً يجب قتالهم ،

---

(1) اتّفق كثير من المؤرّخين على أنَّ وفاة عبد الله بن ياسين كانت عام 451 هـ وهم البكري (المغرب ص 168) ، وابن عذاري (البيان المغرب جـ 4 ص 16) ، ابن أبي زرع (روض القرطاس ص 132) ابن الخطيب (القسم الثالث من أعمال الأعلام ص 230) ، ابن أبي دينار (المؤنس ص 103) ، الناصري (الاستقصا جـ 2 ص 19) ، يوسف أشباخ (تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين ص 64) .

توماس آرنولد (الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم ص 353) .

بينما ذكر البعض أنَّ وفاة ابن ياسين كانت في عام 450 هـ (1058 م) منهم القاضي عيّاض (ترتيب المدارك جـ 3 ، ص 782) صاحب الحلل الموشية (ص 12) ، ابن خلدون (العبر جـ 1 ص 376) ، القلقشندي (صبح الأعشىٰ جـ 5 ص 189) .

والمرجح أنها في أوائل عام 451 هـ كما ذكر ابن عذاري .

(2) ما زال ضريح عبد الله بن ياسين معروفاً مزاراً بكريفلة من أرض قبيلة زعير بموضع مرتفع قريب من مدينة الرباط في الطريق المؤدّية عن ابن سليمان إلى الرماني . مشاهدات الباحثة في رحلة المغرب .

(3) البكري ، المصدر السابق ص 164 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 123 .

فكان يقاتلهم حتىٰ يقهرهم ، وكانت أموالهم غنيمة لجيش المرابطين وفيئاً لهم ، وكان يقسم الغنائم وفق ما قضت به السنّة[1] .

وإذا كان عبد الله بن ياسين قد تشدّد في حدود الدين ، وفي إقامة الصلوات فقد كان له عذره ، ويتّضح ذلك من جوابه على شيخه وجاج بن زللو : « أمّا إنكارك على ما فعلت ، وندامتك على إرسالي ، فإنّك أرسلتني إلى أمة جاهلة يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام فيغربان في المرعىٰ ، فتأتي المرأة حاملاً من أخيها ، ولا ينكرون ذلك ، وليس دأبهم إلاّ الإغارة بعضهم على بعض ، وقتل بعضهم لبعض لا ديّة لهم في الدماء ، ولا حرمة عندهم للحريم ، ولا توقّي منهم في الأموال ، فأخبرتهم بالمفروض عليهم ، والمسنون لهم والحدود فيهم ، فمن قبل واليته ، ومن تولّىٰ أرديته ، وما جاوزت حكم الله ، ولا تعدّيته والسلام »[2] .

أمّا بالنسبة لشدّته في فروض الصلاة ، فكان بسبب جهلهم ، ولكي يعودهم على إقامة الشعائر ، وتطهير النفس : « وكان أخذ جميعهم بصلاة الجماعة ، وعاقب من تخلّف عنها عشرة أسواط ، لكل ركعة تفوته ، إذ كانوا عنده ممّن لا تصحّ له صلاة إلاّ مأموماً ، لجهلهم بالقراءة والصلاة »[3] .

وقد قنع عبد الله بن ياسين في هذا المجتمع بدور الإمام الذي يعلم ويقود الناس للخير[4] .

---

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 126 . والناصري ، المرجع السابق ص 10 .
(2) النويري ، المصدر السابق ص 152 .
(3) القاضي عيّاض ، المصدر السابق ص 781 .
(4) الحلل الموشية ص 10 .

الفصل الثالث

ابو بكر بن عمر
وجهوده السياسية والعسكرية

* * *

الأمير أبو بكر ـ توليه درعة من قبل أخيه ـ اشتراكه في استعادة سجلماسة ـ مواصلة حرب برغواطة ـ اعتماده على ابن عمه يوسف بن تاشفين ـ اتخاذ أغمات مقرّاً للإقامة ـ بناء مدينة مراكش العاصمة ـ الخلاف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة في الصحراء ـ اختيار يوسف بن تاشفين نائباً عنه في المغرب ـ رحيل أبو بكر للصحراء ـ جهاد السودان ـ ازدياد نفوذ يوسف في المغرب ـ عودة أبي بكر المفاجئة ـ دور زينب النفزاوية في لقاء الرجلين ـ تنازل أبي بكر للأمير يوسف عن المغرب حقناً للدماء ـ توجه الأمير أبي بكر للصحراء ـ إمبراطورية غانة ـ حرب إمبراطورية غانة ـ سقوط غانة ـ اعتناق ملك غانة الإسلام ـ نشر الإسلام والرباطات ـ مقتل الأمير أبي بكر .

* * *

أبو بكر بن عمر وجهوده السياسية والعسكرية

هو الأمير أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين بن ورتناطق[1] ، كـان من أوائل المرابطين الذين صحبوا عبد الله بن ياسين إلى رباطه ، فقد كان أحد اثنين من قبيلة لمتونة ، وكان أخوه الأمير يحيىٰ بن عمر الثاني من القبيلة اللمتونية[2] ، فعاش في رباط ابن ياسين ، منفذاً لتعاليمه ، مطيعاً لأوامره ، يسري عليه ، ما يسري على الآخرين من أفراد الرباط[3] .

وقد شارك في الدعوة منـذ بدايتهـا ، ففي الوقت الـذي كان فيـه الأمير يحيـىٰ بن عمـر يحارب قبـائل جـدالة في الجنـوب ، لـرفضهـا التعـاون مـع عبد الله بن ياسين في حرب سجلماسة ، كان الأمير أبو بكر بن عمر أميراً على درعة من قبل أخيه الأمير يحيـىٰ بن عمر[4] ، واستطاع أن يكون جيشاً كبيراً من لمتونة ، ومسوفة ، ولمطة ، وترجـة ، وانضمَّ بهذا الجيـش إلـى عبـد الله بن

---

(1) ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمـال الأعلام الأعـلام فيمن بويـع قبل الاحتـلام من ملوك الإسلام ص 231 ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطـاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص 122 .

(2) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ 6 ص 374 .

(3) البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغـرب ص 169 . ابن أبي زرع ، المصدر السـابق ص 125 ،

Norris, H.T. New evidence on the life of Abdalla b. Yassin. p.256.

(4) ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ 4 ص 15 .

ياسين واستطاعا تأديب زناتة واستعادة سجلماسة ، وانتقل المرابطون من نصر إلى نصر ، حتىٰ أصيب إمام المرابطين ، وصاحب دعوتهم عبد الله بن ياسين بجراح خطيرة في إحدىٰ معاركهم مع قبائل برغواطة[1] ، فجمع شيوخ المرابطين ، ورؤسائهم ، وبه رمق فقال لهم : « يا معشر المرابطين إنّكم في بلاد أعدائكم ، وإنّي ميت في يومي هذا لامحالة ، فإيّاكم أن تجبنوا وتفشلوا فتذهب ريحكم ، وكونوا ألفة ، وأعواناً على الحق ، وأخواناً في ذات الله تعالىٰ ، وإيّاكم والمخالفة والتحاسد ، على طلب الرياسة فإنَّ الله تعالىٰ ، يؤتي ملكه من يشاء ، ويستخلف في أرضه من أحب من عباده وإنّي ذاهب عنكم فانظروا من تقدمونه منكم يقوم بأمركم ويقود جيوشكم ، ويغزو عدوكم ، ويقسم بينكم فيأكم ، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم »[2] ، فاتّفق رأيهم على تقديم أمر الحرب للأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني . فقدمه عبد الله بن ياسين عليهم باتفاق من جميع أشياخ صنهاجة ، وإجماع منهم على ذلك ، وقد توفي عبد الله بن ياسين في مساء ذلك اليوم[3] .

وقد ذكر كل من القاضي عيّاض ، وابن خلدون أنَّ المرابطون اتفقوا أيضاً على تقديم الشيخ سليمان بن عدي ، ليرجعوا إليه في مشاكلهم ، وفي قضايا دينهم[4] .

وعندما فرغ الأمير أبو بكر من دفن عبد الله بن ياسين ، عبأ العساكر الصحراوية ، وقصد إلى قتال برغواطة ، فاستأصلهم بالقتل ، وفرق جموعهم

---

(1) انظر الرسالة ص 84 .

(2) ابن أبي ررع ، المصدر السابق ص 132 .

(3) انظر الرسالة ص 85

(4) القاضي عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، جـ 453 ص 780 ، ابن خلدون ، المصدر السابق ص 376 ،

Narris, H.T., op.cit, p.267.

وقـد هلك في جهـادهم الشيـخ سليمـان بن عـدي[1] ، فخلفـه أخـوه أبـو القاسم[2] .

استمرَّ الأمير أبو بكر في أثـر البرغـواطيين يقتل ، ويسبي « حتىٰ أثخن فيهم وتفرّقت برغواطة في الصحـراء ، وأذعنوا لـه بالـطاعة وأسلمـوا إسلامـاً جديداً ، فلم يبق لـديانتهم[3] أثـر ، وقد جمـع أبو بكـر أموالهـم وغنـائمهم ، وقسمها بين المرابطين »[4] .

تابع الأمير أبو بكر الجهاد الـذي كان قـد رسمه لـه الشيخ عبـد الله بن يـاسين ، وكان قـد جمع بين الـزعامتين الـدينية ، والسيـاسيـة ولكن الصفـة السياسية للأمير أخذت تغلب على صفته الدينية ، لأنَّ الدولة أخذت تمرّ بدور من أدوار الجهـاد ، والكفاح ، الـذي يتـطلّب حـزمـاً ، وسعـة أفق ، وحسن توجيه ، فلمَّا تشعبت مهام أبي بكر وثقل العبء عليه ، اعتمد على ابن عمـه الأمير يوسف بن تاشفين، فجعله على مقدمة الجيش الغازي لإقليم السوس[5] .

وقد اتّخذ الأمير أبو بكر من مدينة أغمات[6] مركزاً لقيادته ، وكان يسكن مع أخوانه في الأخبية[7] ، وهنـاك توالت على الأميـر الوفـود ، والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت أغمات بالوافدين ، وضجَّ أهلها بالشكوىٰ إلى الأمير أبي بكر فقال لهـم : « عينوا لنا موضعاً نبني فيه مدينة إنشاء الله تعالىٰ »[8] وقد

---

(1) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 776 .

(2) القاضي عيّاض ، المصدر السابق ص 780 .

(3) عن ديانة برغواطة انظر ما سبق ص 83 .

(4) ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 231 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 133 .

(5) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 18 . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ جـ 9 ص 251 .

(6) أغمات كانت عبارة عن مدينتين متقابلتين هما أغمات هيلانة ، وأغمات وريكة ، وكانت مدينة صغيرة يسكنها يهود تلك الجهات .

الإدريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ص 69 ، 70 .

(7) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 18 .

(8) المصدر ا لسابق ص 19 .

حدث في أول الأمر تنازع بين وريكة وهيلانة حول تعيين المكان الذي يكون فيه بناء المدينة ، فقد طلب كل واحد أن يكون بناء المدينة في بلادهم لينسب إليهم بناؤها ، وكادت تقع فتنة بينهم ، فاجتمع شيوخهم ، واختاروا موقعاً بين المدينتين ، وعرفوا بذلك الأمير أبا بكر بن عمر وقالوا له : « قد نظرنا موضع صحراء لا أنيس به إلاّ الغزلان والنعام ، ولا تنبت إلاّ السدر والحنظل »[1] وقد رأىٰ البعض أن يكون بمكان على نهر تاسيفت[2] ولكنَّ الأمير لم يعجبه المكان خوفاً من تعرّض هذا النهر للفيضان ، فقال لهم : « نحن من أهل الصحراء ، ومواشينا معنا ، لا يصلح لنا السكنىٰ على الوادي »[3] وأخيراً أشاروا عليه بمكان متوسّط بين هيلانة ، وهزميرة في بسيط حافل بالزرع والماء ، وقالوا له : « قد نظرنا لك أيها الأمير موضعاً صحراء رحب الساحة ، يليق بمقصدك يكون وادي نفيس جناتها ، وبلاد دكالة فدانها ، وزمام جبل درن ، بيد أميرها »[4] .

وعند ذلك ركب الأمير في جيوشه حتىٰ بلغ سهل مراكش ، وهو خلاء لا أنيس به ، فوجد في فحصها مرعىٰ خصباً للجمال ، والدواب ، ما أثار غبطتهم ، وقد افتتح الأمير أبو بكر بن عمر عملية الإنشاء والتعمير عام 454 هـ[5] ـ 1062 م ، وشاركه شيوخ القبائل ، وأعانوا على البناء بالمال

(1) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 19 .

(2) نهر من أنهار المغرب يسقي مياهه حوز مراكش ، في طريقه إلى مصبّه بالمحيط الأطلسي بين أسفىٰ ، والصويرة ، ويبلغ طوله حوالىٰ 250 ك ، وعلى بعد ثلاثة أميال من مراكش ويفيض في الشتاء .

الإدريسي ، المصدر السابق ص 69 . د . مختار العبادي ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية ص 144 .

(3) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 19 .

(4) ابن عذاري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها . أشباخ (يوسف) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين ص 65 .

(5) اختلف المؤرّخون في السنة التي بدأ فيها الشروع في بناء المدينة وفي اسم مؤسّسها فقد أجمع بعض المؤرّخين منهم ابن الخطيب (القسم الثالث من أعمال الأعلام ص 234) ، ابن أبي زرع (روض القرطاس ص 138) ، ابن خلدون (العبر جـ 6 ص 378) ، محمد عبد الله =

والرجال ، فبنىٰ قصر الحجر ، أو دار الحجر ، وتبعه الناس في بناء الدور من غير أسوار كل واحد على قدر جهده واستطاعته[1] .

وبينما كان الأمير أبو بكـر بن عمر يشـرف على البناء ، أتـاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة جدالة على لمتونة ، واشتداد القتال بين الفريقين[2] .

وكان بين جدالة ولمتونة فتنة دائمة[3] ، بل لقد أتت الأخبار أيضاً مؤكّدة وقـوع الخلاف بين لمتـونة ، ومسـوفة[4] ، فبعث الأمير أبو بكـر إلى شيـوخ لمتـونة ، وكبـرائهم ، وقال لهم : « إنَّ أخـوانكم قد أغـارت جـدالـة عليهم

= عنان (دول الطوائف ص 210) . د . محمد عبد الهادي شعيرة (المرابطون ص 56) على أنَّ الذي أنشأها هو الأمير يوسف بن تاشفين في سنة 454 هـ (1062 م) ، وقد اتَّفق معهم بعض المؤرّخين الأجانب منهم :

Bovill, E.W., The Golden trade of the Moors, p.75,
Cornevin, Robert, Histoire de l'Afrique des origines a nos jours, p.112.
Mukarovsky, Hans, Afrique d'hier et d'aujourd'hui, p.54,
Terrasse, H., Histoire du Maroc, p.74 and
Yver, G., Morocc, "Ency. of Islam", Vol.IV, p.554.

ولكنَّ الإدريسي (صفة المغرب ص 67) ذكر أنَّ يوسف بن تاشفين شرع في بنائها في صدر عام 470 هـ بينما اتَّفق كل من صاحب الحلل الموشية (ص ص 5 ، 6) ، وابن عذاري (البيـان المغـرب جـ 4 ص 20) مختـار ا لعبـادي (دراسـة حـول كتـاب الحلل المـوشيـة ص 143) ـ على أنها أنشئت في سنة 462 هـ (1069 م) وأنَّ الذي أسّسها هو الأمير أبو بكر بن عمر ، وليس يوسف بن تاشفين ، وقد اعتمد الدكتور مختار العبادي على أنَّ البكري المعاصر لإمارة الأمير أبي بكر بن عمر لم يذكر شيئاً عن بناء مراكش في كتابه المغرب الذي انتهىٰ من تأليفه سنة 460 هـ (2067 م) والمرجَّح أنَّ الأمير أبا بكر وضع الأساس سنة 454 هـ ثم انصرف للصحراء لإخماد الفتنة ، وأنها لم تكن مدينة بالمعنىٰ المفهوم إلى أن أتمَّها يوسف بن تاشفين سنة 459 هـ (1066 م) حسب رواية صاحب الاستبصار .

(1) الحلل الموشية ص 5 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 20 .

(2) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 20 . محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ص 308 .

(3) الحلل الموشية ص 5 . ابن عذاري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(4) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 377 .
Cornevin, Robert, Histoire de l'Afrique des origines au XVI^{e} siécle, Tome I, p.346.

وقتلوهم ، وأنا مسافر إن شاء الله إليهم لآخذ بثأرهم فانظروا منكم رجلاً أستخلفه عليكم »[1] .

كان هذا الصراع ينطوي على تهديد خطير لحركة المرابطين في الوقت الذي كانوا يتحفّزون فيه لمنازلة أعدائهم ، كما يبدو أنّ بلاد السودان المتاخمة لبلاد الملثمين ، قد انتهزت فرصة هذا الصراع فحاولت الانقضاض عليهم ، لذلك لم يجد أبو بكر بن عمر بداً من أن يمضي بنفسه إلى الجنوب ، ليقضي على هذه الثورات ، والفتن ، ويوحّد بين هذه القبائل حتىٰ لا تتفرّق الكلمة ، وتتبعثر الجهود وحتىٰ يستمر التدفّق البشري من عنصر الملثمين ، ذوي الملكة الحربية الفائقة « ولأنّ الصحراء هي أصل أعياصهم ، ووشايج أعراقهم ، ومنبع عددهم ، فخشي افتراق الكلمة ، وانقطاع الوصلة »[2] .

لذلك كان اتخاذه قرار الذهاب إلى الصحراء بنفسه ، ليعيد النظام ويقضي على الاضطرابات[3] .

اختار الأمير أبو بكر ، ابن عمه الأمير يوسف بن تاشفين ليحلّ محله في المغرب ، وقد أقرّه شيوخ المرابطين على اختياره لما عرف عن يوسف بن تاشفين من الفضل والورع ، وسداد الرأي ، فطلق الأمير أبو بكر زوجته زينب[4] ، وأوصىٰ ابن عمه يوسف بن تاشفين بزواجه منها لسداد رأيها وقال

---

(1) ابن خلّكان ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، جـ7 ترجمة 518 ص 113 ،
Bovill, E.W., op.cit. p.74 and
Cornevin, Robert, op.cit. p.346.

(2) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 377 .

(3) أشباخ ، المرجع السابق ص 65 .

(4) هي زينب النفزاوية ، وكانت امرأة حازمة ، ذات رأي ومعرفة بالأمور ، حتىٰ كان يُقال عنها إنّها ساحرة ، وقد شاع ذكرها بين قبائل المصامدة فكان يخطبها شيوخهم وأمراؤهم ، فتمتنع وتقول : « لا يتزوجني إلّا من يحكم المغرب كله » فتزوّجها الأمير أبو بكر ، وأقام معها بأغمات مدة ثلاث أشهر إلى أن كان رحيله إلى الصحراء ، فطلّقها ، وقال لها عند فراقه لها : « يا زينب إنّك ذات حسن وجمال فائق ، وإنّني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد ، لعلّي أرزق الشهادة ، والفوز بالأجر الوافر وأنت امرأة لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء ، ولا يمكنني =

له : « تزوجها فإنَّها امرأة مسعودة »[1] .

ارتحل الأمير أبو بكر بن عمر ، بعد أن ترك مع يوسف بن تاشفين ثلث الجيش ، ورحل مع الثلثين[2] ، ثلث جعله رديفاً دائماً ، والثلث الباقي صحب أبو بكر إلى الصحراء[3] .

اخترق أبو بكر بن عمر بلاد تادلا ، وسجلماسة ، ثم سار جنوباً إلى مضارب المتنازعين ، واستطاع أن يزيل أسباب الخلاف ، وأن يعيد إلى الصحراء[4] أمنها ورأىٰ أن يوجّه جهودهم لمحاربة الوثنيين من بلاد السودان ، حتىٰ ينشغلوا في هذا الجهاد عن منازعاتهم المستمرة .

كانت مدينة أودغشت عاصمة الملثمين في الجنوب ، منذ الاستيلاء عليها فأقام بها الأمير أبو بكر حتىٰ تجمع لديه جيش كبير من قبائل الملثمين ، وخرج منها قاصداً جهاد الزنوج من السوننكي الذين يخضعون لملك غانة[5] .

نجح الأمير أبو بكر بن عمر في إخضاع كثير من بلاد السودان لحكم المرابطين . فخيَّرهم بين الإسلام أو الجزية ، وقد استطاع أبو بكر أن يخضع

= أن أمشِ عنك ، وأنت في عصمتي ، فإن أنا متُّ كنت مسؤولاً عنكِ ، والرأي أن أطلّقكِ ، فإن تممت عدتك فتزوّجي ابن عمي يوسف بن تاشفين ، فهو خليفتي على بلاد المغرب ، وقيل إنَّها هي التي طلبت طلاقها فأسعفها بذلك .

ابن عذاري ، المصدر السابق ص ص 18 ، 21 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 134 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 377 .

(1) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 21 .

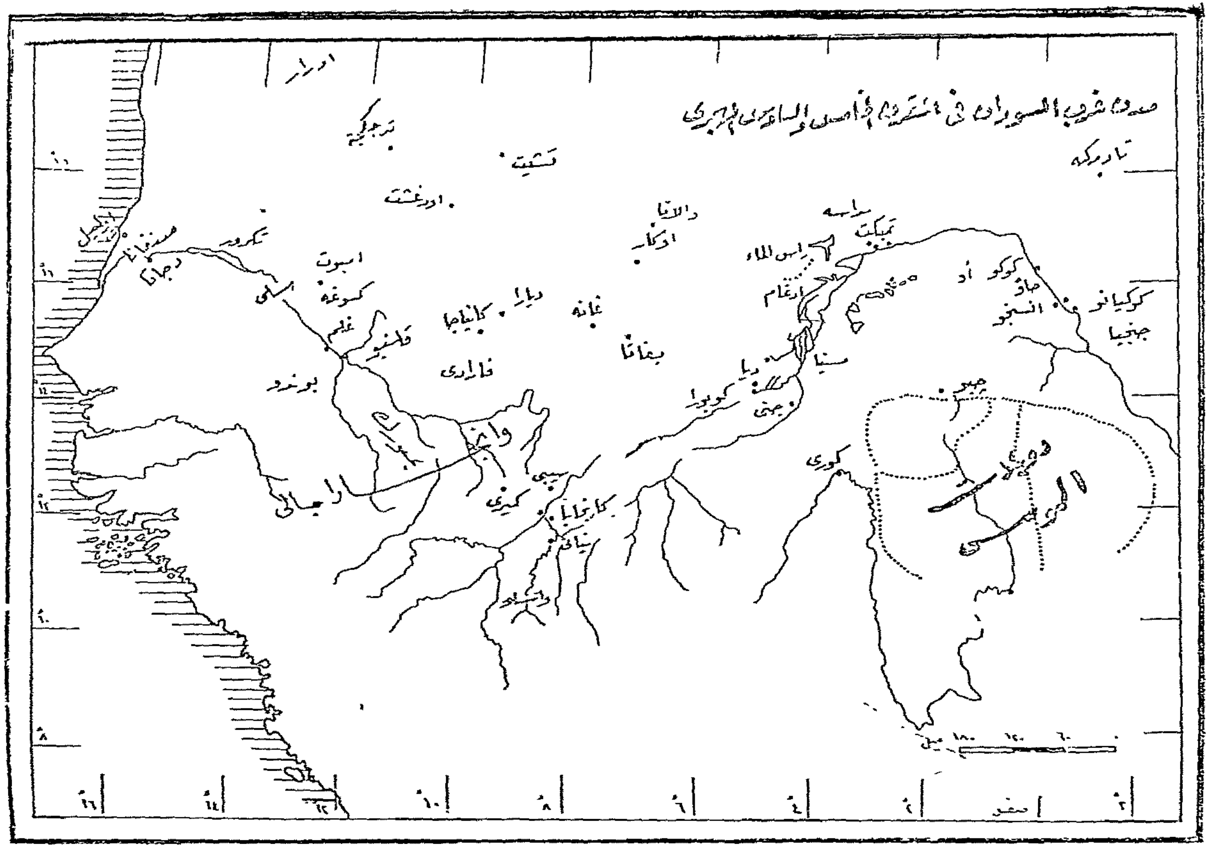
(2) ابن عذاري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، الحلل الموشية ص 13 .

(3) محمد أحمد المغربي ، موريتانيا ومشاغل المغرب الإفريقية ، ص 5 . أشار ابن أبي زرع (روض القرطاس ص 134) ، ومن نقل عنه أنَّ الجيش قسم قسمين قسم اتجه مع الأمير أبي بكر ، والآخر بقي مع يوسف بن تاشفين .

(4) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 134 . محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ص 309 .

(5) Bovill, E.W., op.cit, p.74.

خريطة رقم (4)



Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa, pp.38 - 39.

من بلاد السودان مسيرة ثلاثة أشهر (تسعون مرحلة)[1] .

لم تذكر المصادر المتداولة حتىٰ الآن شيئاً عن اتجاه الأمير أبي بكر بن عمر في جهاده في بلاد السودان ، هل سار في اتجاه الجنوب الغربي أو الجنوب الشرقي ؟ ولكن يبدو أنه اتجه من أودغشت عاصمة المرابطين في الجنوب إلى الشرق ، لأنَّ الجنوب الغربي كان يوجد به مملكة التكرور الإسلامية وبعض بلاد السودان المسلمة مثل كوغة ، وسلىٰ ، ولم يكن من عادة المرابطين مهاجمة البلاد الإسلامية ، كما أنَّ الملك تارم ملك أنبار ، التي تقع على بعد ستة مراحل غرب غانة في مناوشات دائمة مع ملك غانة[2] ، لذا يبدو أنَّ الأمير أبا بكر فضل الاتجاه إلى الجنوب الشرقي ، فاستولىٰ على بعض البلاد التي تخضع للوثنيين ، حتىٰ استطاع أن يستولي على مسيرة ثلاثة أشهر من بلاد السودان ، أخضعها للمرابطين ، ونشر بها الإسلام .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه الأمير أبو بكر يصلح فيه أحوال الصحراء ويجاهد الوثنيين في السودان ، كان المرابطون يزدادون قوة في الشمال فقد قاد يوسف بن تاشفين جيوشه الباسلة إلى قلب المغرب الأقصىٰ ، وانصرف إلى الغزو بكل ما يملك من إمكانيات[3] .

بعد أن فرغ الأمير أبو بكر من مهامه في الجنوب ، رجع إلى الشمال فنزل بأغمات خارج المدينة ، ومعه نزلت جيوشه عام 464 هـ ـ 1071 م[4] ، وقد

---

(1) الحلل الموشية ص 13 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 135 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 377 .

(2) البكري ، المصدر السابق ص 179 .

(3) Bovill, E.W., op.cit, p.74.

(4) ذكر كل من ابن عذاري (البيان المغرب جـ 4 ص 24) ، صاحب الحلل الموشية (ص 12) . إنَّ رجوع الأمير أبو بكر بن عمر كان عام 465 هـ (1072 م) ، بينما ذكر ابن أبي زرع (روض القرطاس ص 135) . ابن خلدون (العبر جـ 6 ص 377) أنَّ رجوع الأمير أبو بكر كان قبل عام 465 هـ ، ذلك لأنَّ زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين التي لعبت دوراً في لقاء الرجلين قد توفت عام 464 هـ ، أي إنَّ رجوع أبو بكر كان قبل هذا التاريخ .

تسابق أصحابه إلى مراكش لرؤيتها ، ورؤية بنائها ، والسلام على الأمير يوسف بن تاشفين ، الذي كان قد أتمَّ بناء المدينة وحصنها ، وقد أعانته القبائل في جميع أموره ، وأحواله وتحبّب إليهم ، وأفاض من إحسانه عليهم ، فاستوثق ملكه[1] ، فلمّا قدم الأمير أبو بكر بن عمر ، اجتمع عند يوسف بن تاشفين عدد كبير من القادمين ، فوصىٰ لهم على قدر منازلهم ، وأعطاهم بمقدار مراتبهم ، وأمر لهم بالكسوة الفاخرة والخيول والأموال ، والعبيد المتعددة[2] .

وقد بعث الأمير أبو بكر إلى يوسف بن تاشفين يعلمه بوصوله ويضفي المؤرّخون[3] على هذا اللقاء مسحة الأسطورة ، فيقولون انَّ يوسف عقد النية على أن يختص نفسه بالمغرب ، فيصبح أميراً عليه ، وانَّ أبا بكر سمع أنَّ يوسف أراد أن يستبدّ بالأمر دونه ، فعاد لتوّه ، ليخلعه ويولي غيره ، وقد استشار يوسف بن تاشفين زوجته زينب النفزاوية إذ كان يرجع إليها في عظائم الأمور ، ويعتمد على نصحها ، وحسن سياستها ، فأشارت عليه بأن يستقبل أبا بكر بالجفاء والغلظة ، ويشعره بقوة السلطان ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام بما يصلح للصحراء حتىٰ يعرف غرضه وقالت له : « انَّ ابن عمك رجل متورّع من سفك الدماء ، ولا تسهل عليه الفتنة »[4] .

وصل الأمير يوسف بن تاشفين للقاء الأمير أبي بكر ، في جنوده وعبيده ، وتلقاه في نصف الطريق ، فكان اجتماعهما ما بين أغمات ومراكش على بعد تسعة أميال منها ، فسلم عليه راكباً ، ولم تكن هذه عادته ، ثم ترجَّلا على برنس ، فسمّىٰ المكان فحص البرنس ، وقد تعجب الأمير أبو بكر بن عمر ، ممّا رأىٰ من ضخامة ملك ابن تاشفين ، ووفرة عساكره ، وقال له : « يا

---

(1) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 21 .

(2) الحلل الموشية ، ص 14 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 24 .

(3) الحلل الموشية ص 14 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 24 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 135 . الناصري ، المرجع السابق ص 12 .

(4) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 135 . ابن الخطيب ، المصدر السابق ص 233 .

يوسف ما تصنع بهذه الجيوش كلها ، قال : أستعين بها على من خالفني » فارتاب أبو بكر فيه ومنه ، ونظر إلى ألف بعير موقورة ، قد أقبلت ، فقال : « ما هذه الإبل موقورة ؟ قال : أيُّها الأمير جئتك بكل ما معي من مال وثياب وشيء من الأدام والطعام ، لتستعين به على الصحراء ، فعلم أبو بكر أنَّ يوسف لن يتخلَّىٰ له عن الأمر . ولما كان أبو بكر ورعاً تقيّاً ، وهب حياته للجهاد فقد توجَّه إلى يوسف بن تاشفين بالنصح ، وبتوقّي العدل ، وإصلاح شؤون الرعيّة ، وقال له : « يا يوسف أنت أخي ، وابن عمي ، ولم أرَ من يقوم بأمر المغرب غيرك ، ولا أحق به منك ، وأنا لاغناء لي عن الصحراء ، وما جئت إلَّا لأسلم عليك ، ونسلم الأمر إليك ، ونعود إلى الصحراء مقر أخواننا ، ومحل سلطاننا » ، فشكر يوسف ، وحضر شيوخ لمتونة وأعيان الدولة ، وأمراء المصامدة ، والكتاب والشهود ، والخاصة والعامة وأشهد على نفسه بالتخلّي له عن الأمر بالمغرب ، وقام فودعه الأمير يوسف بن تاشفين ، وعاد الأمير أبو بكر إلى موضع نزوله في أغمات استعداداً للرحيل إلى الصحراء ، بينما اتجه يوسف إلى مراكش موضع ملكه[1] ، فلمَّا وصل إليها ، بعث إلى الأمير أبي بكر بهدية عظيمة[2] ، سرَّ بها أبو بكر ، وقال : « خير كثير ، ولم يخرج الملك من بيننا ولا زال عن أيدينا »[3] ، وقد وزع على أخوانه من تلك الخيرات ، وانصرف إلى الصحراء ، لاستكمال جهاد السودان[4] .

---

(1) الحلل الموشية ص 15 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 25 .

(2) كانت الهدية عبارة عن خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب ، وسبعون فرساً ، منها خمسة وعشرون مجهّزة بفاخر الجهازات وسبعون سيفاً محلاّة ، وعشرون من الأشابر المذهّبة ، ومائة وخمسون من البغال الذكور والأثاث ، ومائة عمامة مقصورة ، وقدور كثيرة مملوءة بنفيس الأمتعة ، والكسىٰ الفاخرة ، وبعث له عشرين جارية أبكاراً ، وجملة من خدم الخدمة ، ووجه له مائتين من البقر وخمسمائة رأس من الغنم ، وألف ربع من الدقيق ، واثنيّ عشر ألف خبزة ، وسبعمائة من الشعير ، وبعث إليه وزناً صالحاً من العود والعنبر والمسك وكتب إليه يعتذر إليه ويرغبه في قبول الهدية ، ويقول له ذلك قليل في حقك ، فطابت نفس الأمير أبي بكر . الحلل الموشية ص 15 . ابن عذاري ، المصدر السابق ص 26 .

(3) الحلل الموشية ص 16 .

(4) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 135 .

في رأي الدكتور حسن محمود أنَّ عودة الأمير أبو بكر إلى المغرب كانت عودة طبيعية بعد أن أدب العصاة ، ووحَّد القبائل ، وأنَّه إنَّما عاد لكي يؤكِّد توليته للأمير يوسف بن تاشفين على المغرب ، وأنَّه لو أحسَّ بتمرّد يوسف بن تاشفين عليه في المغرب ، لكان في استطاعته أن «يجنِّد من القبائل ما يستطيع به مدافعة يوسف ، ورده عن العصيان[1] .

ولكن إذا كانت عودة الأمير أبو بكر عودة طبيعية ، فلماذا انزعج الأمير يوسف من هذه العودة ؟ بل لقد ذكر ابن عذاري أنَّه لما بلغ يوسف بن تاشفين عودة الأمير أبي بكر : « اغتمَّ لذلك غماً شديداً وحزن حزناً عظيماً ، وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته ورتب فيه ما رتب من الأجناد والضخامة »[2] بل لقد حدث زوجته زينب من تخوّفه ، وتحرّجه من قتال أبي بكر لصلة القرابة بقوله : « ولو كان غير ابن عمي لقاتلته »[3] وإذا كانت زينب النفزاوية ، زوجة يوسف قد لعبت دوراً كبيراً في لقاء الرجلين ، فهي التي أشارت على يوسف بالطريقة التي يقابل بها الأمير أبي بكر ، والهدايا التي يقدمها له ، فإنَّ زينب كانت زوجة سابقة للأمير أبي بكر بن عمر ، وتعرف كثيراً من طباع هذا الأمير ، وخاصة حبه للزهد ، والبعد عن سفك الدماء ، ويظهر ذلك من ردّها على تخوّف الأمير يوسف بن تاشفين ، بأنَّ الأمير أبا بكر : « لا يقاتلك على الدنيا ، فإنَّ الرجل خير ، لا يستحل سفك دماء المسلمين »[4] .

لا شكَّ أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين قد مكن لنفسه في المغرب كله كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح المغرب الأقصىٰ ، ويؤدّب قبائله فلم يكن من السهل عليه أن يتنازل عن ثمرة هذه الجهود ، بل إنَّه كان يحاول أن يستميل

---

(1) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 224 .
(2) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 23 .
(3) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(4) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 23 . ابن أبي زرع ، روض القرطاس ص 125 .

إليه أخوانه في الصحراء ، ففي الوقت الذي كان يكاتب فيه الأمير أبي بكر بكل ما يصنع ، أثناء وجوده في الجنوب ، يعيد للصحراء أمنها ، ويجاهد السودان ، كان يوسف بن تاشفين يكتب إلى بعض أخوانه سراً ، دون علم أبي بكر ، يحضّهم على الوصول إليه والقدوم عليه ويعدهم بالخير ، حتىٰ لقد وصل منهم جماعة كبيرة[1] .

ومن المستبعد أن عودة الأمير أبا بكر كانت لتأكيد تولية الأمير يوسف بن تاشفين على المغرب ، لأنَّ الأمير أبا بكر ، قبل سفره إلى الصحراء قد أكَّد هذه التولية ، ولم يتَّخذ قرار التولية هذا إلاَّ بعد أن عرض على شيوخ المرابطين ، وأقرّوه على هذا الاختيار[2] .

فكانت عودة الأمير أبو بكر ، وتركه جهاد السودان ، إنَّما كانت عودة مفاجئة ، بعد أن بلغه أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين ، قد مكَّن لنفسه في المغرب ، ومن الجائز أن يكون قد علم بمكاتبات يوسف إلى أخوانه في الصحراء ، وتحريضهم على الوصول إليه ، فعند وصول الأمير أبي بكر إلى المغرب ، ورأىٰ ما وصل إليه يوسف بن تاشفين من القوة ، والغنىٰ ، ومن استمالته لأصحابه بالأعطية والهدايا ، تأكَّد من نيّة الأمير يوسف وعزمه على عدم التخلّي له عن المغرب ، فآثر الأمير أبو بكر العودة إلى الصحراء ، والإبقاء على وحدة الصف ، وتجنّب سفك الدماء ، وحتىٰ يظل يوسف تابعاً له على حكم المغرب من قبله ، وهذا ما حدث فعلاً ، فقد أخذ يوسف بن تاشفين على نفسه عهداً ، بألاَّ يقطع أمراً دون استشارة الأمير أبو بكر ، وألاَّ يستأثر بشيءٍ دونه[3] وقد ظلَّ الأمير يوسف على اتصال بالأمير أبي بكر بن عمر حتىٰ وفاته ، يمده بالتحف والهدايا[4] .

---

(1) ابن عذاري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(2) انظر ص 95 من الكتاب .
(3) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 25 .
(4) ابن عذاري ، المصدر نفسه ص 29 .

توجّه الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحراء ، الولاية الأم ، لأنها أصل المرابطين ، ومقرّ الأمير الأكبر ، ليعمل على استمرار للتدفّق البشري من قبائل الملثمين عماد جيوش المرابطين[1] ، وقد وجه الأمير أبو بكر كل جهوده إلى التوسّع في بلاد السودان ، ونشر الإسلام بين قبائله ، وكان هدفه هذه المرة ، إمبراطورية غانة الوثنية .

كان معظم بلاد السودان في ذلك الوقت تحكمه إمبراطورية غانة التي تعتبر من أقدم ممالك غرب إفريقيا شمال نطاق الغابات ، والتي يرجع تاريخ نشأتها إلى الفترة ما بين القرن الثالث ، والرابع الميلادي[2] .

ويبدو أنَّ كلمة غانة ، كانت لقباً يطلق على ملوكهم ، ثم اتّسع مدلول هذا الاسم ، حتىٰ أصبح يطلق على العاصمة والإمبراطورية[3] .

وحكم هذه الإمبراطورية في أواخر القرن الثامن الميلادي (الأول الهجري) أسرة زنجية من السوننكي[4] ، وهم فرع من الماندنجو ، وبلغت

---

(1) د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرجع السابق .

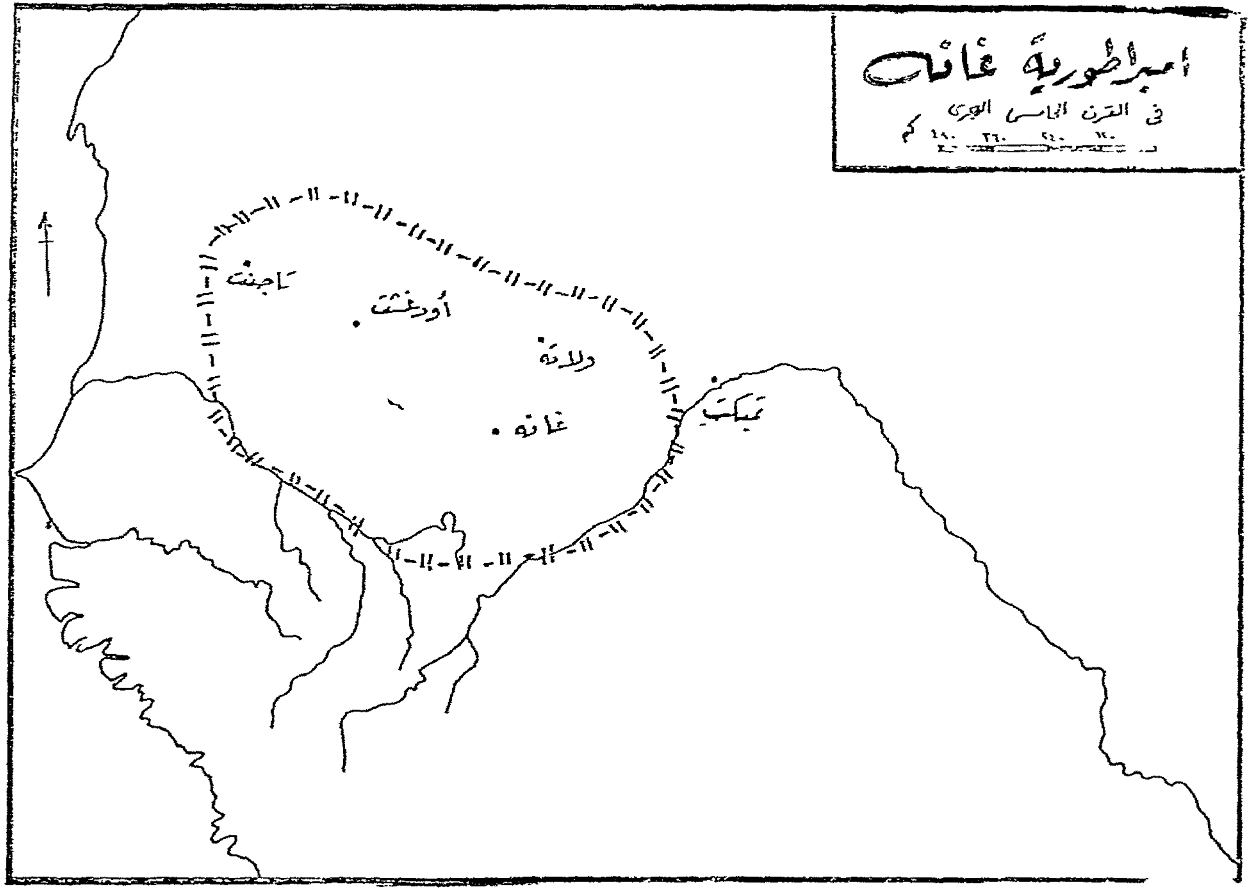
(2) Addison, Jhon, Ancient Africa, p.37.
Awe, Bolanle, Empires of Western Sudan, "Athousand years of West West African History" , p.53.
Julien, Ch. André, Histoire de l'Afrique, p.53 and
Mukarevsky, H., Afrique d'hier et d'aujourd'hui, p.57.

(3) يقول الدمشقي (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص 240) ، غانة سمة لملوكهم ، واسم البلد أوكار ، بينما يقول ياقوت الحموي (معجم البلدان جـ 3 ص 770) « وغانة كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركاً في العربية » .

عن إمبراطورية غانة راجع ابن الفقيه : كتاب البلدان ص 87 . المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 231 . القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ص 57 . الشريشي ، شرح مقامات الحريري جـ 2 ص 130 . د . إبراهيم طرخان ، إمبراطورية غانة الإسلامية .

(4) بلغ عدد ملوك هذه الأسرة 44 ملكاً ، 22 قبل بعثة النّبيّ عليه السلام ، 22 بعد البعثة .
كعت (القاضي الفع محمود كعت) : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص 42 . السعدي (عبد الرَّحمٰن بن عبد الله بن عامر) تاريخ السودان ص 95 .

خريطة رقم (5)



Montell, Viencent, L'Islam Noire, p.55.

غانة في عهدها ذروة مجدها ، فأصبحت تسيطر على المسافات الممتدة بين أعالي نهر السنغال وأعالي نهر النيجر ، فامتدَّ نفوذها إلى تنبكت شرقاً ، وبلاد التكرور أو السنغال غرباً ، وينابيع النيجر جنوباً ، وأغلب الصحراء الغربية[1] .

اعتمدت إمبراطورية غانة على التجارة كمصدر رئيسي في اقتصادياتها خاصة تجارة الذهب ، حتى صارت تعرف ببلاد الذهب ، وبأن أرضها كلها ذهب[2] ، وأصبح ملوك غانة من أغنىٰ ملوك الأرض ، وأيسرهم بما يملكون من الأموال والذهب[3] .

والواقع أنَّ إمبراطورية غانة لم تسيطر على المصادر الرئيسية للذهب في منطقة وانقارا ، ولكنها كانت تتحكَّم في الطرق المؤدِّية إليها ، كما أنها استطاعت أن تضم إليها بعض هذه المناجم خاصة مناجم غيارو(*) [4] .

وموقع غانة على الحدود الجنوبية للصحراء ، وفي أقصىٰ شمال منطقة الزنوج جعلها حلقة اتصال بين الشمال والجنوب ، وكان لتحكمها في الطرق المؤدِّية لهذه المناجم ، وما تفرض من ضرائب على الصادرات والواردات ، أثر في ثروتها ، حتىٰ أصبحت مدينة غانة العاصمة ، من أكبر أسواق بلاد السودان ، وكانت العاصمة عبارة عن مدينتين ، إحداهما يسكنها المسلمون ، والأخرىٰ يسكنها الملك[5] ، يصفها البكري بقوله : « ومدينة غانة ، مدينتان ،

---

(1) د . محتار العبادي ، الصفحات الأولىٰ من تاريخ المرابطين ، (مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية) مجلد 20 عام 1966 ص 77 ،

Bovill, E.W., op.cit, p.69 and
Julien, Ch. André, op.cit, p.53.

(2) ابن الفقيه ، المصدر السابق ص 87 . القزويني ، المصدر السابق ص 37 . ابن الوردي ، تاريخه ص 158 .

(3) ابن حوقل ، صورة الأرض ص 98 .

(*) غيارو تبعد عن العاصمة غانة مسيرة 18 يوماً . البكري ، المصدر السابق ص 177 .

(4) الإدريسي ، المصدر السابق ص 6 . صاحب الاستبصار ص 221 .

(5) الإدريسي ، المصدر السابق ص 9 . ابن الوردي ، المصدر السابق ص 258 . المقريزي ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ملوك الإسلام ص 93 .

سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون ، وهي مدينة كبيرة ، فيها اثنيّ عشر مسجداً ، أحدهما يجمعون فيه »[1] ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمّىٰ بالغابة ، والمساكن بينها متصلة ، ومبانيها بالحجارة ، وخشب السنط وللملك قصر ، وقباب ، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور ، وفي مدينة الملك مسجد يصلّي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك ، وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء ، يسكن فيها سحرتهم ، وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم[*] ، وقبور ملوكهم « وكان ملوك هذه الإمبراطورية ، وعامة شعبها يدينون بالوثنية » وديانتهم المجوسية ، وعبادة الدكاكير »[2] .

وقد استقرَّ بالعاصمة عدد كبير من التجّار المسلمين ، الذين تحكّموا في التجارة السودانية ، حتىٰ أصبح لهم نفوذ كبير في إمبراطورية غانة .

واشتهرت إمبراطورية غانة بقوة جيشها ، وكثرة عدده فيقول البكري : « فإذا احتفل ملك غانة ، ينتهي جيشه إلى مائتيّ ألف ، منهم رماة أزيد من أربعين ألف ، وخيل غانة قصار جداً »[3] ، ويستعملون الأسلحة المصنوعة من الحديد ، كالسيوف ، والحراب ، والرماح ، والخناجر فضلاً عن الأقواس ، والنشاب في الوقت الذي كان فيه جيرانها يحاربون بقضبان من الأبنوس[4] .

لم تكن العلاقة طيبة بين مملكة غانة ، وبين جيرانها من الملثمين في الشمال ، فقد كثرت المنازعات بينهما ، وحاول كل طرف أن يعتدي على أراضي الآخر ، وكثيراً ما استغلّت غانة تفرق شمل هذه القبائل ، كي تبسط نفوذها على هذه المنطقة .

---

(1) البكري ، المصدر السابق ص 175 .

(*) الدكاكير : الأصنام . البكري ، المصدر السابق ص 172 .

(2) البكري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، صاحب الاستبصار ص 60 .

(3) البكري ، المصدر السابق ص 177 . ابن الوردي ، المصدر السابق ص 60 .

(4) Bovill, E.W., op.cit, p.82 and

Shinnie, Margoret, Ancient African Kingdoms, p.47.

فكان الهدف الأساسي الذي كرّس له الأمير أبو بكر بن عمر جهوده هو الاستيلاء على غانة ، وإخضاعها للمرابطين ، لتكون لهم السيطرة على الطرق المؤدِّية إلى منابع الذهب في الجنوب هذه الطرق التي تسيطر عليها غانة .

من المؤسف أنَّ المصادر لزمت الصمت تجاه حملة الأمير أبي بكر بن عمر ، التي انتهت بسقوط غانة ، كما أنَّها لم تذكر أيّة تفاصيل عن جهاد الأمير أبي بكر خلال فترة الأربعة عشر عاماً والتي انتهت بسقوط إمبراطورية غانة عام 469 هـ ـ 1076 م . بل لقد أغفلت تماماً جهاد هذا الأمير في السودان ، ولم تذكر إلَّا سنة وفاته ، ويبدو أنَّ أحداث المغرب ومن بعدها جهاد المرابطين في الأندلس قد طغت على أحداث الجنوب ، فشغلوا بتدوين أحداث الأندلس ، لأنها كانت على ما يبدو أكثر أهمية في نظرهم ، فعنوا بذكر تفاصيلها ، وغفلوا عن أحداث السودان .

خرج الأمير أبو بكر بن عمر على رأس جيش من المرابطين ، وكان ابنه الأمير أبو يحيىٰ على رأس جيش آخر[1] ، وكانت وجهة الجيشان هذه المرة محددة ، إذ كان الهدف إمبراطورية غانة ، نفسها[2] تقدمت الجيوش المرابطية في أراضي إمبراطورية غانة ، تستولي على مدنها ، الواحدة تلو الأخرىٰ ، وكان الأمير أبو بكر يخيِّر أهل البلد المفتوحة ، إمَّا اعتناق الإسلام ، وإمَّا الحرب[3] ، وأخيراً ضاق الحصار على العاصمة غانة ، فسقطت في أيدي المرابطين عام 469 هـ ـ 1076 م[4] ، وقد قتل عدد كبير من السوننكي ، واعتنق بقية السكان الإسلام[5] .

---

(1) ذكر صاحب الحلل الموشية (ص 7) أنَّ أهل غانة أسلموا عام 469 هـ عند خروج الأمير يحيىٰ ابن الأمير أبي بكر ابن عمر إليهم .

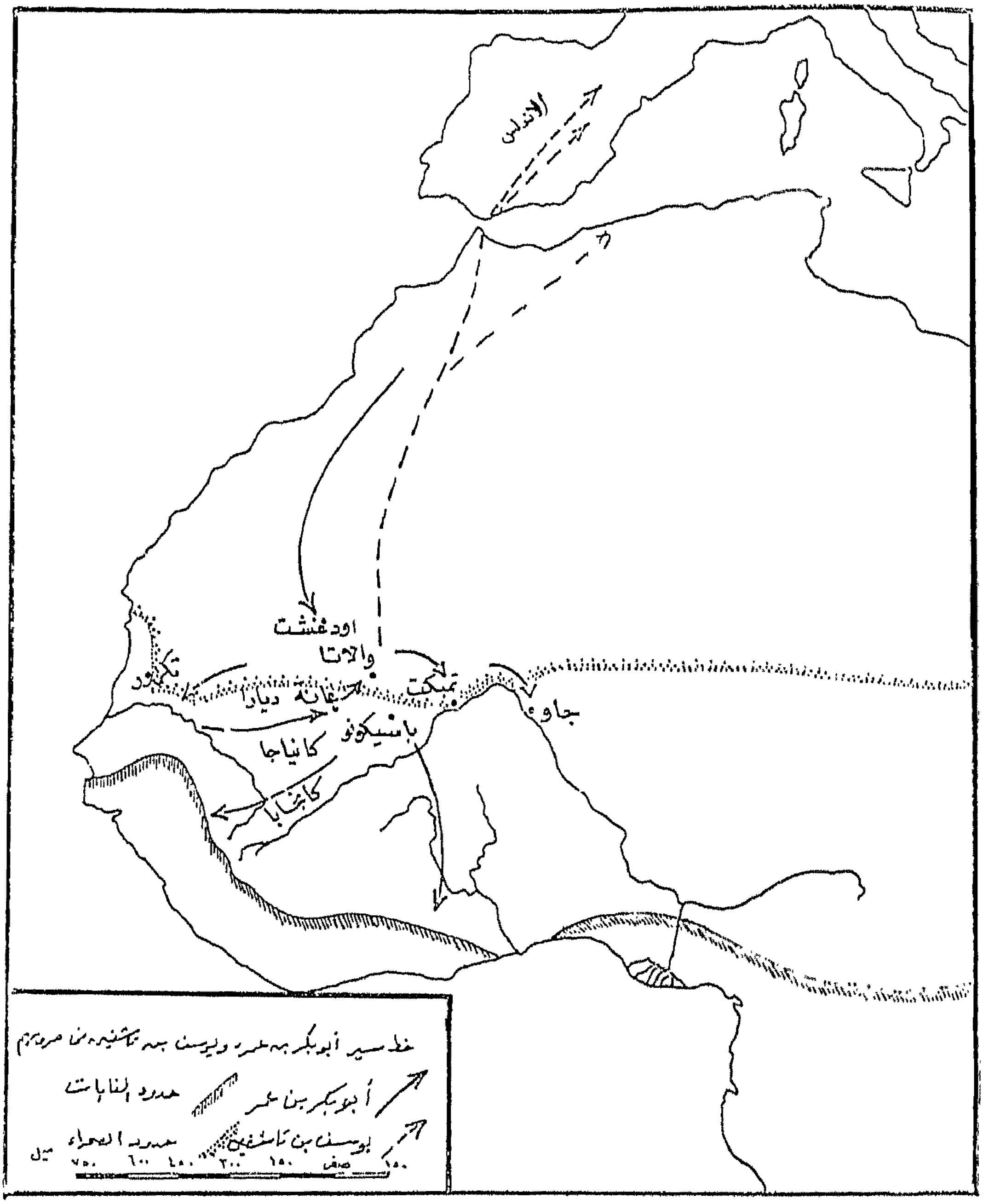
(2) Mukarovsky, H., op.cit, p.54.

(3) Julien, Ch., A., op.cit, p.64.

(4) الحلل الموشية ص 7 .

(5) Anta Diop, L'Afrique Noire Pre-Coloniale, p.69 and Awe, Bolanle, op.cit, p.61.

خريطة رقم (6)



Fage, J.D. An Atlas of African History, p.8.

وقد سمح الأمير أبو بكر لملك غانة أن يستمرّ في حكمه تابعاً للمرابطين ، وقد أصيب هذا الملك بضربة لم يفق منها بعد ذلك فقد فقَدَ قوته ، وقتل معظم رجاله المخلصين ، أثناء الهجوم على العاصمة[1] ، ومن المحتمل أن يكون هذا الملك قد اعتنق الإسلام ، وإلاَّ لما وافق الأمير أبو بكر على تركه يحكم غانة باسم المرابطين .

قام الأمير أبو بكر كعادة المرابطين بنشر بناء الرباطات وبناء المساجد ، فكثر عدد الداخلين في الإسلام ، وقد ترك الأمير أبو بكر أمر إمبراطورية غانة لابنه أبي يحيىٰ يتابع نشر الإسلام بها ، يقول صاحب الحلل الموشية : « وأسلم أهل غانة وحسن إسلامهم عند خروج الأمير أبي يحيىٰ بن الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني إليهم »[2] .

تابع الأمير أبو بكر فتح بلاد السودان حتىٰ وصل إلى بلاد وانقارة حيث مناجم الذهب ، ويذكر ابن أبي زرع ما وصل إليه الأمير أبي بكر من سلطان بقوله : « استقام له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان »[3] ، فحمل الكثير من أهل هذه البلاد على الإسلام ، فدانوا له ، وأخلصوا في نشر الدعوة الإسلامية[4] .

أدَّىٰ نجاح أبو بكر هذا إلى السيطرة على حقول الذهب الغنية ، أهم مصادر الثروة في السودان في ذلك الوقت[5] ، كما ازدادت هجرات قبائل

---

(1) Addison, John, op.cit, p.45.

(2) الحلل الموشية ص 7 .

(3) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 136 . د . حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام والعروبة ص 56 .

(1) الناصري ، المرجع السابق ص 100 .

(5) الناصري ، المرجع السابق ص 100 . د . عبد الرَّحمٰن زكي ، الإسلام والمسلمين في غرب إفريقيا ص 83 ،

Bovill, E.W., op.cit, p.84 and
Hunwich, J.O., Islam in West Africa, p.118.

المـرابطين إلى تلك الأنحـاء ، فأدّىٰ ذلـك إلى اختلاط هـذه القبائـل بـأهـل المنطقة ، وازداد بالتالي عـدد الداخلين في الإسـلام ، أمَّا الشعـوب التي لم تقبل الدخول في الإسلام ، فقد فرَّت إلى الجنوب أو الغرب[1] .

وبينما كان الأمير أبو بكر يصلّي ، سدَّد إليـه أحد الجنـود السود سهمـاً مسموماً ، أرداه قتيلاً في عام 480 هـ[2] ـ 1087 م ، فقد أرسل أحد زعماء قبائل الموسىٰ بداهومي الجنوبية ، بعض أتباعه إلى منطقة التكانت ومعه السحرة ، والأدلّاء ، لاغتيال زعيم المرابـطين ، الذي أتىٰ بعقيـدة تسخر من السحـر ، وقوىٰ الطبيعة التي كانوا يعبدونها ، ووصل الشخص الموكل إليه اغتيال الزعيم إلى حيث كـان الأمير أبـوبكر بن عمـر يصلّي ، بمكان يـدعى المقاسم(*)، وسـدَّد إلى ظهره سهماً مسموماً فأرداه شهيداً[3] .

وقد أثارت هذه الحادثة ثائرة القبائل السودانية ، التي كانت قـد دخلت في الإسلام ، على يد هذا الأمير المرابطي ، فقامت تطالب بدمه ، واشترطت أن تفقـأ عيني جميع أولاد زعيم قبيلة المـوسىٰ ، ولكن هذا الشـرط لم تقبله

---

(1) د . حسن أحمد محمود ، المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين (المجلة التاريخية المصرية) مجلد 12 عام 64 ، 1965 ص 166 ، د . عبد الرَّحمٰن زكي ، المرجع السابق ص 83 .

(2) ذكر صاحب الحلل الموشية (ص 16) أنَّ وفاة أبو بكر كانت عام 469 هـ (1076 م) بينما ذكر ابن عذاري (البيان المغرب جـ 4 ص 26) أنَّ وفاتـه كانت عـام 468 هـ (1075 م) . وذكر النويري (نهاية الإرب جـ 22 ص 154) أنها كانت عـام 462 هـ (1069 م) بينما اتَّفق بعض المؤرِّخين على أنَّ وفـاة الأميـر أبي بكـر كـانت عـام 480 هـ (1087 م) منهم ابن أبي زرع (روض القـرطاس ص 136 ، ابن خلدون (العبـر جـ 6 ص 377) ، الناصـري (الاستقصـا جـ 2 ص 24) ، د . حسن أحمـد محمود (قيـام دولة المـرابطين ص 225) ، د . إبـراهيم طوقان (إمبراطورية غانة الإسلامية ص 47) واتَّفق معهم بعض المؤرِّخين الأجانب منهم :

Anta Diop, op.cit, p.69 and Trimingham, op. cit, p.29.

وأنا أرجِّح عام 480 وذلك لأنَّ السكة استمرَّت تضرب باسم أبي بكر إلى سنة 480 هـ .

(*) المقاسم تقع على بعد 55 كم من مدينـة تدجكجـة Tidjkdja عاصمـة التكانت محمـد أحمد المغربي ، المرجع السابق ص 92 . انظر خريطة رقم 4 ص 101 .

(3) محمد أحمد المغربي ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

زعيمة قبائل الداهومي فاشتعلت الحرب بين الوثنيين والمسلمين ، ولم تلبث القبائل التي حالفت قبيلة السراكولا المسلمة ، المطالبة بدم الأمير أبي بكر أن اعتنقت هي الأخرىٰ الإسلام ، وأصبحت قوة جديدة للإسلام بإفريقيا الغربية ، فكانت حادثة مقتل الأمير أبي بكر بن عمر في حد ذاتها قوة أخرىٰ أذكت تيار الإسلام بين قبائل المنطقة[1] .

(1) المرجع السابق ص ص 92 ، 93 .

الفصل الرابع

اوضاع المنطقة في عهد يوسف بن تاشفين وولده علي

* * *

تحرّك الأمير إبراهيم بن أبي بكر مطالباً بملك أبيه - تدهور الموقف في الجنوب - استغلال غانة - انفصال دياراً وكانياجا عن غانة - استيلاء قبيلة الصوّ على حكم كانياجا - سيطرة الجيوش المرابطية على الموقف - التوسّع في نشر الإسلام في السودان - إسلام حكام كانجابا - إنشاء المراكز الثقافية - إسلام ملك صنغىٰ زاكاسي - وفاة يوسف بن تاشفين - استمرار الجهاد في عهد علي بن يوسف - الاتجاه إلى جبهة الأندلس - التأثّر بالأندلسيين - ازدياد نفوذ الفقهاء - ظهور الخلل في الدولة - ظهور المهدي بن تومرت - تمرّد قبيلتيّ مسوفة وجدالة - زيادة أعباء الدولة - تسلّط النساء - استقلال غانة - توسّع مملكة الصوصو - توسّع مملكة مالي .

* * *

أوضاع المنطقة في عهد يوسف بن تاشفين

استشهد الأمير أبو بكر بن عمر ، في أحرج الأوقات بالنسبة لدولة المرابطين ، إذ كان نائبه الأمير يوسف بن تاشفين ، بعد أن أتمّ ضمّ المغرب إلى دولة المرابطين ، قد اتّجه إلى الجهاد في جبهة الأندلس بعد أن استنجد به أمراؤها ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد[1] ، صاحب إشبيلية ، لنصرة الأندلس ممّا أصابها من التخريب والتدمير ، على يد ألفونس السادس[2] . فلبّى الأمير يوسف بن تاشفين نداء الجهاد ، وأرسل إلى الصحراء في طلب الإمداد « فقدمت عليه الوفود ، وأتاه من بلاد الصحراء ، والقبلة ، والزاب القبائل والحشود »[3] .

---

(1) هو المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن عباد أحد ملوك الطوائف ، ملك إشبيلية وقرطبة . ابن خاقان ، قلائد العقيان ص ص 4 ، 6 . عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ص 154 ، 193 . ابن الخطيب ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، القسم الثاني ـ نشر ليفي بروفنسال ص ص 157 ، 170 .

(2) ألفونس السادس (« الأذفونش » ، أو الفنش في بعض المصادر) ملك ليون وقشتالة (1065 ـ 1109 م) (458 هـ ـ 503 هـ) تزعم الحركة المسيحية لمطاردة المسلمين من الأندلس . الحلل الموشية ص 22 . ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام ص 238 . ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص 143 .

(3) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 144 .

واستطاعت جيوش المرابطين أن تنتصر بقيادة يوسف بن تاشفين على العدو[1] في موقعة الزلاقة في رجب سنة 479 هـ[2] ـ 23 أكتوبر سنة 1086 م ، وكان انتصار المسلمين في هذه الموقعة عظيماً ، واستقرّت هيبة الملثمين في نظر أهل الأندلس من المسلمين والنصارىٰ على السواء[3] .

وكان من الممكن أن يتابع الأمير يوسف بن تاشفين جهاده في بلاد الأندلس ، ويطارد فلول المسيحيين ، لولا وصول خبر وفاة ولده ، وولي عهده أبي بكر ، وكان قد تركه مريضاً بسبتة ، فأسرع بالعودة إلى مراكش[4] ، خوفاً من اضطراب الأمر بموته ، ويبدو أنه حدثت بعض الاضطرابات من بعض الأمراء بالمغرب الذين انتهزوا فرصة غيبة يوسف بن تاشفين وموت وليّ عهده ، ويبدو ذلك ممّا ذكره ابن أبي زرع من أنّ يوسف بن تاشفين ، خرج في ربيع الآخر سنة 480 هـ ـ 1086 م ، يطوف على بلاد المغرب ، ويتفقّد أحوال الرعيّة ، وينظر في أمور المسلمين ، ويسأل عن سير عماله في البلاد ، وقضاته[5] .

ويرىٰ الدكتور حسن أحمد محمود أنّ عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى

---

(1) المقصود بالروم هنا الممالك المسيحية في الأندلس .

(2) سمّيت بالزلاقة لأنها جرت بمكان يسمّىٰ بهذا الاسم ، وتسميه المصادر المسيحية ساكرا لياس Sacralias ، ويُعرف اليوم باسم ساجراجاس Sagrajas بالقرب من مدينة بطليوس .
عن معركة الزلاقة انظر :
عبد الله بربلكين (الأمير) البيان عن الحادثة الكائنة ص ص 104 ، 110 . الحلل الموشية ص ص 37 ـ 47 عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ص ص 130 — 135 . الحميري ، الروض ، إمارة الزلاقة . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ص 144 — 149 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 383 . د . حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ص ص 275 — 286 .

(3) يقول الأمير عبد الله بن بلكين أمير غرناطة (المصدر السابق ص 110) : « إنّ الروم أشربوا منذ تلك الوقعة خوفاً وانكماشاً » .

(4) الحلل الموشية ص 47 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 152 .

(5) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

المغرب إنَّما كـانت بسبب موت الأميـر أبو بكـر بن عمر ، وليس أبـو بكر بن يوسف بن تاشفين[1] . ولكنَّ موقعة الزلاقة كانت في رجب 479 هـ ، واستشهاد الأمير أبو بكر بن عمر كان في شعبان سنة 480 هـ ، فكانت سرعة عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب ، إنَّما كـانت بسبب وفاة ابنـه فعلاً ، وخـوف يوسف بن تاشفين من تحرك بعض أمراء المرابطين ، خاصة الأمير أبو بكر بن عمر نفسه ، ويدلُّ على ذلك أنَّ يوسف لم يجز إلى الأندلس ، جوازه الثـاني لمواصلة الجهاد . إلَّا في سنة 481 هـ ـ 1088 م ، أي بعد وفاة الأمير أبو بكر بن عمر ، واستتباب الأوضاع بالنسبة للأمير يوسف بن تاشفين نفسه[2] .

كانت أولىٰ المشاكل التي قابلت يوسف بن تاشفين بعد وفاة الأميـر أبو بكر بن عمر ، تحرك الأمير إبـراهيم بن أبي بكر بن عمـر إلى الشمال ، فقـد وصل من الصحراء ، يطلب ملك أبيه ، ونزل بخارج أغمات في جموع كبيرة من لمتونة ، فلمَّـا سمع الأميـر يوسف بن تـاشفين بذلـك ، بعث إليه الأميـر مزدلي[3] وكان حسن السياسة ، فهـدن الأمير إبـراهيم بن أبي بكر ، ونصحـه بقوله : « إنَّ الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله تعالىٰ قد خصَّ هذا الـرجل بالملك دوننا ، فإن كنت عاقلاً ، فاطلب منه (يوسف بن تاشفين) أن يعينك بمال ، وخيل ترجع بها إلى بلدك ، وإن طلبت غير هـذا ، أخاف أن يجعـل على رجلك قيداً ، ويحبسك عنده عبداً ، وما قلت لك ذلك إلَّا بوجه الشفقة عليك »[4] . وقد اقتنع الأمير إبراهيم بن أبي بكر بهـذه النصيحة التي تتضمَّن

---

(1) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 286 .

(2) عبـد الله بن بلكين ، المصـدر السـابق ص 110 ، الحلل المـوشيـة ص 46 . ابن عـذاري ، المصدر السابق ص 42 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 152 . ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقيا والمغرب ص 105 . د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق 285 .

(3) الأمير مزدلي هو ابن عم الأمير يوسف بن تاشفين ، قدمه يوسف على رأس جيش كبير توجّه إلى مدينة تلمسان ، واستولىٰ عليها دون قتال ، وكان يوسف بن تـاشفين يعتمد عليـه في كثير من الأعمال ، وكان حسن السياسة ، صحيح المذهب ، عارفاً بخدمة الملوك .

ابن عذاري ، المصدر السابق ص 29 .

(4) ابن عذاري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

في طيّاتها التهديد ، باستعمال القوة ، فآثر إبراهيم بن أبي بكر عدم الدخول في صراع مع الأمير يوسف بن تاشفين ، خوفاً من قوة يوسف ، ولذا آثر السلامية والتمس بعض المساعدات المالية ، يدلُّ على ذلك حديثه مع الأمير مزدلي إذ قال له : « عسىٰ أن تجتمع معه (يوسف بن تاشفين) في أمري ، وتبيِّن له حالي »[1] ، ممَّا جعل الأمير مزدلي يحسّ أنَّ حركة الأمير إبراهيم بن أبي بكر ، يمكن حلّها بتقديم المال والهدايا إليه ، وأنها ليست من القوة بحيث تقف في وجه يوسف بن تاشفين ، فطلب منه الانتظار في موضعه ، حتىٰ يبلِّغ يوسف بن تاشفين ، ويأتيه بما يرضيه ، واستطاع الأمير مزدلي أن يحصل له على مال ، وخيل ، وكسىٰ ، وغير ذلك من الهدايا ، وانصرف الأمير إبراهيم إلى الصحراء ، وبقي بها حتىٰ مات دون أن يجتمع بالأمير يوسف[2] .

ويبدو أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين ، كان يدرك عدم خطورة إبراهيم ، فلم يحرص على لقائه ، كما فعل مع أبيه الأمير أبو بكر بن عمر من قبل ، ورأىٰ أنه من الأوفق استمالته بالمال ، والاعتماد عليه في الصحراء .

ولم تكن مشكلة تحرّك الأمير إبراهيم بن أبي بكر هي الوحيدة التي قابلت يوسف بن تاشفين ، بعد عودته من الأندلس ، فقد انتهزت بلاد السودان فرصة استشهاد الأمير أبو بكر بن عمر ، واضطراب الجيوش المرابطية هناك ، بعد موت قائدها ، وترك الأمير إبراهيم الصحراء إلى أغمات فأعلنت غانة استقلالها ، وانفصالها عن الدولة المرابطية ، ونقضت تبعيتها لها[3] .

وفي نفس الوقت استطاعت بعض الولايات التي كانت تابعة لإمبراطورية

---

(1) ابن عذاري ، المصدر السابق ص 30 .

(2) ابن عذاري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(3) Addison, John, Ancient Africa, p.45,
Awe, Bolanle, Empires of Western Sudan, p.615,
Cardot, Véra, Belles pages de l'histoire Africaine, p.24,
Fage, J.D., An introduction to the history of West Africa, p.21 and
Julien, Ch. André, Histoire de l'Afrique, p.54.

غانة أن تنفصل هي الأخرىٰ عنها ، وتستقلّ في حكمها ، وكانت أولاها مملكة أنبارة Anbara ، ثمّ تبعتها ولايات ديارا Diara ، وكانياجا Kaniaga ، وأصبحت ممالك مستقلة ، بينما أصبحت سلطة ملوك سوننكي غـانة ، لا تتعـدّىٰ أوكار Aukar ، والباسيكونو Bassikunu[1] .

وقد لعب الفولاني المهاجرون من مملكة التكرور دوراً كبيراً في تكوين الأسرة الحاكمة في كانياجا المستقلة ، إذ استطاع بعض أفراد من قبيلة الصـو Su ، إحدىٰ قبائل الفولاني ، أن تستـولي على مقاليـد الحكم في كانيـاجا ، وتعلن تكـوين مملكة كـانياجـا ، التي أخذت تتـوسّع ، وتستـولي على بعض المناطق المجاورة لها ، حتىٰ استطاعت أن تضمّ إليهـا ولاية ديـارا Diara في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، وأطلقت على أملاكها هذه اسم إمبراطورية الصوصو Susu[2] .

وكـان لهذه الأحـداث في الجنوب أصـداؤها في الشمـال ، فترك أميـر المسلمين يوسف بن تاشفين أمـر الأندلس لبعض الـوقت ، حتىٰ يستطيـع أن يُعيـد إلى المغـرب والسـودان استقـراره ، ويقضي على هــذه الحـركـات الانفصالية ، فقد كان حريصاً على استمرار تدفّق الملثمين ، من الجنـوب ، وهذا لا يتأتّىٰ إلاّ إذا كان الجنوب بما فيه السودان في حالـة استقرار ، وعلى هذا أرسل الأمير يوسف بن تاشفين الجيوش لتـأديب العصاة ، وإعـادة الأمور إلى نصـابها ، وقـد نجحت الجيوش المـرابطيـة في إخماد هـذه الثـورات ، والقضاء على زعماء الفتنة ، أو المتمرّدين من الأهالي[3] .

---

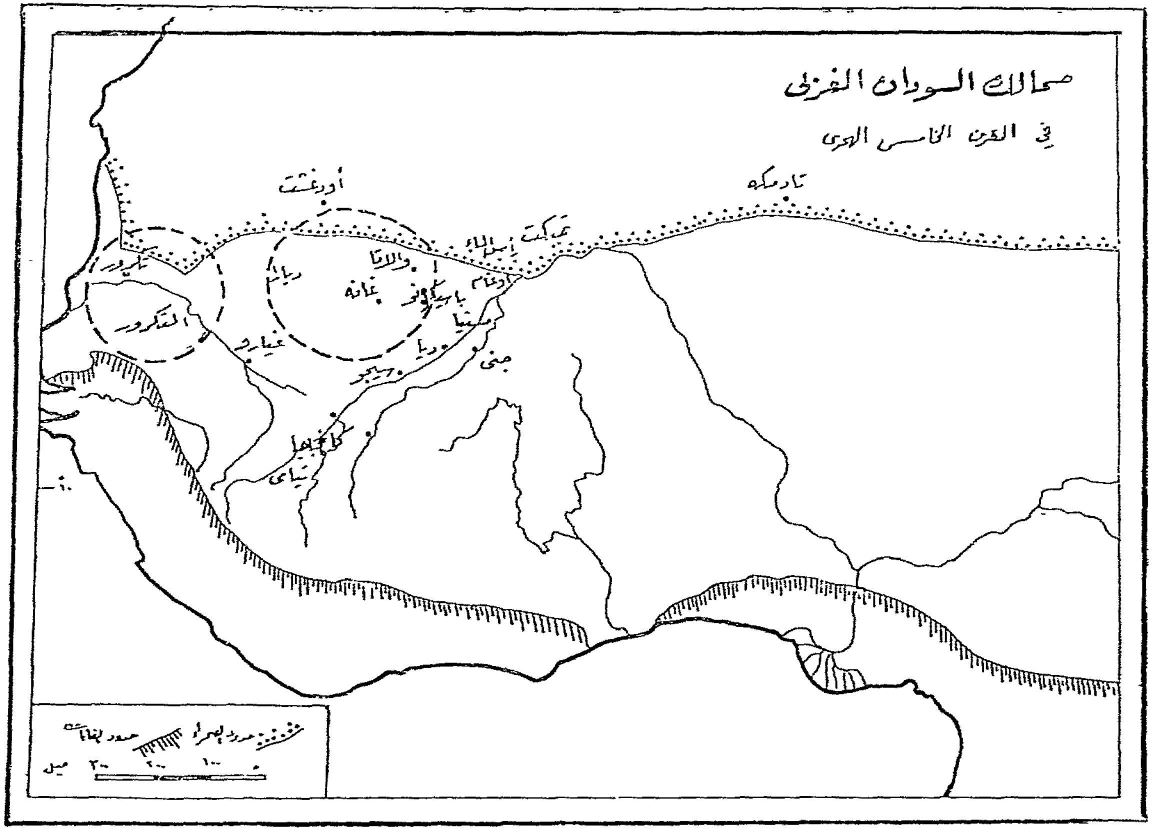
(1) Cornevin, Robert, Histoire de l'Afrique de origines au XVI siécle, Tome I, p.347 and

Fage, J.D., op.cit, p.27. — انظر خريطة رقم 7 ص 129

(2) Cornevin, Robert, op.cit, p.347 and
Anta Diop, L'Afrique Noire Pre-Colonial, p.69.

(3) Cornevin, Robert, op.cit, p.347and
Fage, J.D., op.cit, p.27.

خريطة رقم (7)



Fage, J.D., An Atlas of African History, p.18.

وبـذلك عـاد الهدوء مـرة أخرىٰ إلى الصحـراء ، ورجعت غانـة لتبعية المرابطين ، ويظهر ذلك من الرسالة التي حملها القاضي أبو محمد بن العربي المعافري وابنه أبو بكر الأندلسي قـاضي إشبيلية ، إلى الخليفـة العباسي في بغداد ، إذ أنه أشـار إلى أنَّ سلطان يوسف بن تـاشفين قد امتـدَّ إلى الجنوب « ممَّا يلي بلاد غانة ، وهي بلاد معادن الذهب »[1] .

وأشار صاحب كتاب الاستبصار إلى أنَّه وقع في يده كتاب موجّه من ملك غانة إلى الأمير يوسف بن تاشفين ، ومع أنه لم يشر إلى مضمون هذا الكتاب إلَّا أنه يدلُّ على استمرار صلة غانة بالمرابطين[2] .

كمـا أنَّ الأمير يحيىٰ بن أبي بكـر بن عمر ، كـان موجـوداً في منطقـة السودان يجاهد هناك كما أشار صاحب الحلل الموشية ، ولم يذكـر شيئاً عن موت هذا الأميـر[3] ، ممَّا يـرجِّح أنـه كان حيّـاً في ذلك الـوقت ، ولم ينقصه لإخماد هذه الثورات إلَّا المال والإمـداد ، وهذا مـا حصل عليـه أخوه الأميـر إبراهيم من الأمير يوسف بن تاشفين ، وممَّا يرجح هذا الرأي أيضاً سرعة عودة إبـراهيم بن أبي بكر إلى الصحـراء ، واقتناعـه السريـع بكلام الأميـر مـزدلي بالعودة[4] .

لم تكن ثـورات السودان ردّة عن الإسـلام ، وإنَّما يبـدو أنها رغبـة في الاستقـلال السياسي ، بـدليل أنـه بعد سقـوط إمبراطـورية غـانة وإضعـافهـ سياسياً وعسكرياً ، ازداد عدد الداخلين في الإسلام ، وقامت غانة بـدور كبير في نشر العقيدة الإسلامية في منطقة السودان الغربي ، حتىٰ اشتهـر عن أهل غانة ، وأغلبهم من السوننكي ، حماسهم لـلإسلام ، إذ كـانت هذه العقيـدة

---

(1) رحلة أبو بكر المعافري الأندلسي ورقة 128 .

(2) صاحب الاستبصار ص 215 .

(3) كان يُعرف باسم ابن عايشة وبعد مبايعته الأمير علي بن يوسف بن تاشفين عيَّنه والياً على فاس . الحلل الموشية ص 7 . ابن عذاري ، م . س . ص ص 17 ، 48 .

(4) الفصل الثالث ، ص 115 ، الفصل الرابع ص ص 126 ، 127 .

ذات أثر عميق في حياتهم الاجتماعية[1] .

وقد تحدَّث ابن سعيد عن إسلام ملك غانة ، وتحمّسه لنشر الإسلام فقال : « وهو كثير الجهاد للكفار ، وبذلك عرف بيته »[2] . واستمرَّت هذه الحماسة الدينية حتىٰ بعد استقلالها عن سيادة المرابطين ، فانتشر الإسلام بين أهل هذه البلاد ، وكثرت المدارس[3] .

ويبدو أنَّ ذلك كان نتيجة للدفعة القوية التي قام بها المرابطون في نشر الإسلام ، وجهادهم للوثنيين ، بدليل أنها تركت في تاريخ الإسلام في المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر ، وعلى ضفاف هذين النهرين آثاراً عميقة[4] .

وتمخَّضت جهود المرابطين عن إسلام شعب التكرور ، الذي كان أول الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام ، في حركة المرابطين الأولىٰ ، في أيام الشيخ عبد الله بن ياسين ، فعمل التكرور بدورهم على متابعة الدعوة إلى هذا الدين ، وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولوف ، والفولبي ، والماندنجو ، ونشروا المدارس الإسلامية في السودان الغربي فاستوعبت هذه القبائل الإسلام ، وأخذوا من حضارة المغرب ، وتأثّروا بالشريعة الإسلامية ، واستعانوا بالدعاة[5] من المرابطين في بلاطهم ، لتعليمهم الشريعة والقراءة والكتابة ، حتىٰ أنهم قلّدوهم في ملابسهم[6] .

وفي موجة اندفاع المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين ، وجهودهم في نشر الإسلام ، في منتصف القرن الحادي عشر (السادس الهجري) اعتنق حكّام ولاية كانجابا Kangaba من الماندنجو الإسلام ، وأخذوا يتوسّعون ،

---

(1) Trimingham, J.S., Islam in West Africa, p.13.

(2) ابن سعيد ، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ص 26 .

(3) الشريشي ، شرح مقامات الحريري جـ 2 ص 130 .

(4) André, p., L'Islam Noire, p.28.

(5) الفصل الخامس ص ص 176 — 185 .

(6) Mahoney, E. and Idown, H.O., The peoples of Senegambia, pp. 135 - 136.

ويمدّون نفوذهم إلى الجنوب ، وإلى الجنوب الشرقي ، فتكوّنت بعد ذلك من هذه الأراضي إمبراطورية مالي[1] .

وانتشر سوننكي غانة الذين اعتنقوا الإسلام في اتجاه ديارا Diara ، وغلم Galam ، ومسينا Masina ، واتّجهوا خاصة إلى ديّا Dya ، ومن ديّا تحركت مجموعات من الديولا Dyula الذين حملوا الإسلام إلى الحدود الشمالية لمنطقة الغابات ، وهناك أنشأوا مراكز إسلامية مثل بيجو Bégo ، بالقرب من جنوب نهر الفولتا الأسود ، ومن هناك انتشرت المدن التجارية مثل بوندونكو Bondunku ، والكونج Kong[2] .

وكان من نتيجة هذه الحركة الواسعة الشاملة ، والجهود الكبيرة التي قام بها المرابطين ، والقبائل الزنجية التابعة لهم ، أن أصبح الإسلام يمتد من المحيط غرباً ، إلى كانم وبورنو شرقاً ، ثم انضمّت إلى الركب الإسلامي مملكة صنغاي ، وكان أول ملك اعتنق الإسلام في هذه المملكة يسمّىٰ زاكاسي Za Kassi ، وهو الملك الخامس عشر من أسرة زا Za من قبيلة لمطة إحدىٰ قبائل الملثمين ، وقد أسلم في سنة 400 هـ ـ (1009 م ـ 1010 م) ، أي قبل حركة المرابطين بفترة قصيرة ، وقد اصطلح على تسميته في لغة الصنغاي باسم مسلم دام .Muslim Dam ويدلّ هذا الاسم على أنه دان للإسلام بمحض إرادته ، وليس عن طريق القوة[3] ، وازداد عدد الداخلين في الإسلام في مملكة صنغاي ، في أثناء حركة جهاد المرابطين الكبرىٰ في عهد الأمير أبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ، وفي نفس الوقت اعتنق حكّام مملكة الكانم والبورنو الإسلام[4] ، ولم تأتِ سنة 496 هـ ـ 1102 م ، حتىٰ كان حكم

---

(1) Davedson, Basil, Africa in History, p.82 and
Fage, J.D., op.cit, p.24.

(2) Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa, p. 60.

(3) السعدي ، تاريخ السودان ص 3 .

(4) Lewis, J.M., Regional review of distribution of Islam, p.18.

المرابطين يمتد من السنغال حتىٰ الأبرو[1] .

لم يتمتّع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بثمرة هذه الانتصارات فقد أصابته العلّة في سنة 498 هـ ـ 1104 م . فلم يزل مرضه يشتدّ حتىٰ توفي في مستهل سنة 500 هـ ـ 1106 م[2] ، ودفن بقبر بسيط في حاضرة ملكه .

كان يوسف بن تاشفين الرمز الحيّ لمبادىء عبد الله بن ياسين ، كما مثّلها في رباطه ، فقد حمل لواء الجهاد الذي رفع في الرباط ، في مطلع شبابه ثمّ في أودغشت ، وعند ضفاف السنغال والنيجر ، ثم في أرجاء المغرب من الجنوب إلى الشمال ، ومن غربيه إلى شرقيه ، فقد استطاع يوسف بن تاشفين أن يصنع وحدة امتدّت من السودان الغربي إلى الأندلس ، حتىٰ خطب له على أكثر من ألفيّ منبر[3] . وكان ابن تاشفين دائم التفقّد لعماله ورعيّته ، محباً للفقهاء ، والعلماء مقرّباً لهم ، يستمع لرأيهم ؛ فأجرىٰ عليهم الأرزاق من بيت المال طول أيامه ، وكان يشجّع بناء المساجد ، ويأمر بتشييدها في جميع البلاد[4] ، إذ كان يدرك أهميتها ليس فقط كبيوت للعبادة ، ولكن أيضاً كمدارس ، لتعليم القرآن والشريعة ، وأصول الدين .

---

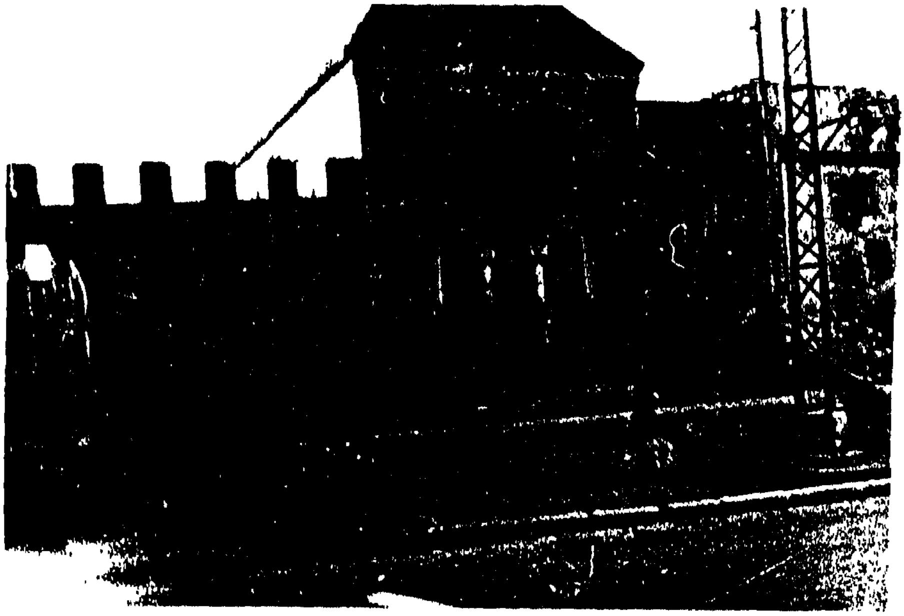
(1) نهر في شمال إسبانيا .

(2) ذكر عبد الواحد المراكشي (المعجب ص 170) أنّ يوسف بن تاشفين توفي سنة 493 هـ (1093 م) بينما اتّفق المؤرّخون على أنّ وفاته كانت سنة 500 هـ (1106 م) ابن عذاري (البيان المغرب جـ 4 ص 45) ، الحلل الموشية ص 60 . ابن أبي زرع (روض القرطاس ص 156) . ابن الخطيب (القسم الثالث من أعمال الأعلام ص 252) . ابن خلدون (العبر جـ 6 ص 386) ، ابن خلّكان (وفيات الأعيان جـ 7 ترجمة 518 ص 125) .

ابن الأثير (الكامل جـ 8 ص 236) ، ابن أبي دينار (المؤنس ص 105) ، الناصري (الاستقصا جـ 2 ص 57) .

(3) أبو بكر المعافري ، الرحلة ورقة 228 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 136 . انظر خريطة رقم ٦ ص 115 .

(4) الحلل الموشية ص 59 . ابن أبي عذاري ، المصدر السابق ص 46 . .ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ص 137 ، 141 .



واجهة قبر يوسف بن تاشفين من مراكش

مشاهدات الباحثة بالمغرب



قبر يوسف بن تاشفين من الداخل

المنطقة في عهد علي بن يوسف بن تاشفين

ترك يوسف بن تاشفين لابنه علي بعد وفاته إمبراطورية هائلة ، ولم يكن علي بن يوسف قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، ورغم ذلك اجتمعت عليه الدولة المرابطية[1] . ويقول ابن أبي زرع : « وملك من البلاد ما لم يملكه والده ، لأنه وجد البلاد هادئة ، والأموال وافرة ، والملك قد توطّأ ، والأمور قد استقامت »[2] .

سار الأمير علي بن يوسف على سنة أبيه ، في نشر الإسلام ، والجهاد في سبيل الله ، وحماية البلاد ، وضبط الثغور ، وموالاة الجهاد[3] .

وكان لا بدَّ للمحافظة على هذه الدولة المترامية الأطراف من جيش نظامي من الطراز الأول ، وقوات متحركة تجمع حولها فرق المجاهدين في إسبانيا ضد المسيحيين ، وتحافظ على الأراضي المغربية ، وتحبط أدنىٰ محاولة للثورة ، ولم تكن منطقة سهول الأطلس تشكّل خطراً ، فقد استطاعت قوات الملثمين أن تنقض على هذه السهول ، وتلزمها الهدوء والطاعة ، إذا قامت بأيّة شغب . أمّا منطقة الجبال فكانت على النقيض من ذلك ، إذ كانت مصدراً للقلاقل ، لأنَّ المغامرين كانوا يجدون فيها مأوىً حصيناً ، ويبدو أنَّ

---

(1) لم يكن من عادة المرابطين احترام حق الابن الأكبر في المناداة به وليّاً للعهد ، ويوسف بن تاشفين نفسه لم يحترم هذا الحق عندما ولي الحكم بعد ابن عمه أبا بكر بن عمر الأمير اللمتوني ، ولم يحترم حق إبراهيم بن أبي بكر عندما طلب ملك أبيه ، كما أنَّ يوسف لم يتقيّد بتولية ابنه الأكبر ، فعيّن علياً خلفاً له ، مع أنه كان أصغر سناً ، من ولديه تميم الولد الأكبر ، والمعزّ بالله ولده من زينب .

الحلل الموشية ص ص 61 ، 71 ، 90 ، 97 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ص 157 ، 165 . ابن خلدون ، المصدر السابق ص 388 . هويس ميراندا : عليّ بن يوسف وأعماله في الأندلس (مجلة تطوان) سنة 58 ، 1959 ، العدد 3 ، 4 ، ص 155 .

(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 157 .

(3) عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ص 171 . ابن أبي زرع المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

المرابطين قد مارسوا في الأطلس سياسة تختلف عن السياسة التي اتّبعوها في أرجاء الدولـة ، إذ يبدو أنهم قـد هادنـوا قبائله ، ومنحـوا الرؤسـاء المحليين « الأمغارن »[1] نفوذاً كبيراً ، وسلطة عظيمة ، فهم مسؤولون عن أقوامهم أمام أمير المرابطين نفسه ، كما أنهم مكلفون بالبطش بـأيّة ثـورة في غير هـوادة . وتتجلّىٰ هذه السياسة في الوصية التي أوصىٰ بها يوسف بن تاشفين ابنـه علي بشـأن أهل الأطلس ، فـأوصاه « ألاّ يهيـج أهـل جبـل درن ، ومن ورائـه من المصامدة ، وأهل القبلة »[2] .

وكأنّ يوسف بن تاشفين كان يحسّ بأنّه سيخرج من جبال الأطلس جنوب مراكش فاتحون جدد ، يقضون على الدولة المرابطية .

أولىٰ الأمير علي بن يوسف جبهة الأندلس عناية خاصة ، فقد وجد في هذه الجبهة ، مـا يجدّد سنّـة المسلمين الأوائل ، لـذلك وضـع منذ اعتـلائه العرش برنامجاً سياسياً مرسوماً للجهاد في جبهة الأندلس[3] .

وتعتبر فترة حكم الأمير علي بن يوسف شاهداً على الصبغة الأندلسية ، الشديدة ، في إمبراطورية المرابطين ، فإنّ الأندلس في ذلك الوقت لم تؤثّر في مراكش من عدة نواحٍ فحسب ، وإنّما قصد مراكش عدد كبير من الأندلسيين ليقيموا في عاصمة الأمير ، وقد أمدنا المؤرّخ عبد الواحد المراكشي بمعلومات هامة في هذا الشأن فقال : « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته ، يستدعي

---

(1) الأمغارن : شيوخ القبائل باللغة البربرية ، ومفرده أمغار بمعنىٰ شيخ .
Terrasse, H., Histoire du Maroc, Tome I, p.28.

(2) الحلل الموشية ص 60 .

(3) جاز علي بن يوسف إلى الأندلس في نهاية سنة 500 هـ (1106 م) وهي السنة التي خلف فيها والده، لإعادة تنظيم حكومة المرابطين فيها وتحقيق مشروعاته في الجهاد ، ولمدافعة الممالك المسيحية ، ثم تتابعت حمـلات المرابـطين خلال أعـوام كثيرة ، يحـالفها التـوفيق أحيانـاً ، وتُصاب بالفشل أحياناً أخرىٰ ، إلاّ أنّ وجود الجيوش المرابطية على الحدود كفل للأندلسيين أمناً لم يكونوا يعرفونه منذ أمدٍ بعيد .
ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ص 157 — 164 .

أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتىٰ اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك »[1] .

وعلى هذا تغيّر البلاط الملثمي الصغير ليوسف بن تاشفين دفعة واحدة ، ولا شك أنَّ الأندلسيين كانت كلمتهم مسموعة عند السلطان ، فيما يشيرون عليه ، وقد ساهموا بقسط كبير في الإصلاحات الإدارية ، التي نهض بها ، كما أنهم لم يكونوا بمعزل عن القرار الذي اتخذه الأمير علي بن يوسف بأن يحيط نفسه في مراكش بفرقة من الجنود المسيحيين ، وبتكليف بعض ضبّاط هذه الفرق بأعمال هامة ، من بينها جباية الضرائب ، ويعتبر علي بن يوسف « أول من استعمل الروم بالمغرب ، وأركبهم وقدمهم على جباية الضرائب »[2] . ويبدو أنه لنشأة علي بن يوسف الأندلسية ، تأثير كبير عليه ، فهو لم يكن صحراوياً قحّاً ، كما كان أبوه من قبل ، ولم يولد في الصحراء وإنَّما ولد على ضفاف البحر المتوسط في مدينة سبتة ، من أم مسيحية من السبايا ، وتلقّىٰ ثقافة أندلسية بحتة منذ نعومة أظفاره[3] . وامتدَّ هذا التأثير الأندلسي إلى غرب إفريقيا ، حيث ظهرت آثاره في الحياة العامة[4] .

ولمَّا كانت دولة المرابطين وأساسها ديني ، وملوكها الثلاثة ذوو زهد وعبادة ، فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء ، ليمنحوا الدولة الصبغة التي يؤثرونها ، فارتفع شأن هؤلاء أكثر من ذي قبل ، فكان علي بن يوسف « لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته ، كان فيما يعهد إليه ألاّ يقطع أمراً ، ولا يبتُّ حكومة في صغير من الأمور ، ولا كبير ، إلاَّ بحضور أربعة من الفقهاء ، فبلغوا في أيامه مبلغاً عظيماً ، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس »[5] .

---

(1) عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ص 164 .
(2) الحلل الموشية ص 69 .
(3) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 157 .
(4) انظر ما يلي في الفصل الخامس .
(5) المراكشي ، المصدر السابق ص 171 .

نال الفقهاء من تلك الأسباب ثروات ضخمة ، ومكاسب كبيرة أثارت حفائظ الشعب ، وكان من الطبيعي أن ينتهزوا فرصة ضعف دولة المرابطين ، ويكونوا أول المغامرين ، ويعلن كل واحد منهم الاستقلال في بلده[1] .

وقد تجمَّد هؤلاء الفقهاء عند كتب مذهب مالك ، ولم يعودوا يرجعون إلى الأصول يستنبطون منها الأحكام ، ويتَّخذونها مادة للدراسة ، واكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة في كتب الفروع ، وجعلوها مرجعهم الوحيد ، من غير تحفّظ ، يقول عبد الواحد المراكشي : فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتىٰ نسي النظر في كتاب الله ، وحديث الرسول ﷺ وقرّر الفقهاء ، عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له »[2] فكان الأمير علي بن يوسف يكتب من حين إلى آخر إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء من علم الكلام ، وتوعَّد من وجد عنده شيء من كتبه ، حتىٰ أنه عندما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله إلى بلاد المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، بإيعاز من الفقهاء ، وتقدَّم بالوعيد الشديد بعد سفك الدم . ومصادرة المال لمن وجد عنده شيء منها ، وقد اشتدَّ في تنفيذ ذلك »[3] .

ويجب أخذ هذا القول بحذر حيث وجدت نقيض هذا الكلام في نوازل القاضي ابن رشد (مخطوط رقم 1072 بالمكتبة الأهلية بباريس) سؤال أمير المسلمين ـ رضي الله عنه ـ للقاضي أبي الوليد بن رشد ـ رضي الله عنه ـ . ما يقول الفقيه القاضي الأجل الأوحد أبو الوليد ـ وصل الله توفيقه وتسديده ، ونهج إلى كل صالحة طريقه ـ من الشيخ أبي الحسن الأشعري ، وأبي الحسن

---

(1) د . إحسان عباس ، عصر الطوائف والمرابطين ص 38 .
وانظر للمؤلّفة عن انتزاء القضاة موضوعاً مفصّلاً ضمن رسالة دكتوراه بعنوان : « الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحّدين » .
(2) المراكشي ، المصدر السابق ص 172 .
(3) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

الإسفراييني وأبي بكر الباقلاني وأبي الوليد الباجي ونظرائهم ، ممَّن ينتحل علم الكلام ، ويتكلَّم في أصول الديانات ويصنِّف الرد على أهل الأهواء ، أهم أئمَّة رشاد وهداية ؟ أم هم قادة حيرة وعماية » وأجاب ابن رشد : « هم أئمَّة خير ، وممَّن يجب بهم الاقتداء وهذا يدلُّ على أنَّه كان في هذه المرحلة حركة نشيطة لدراسة علم الكلام ، والخوض فيه عند ظهور دعوة المهدي[1] الذي راح يناهض مذاهب المرابطين ، وراح ينقدها بأقصىٰ قوة ، إلَّا أنَّ ذلك لم يكن قط المأخذ الوحيد الذي أخذه المهدي على المرابطين بل كان هناك ما هو أشدّ خطراً في رأيه ، وهو التجسيم ، أي جعل صفات جسمانية لله تعالىٰ ، وكان منشأ ذلك الخطأ في نظر ابن تومرت أنَّ فقهاء المغرب في عهد المرابطين ، خلافاً لزملائهم في المشرق الذين بلغوا في ذلك الوقت من التطوّر غايته فيما يتعلَّق بمباحث علم الكلام ، ظلُّوا يلتزمون في الآيات القرآنية التي فيها ذكر لصفات الله ، النص الحرفي لها فيما يقضي إلى تجسيم للذات الإلـٰهية ، وإلى إثبات صفات جسمانية لله تعالىٰ[2] . ومع ذلك فلم يثبت عن فقهاء المرابطين مسألة التجسيم والذي أثار هذا الاتهام هو المهدي بن تومرت رداً على اتهام المرابطين للموحدين بالخوارج[3] .

وقد استغلَّ المهدي بن تومرت كل هذه المآخذ على حكم المرابطين

---

(1) هو عبد الله بن تومرت السوسي الهرغي المصمودي ، مؤسِّس دولة الموحِّدين ، ويسمَّىٰ بالبربرية أمغار ، وبالعربية الشيخ ، وكان رجلًا فقيراً ، مشتغلًا بطلب العلم وتحصيله ، ارتحل إلى المشرق في طلب العلم حيث التقىٰ بمشايخ العلم ، وسمع منهم ، وأخذ عنهم علماً كثيراً ، وحفظ كثيراً من الأحاديث ، ونبغ في علم الأصول والاعتقادات ، ولازم الإمام أبو حامد الغزالي ، لاقتباس العلم منه مدة ثلاث سنوات ، ويُقال إنَّه هو الذي تنبَّأ للمهدي بأنَّه سيكون له شأن عظيم في المغرب ، البيذق (أبو بكر الصنهاجي) أخبار المهدي بن تومرت ، وابتداء الموحِّدين نشر ليفي بروفنسال ابن صاحب الصلاة ، كتاب تاريخ المن بالأمانة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمَّة وجعلهم الوارثين ،تحقيق عبد الهادي التازي ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ص 172 ـ 180 .

(2) ابن أبي زرع المصدر السابق ص ص 173 — 175 . ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة السيد محمود عبد العزيز ص 25 .

(3) انظر بحثنا عن « المهدي بن تومرت داعي الباطنية » .

وأخـذ يشيع دعـوته بين القبـائل ، فـالتفَّ حولـه عدد كبيـر خاصـة من قبائـل المصامدة[1] .

وفي نفس الوقت ظهر الخلل في الدولة المرابطية ، وظهرت أطماع كبار أمراء المرابطين الذين كانوا يتولّون المناصب الهامة في أنحاء الدولة فاستبدّوا بالأمر ، ولم يعودوا يرون في علي بن يـوسف الكفاءة ، وأصبحـوا يصرحـون بذلك ، « فصار كل منهم يصـرّح بأنـه خير من علي أميـر المسلمين ، وأحقُّ بالأمر منه »[2] .

امتدَّ هذا الخلل إلى الصحراء ، فانبثقت الحزازات القبلية ، التي كان المرابطون قد أضعفوها ، فانتهزت قبائل الملثمين هذه الفرصة فـرفضت قبيلة مسوفة أن تعمل تحت رئاسة أي زعيم من زعماء لمتونة ، وكان هذا التمرّد من مسوفة ، يعتبر كارثـة تهدِّد الدولة المـرابطيـة في الجنوب ، إذ كـانت مسوفـة ولمتونة تمثّلان العمود الفقري للجيوش المرابطية ، وأي خلل يحدث بين هذه القبائل لن يؤدِّي فقط إلى القضاء على نفوذ المرابطين في الجنوب ، بل سيهدِّد قوة المرابطين في الشمال ، إذ أنه علاوة على الاضطرابات في الجنوب فسوف يتوقّف إمداد القوات الشمالية بالجيوش الملثمة[3] .

وانتهزت الفرصة أيضاً قبيلة جدالة ، وكانت دائمة التمرّد[4] ، منذ بداية حركة المرابطين ، فكلَّما أحسَّت بانشغال المرابطين في جبهة من الجبهات ، حاولت الانقضاض على القبائل الملثمة الأخرىٰ .

ولمَّا كانت دولة المرابطين قائمة على قاعـدة الجهاد ، فكـانت تكاليف الحرب تأتي على معـظم دخل الـدولة ، عـلاوة على أنَّ أمراء المـرابطين لم يكونوا مثل أمير المسلمين في تعفّفه عن أموال الناس ، ويظهر ذلك ممَّـا كتبه

(1) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 176 .
(2) المراكشي ، المصدر السابق ص 177 .
(3) Bovill, E.W., The Golden trade of the Moors, p.85.
(4) Bovill, E.W., Ibid, p.85.

ابن عبدون ، صاحب رسالة الحسبة ، إذ يأسف ويقول : « إنَّ الرئيس العادل الساعي إلى الخير ، المرتبط بالناموس أصبح يلتمس ، فلا يوجد »[1] ، ووصل الأمر إلى استبداد بعض المرابطين في وظائفهم ، وكان يخشىٰ محاسبتهم ، ولذلك نصح ابن عبدون في رسالته أن تكون هناك طبقة من الموظفين منهم صاحب المدينة ، وصاحب المواريث ، والقاضي والمحتسب ، بأن يكونوا من أهل البلاد « فإنَّهم أعرف بأمور الناس ، وطبقاتهم ، وهم أيضاً أعدل في الحكم وأحسن سيرة من غيرهم ، وهم أنفع للسلطان وأوثق ، لأنَّ الرئيس يستحي أن يحاسب في عمله مرابطاً ، أو ينكر عليه شيئاً ممَّا قد فشا له عنده في الخطة التي ولاه »[2] . ويبيِّن الكلام ابن عبدون مدىٰ النفوذ الذي كان يتمتّع به المرابطي ، حتىٰ لنرىٰ أنَّ كلمة « مستحي » في هذا النص تخفيف للواقع الذي كان يحدث في ذلك الوقت[3] .

وللنساء في مجتمع لمتونة الصحراوي منزلة حرصن على أن يحتفظن بها في بلاط المرابطين ، وأتاحت لهنَّ حرية الحياة النسبية ، التي لم يفقدنها على الإطلاق عند رحيلهنَّ عن الصحراء ، التدخّل في شؤون الدولة ، والتمتّع بالسلطة التي استطعن الاحتفاظ بها ، وأن تكون كلمتهنَّ مسموعة وإن كان عبد الواحد المراكشي قد بالغ في قوله: «واستولى النساء على الأموال واسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة، ومسوفة مشتملة على كل مفسد، وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمور وماخور[4]، إذ لم يُذكر اسم امرأة واحدة في المصادر التي بين أيدينا وقد اتّخذ ابن تومرت من سفور المرأة المرابطية ذريعة لمهاجمة المرابطين.

وهكذا انهارت القاعدة التي قامت عليها دولة المرابطين ، وهي

---

(1) ابن عبدون ، رسالة الحسبة ص 5 . د . إحسان عباس ، المرجع السابق ص 38 .
(2) ابن عبدون ، المصدر السابق ص 16 .
(3) د . إحسان عباس ، المرجع السابق ص 31 .
(4) عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ص 177 .

البعث الديني والجهاد ، وابتعدت المسافة بين فئتيّ الإدارة العليا ، ويمثلها أمير المسلمين الصالح الزاهد ، وحوله الفقهاء ، والفئة الثانية ، ويمثلها الولاة ، وهم ولاة مستبدّون أو ضِعاف تتصرّف النساء في شؤون ولاياتهم ، وكان معنىٰ ذلك أنَّ أيّة ريح قوية تهبّ على الدولة سوف تعصف بها ، وتقضي عليها ، وهذا ما حدث بالفعل عند ظهور دعوة الموحدين[1] ، إذ انشغل أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في جهاد هذه الدعوة ، فتشتّت جهوده بين جهاد الممالك المسيحية في الأندلس ، وجهاد الموحّدين ، وأثقل بيت المال بالنفقات ، « ولم يزل أمير المسلمين علي بن يوسف يوالي الحروب على أصحاب المهدي من كل جانب ، ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب ، ويأمرهم بملازمة السكنة ، حيث كانت لهم الطاعة من أهل الجبال ، ويقيمون المدة الطويلة ، في الحرب معهم والقتال ، وينفق عليهم بيوت الأموال ، رجاء في دفع دائهم العضال ، فدامت أكثر مدته في حروب معهم »[2] .

وانتهزت بلاد السودان الخلاف بين القبائل الأساسية في بناء دولة المرابطين في الصحراء ، وأعلنت استقلالها ، فاستقلّت مملكة غانة ، وأصبح ملكها يخطب لنفسه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي في بغداد[3] .

بينما أخذت مملكة الصوصو في التوسّع على حساب مملكة غانة حتىٰ استطاعت في النهاية أن تقضي عليها ، وتضمّها إلى أملاكها[4] ، وفي نفس الوقت كانت مملكة مالي الناشئة من ولاية كانجابا تتوسّع هي الأخرىٰ في اتجاه الشمال والجنوب[5] .

---

(1) د . إحسان عباس ، المرجع السابق ص 31 .
انظر كتابنا « الأندلس في نهاية المرابطين ومستهلّ الموحّدين » الفصل الأول الخاص بأسباب سقوط المرابطين .

(2) الحلل الموشية ص 82 .

(3) الإدريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص 6 .

(4) ابن خلدون ، المصدر السابق ص 413 .

(5) Trimingham, J.S., op.cit, p.58.

وبرغم انفصال هـذه الممالـك عن دولة المـرابطين ، إلاّ أنّ الصـلات الطيبة لـم تنقطع بينها وبين دولة المرابطين ، فقد استمرّت العلاقـات الثقافيـة والتجارية ، إذ كانت الطرق التجارية عـاملاً مهمـاً لربط هـذه المناطق بعضهـا البعض ، فلم يتـوقّف انتشار الإسـلام باستقـلال هذه المنـاطق ، بـل استمـرَّ انتشـاره على يد قبـائل السـودان ، التي قامت بـالـدور الـذي كـان يقـوم بـه المرابطون ، وكانت فترة القرن الحادي عشر من أزهىٰ فترات انتشار الإسلام في السفانا السودانية ، وكان عهد السيادة المتواليـة للسوننكي ، والصـوصو ، والماندنجو ، والصنغاي[1] .

(1) Hunwich, I.O., Islam in West Africa, p 118,
Cornivin, Robert, op.cit, p.346.

الفصل الخامس

الثقافة العربية الاسلامية
في غرب افريقيا في عهد المرابطين

* * *

أساس الدولة الديني ـ الجمع بين حضارة الأندلس والمغرب والسودان ـ شغف المرابطين بالعلم والتفقّه في الدين ـ شيوخ المرابطين من الفقهاء ـ تشدد الأمراء في تعليم أبنائهم ـ تشجيع العلماء والكُتّاب ـ تشجيع الفنانين والصنّاع ـ تأثّر السودان بحضارة الأندلس ـ التأثيرات المغربية في السودان ـ ظهور التقاليد الإسلامية الزنجية ـ انتساب ملوك غانة لبيت الرسول ـ اعتماد المرابطين على الدعاة في السودان ـ تكوّن طبقة من الدعاة السودان ـ دور الدعاة في نشر الإسلام ـ جهود دعاة غانة ، ودعاة مالي في نشر الإسلام ـ استتباب الأمن وانتشار التجارة ـ اعتناق ملوك السودان الإسلام على يد التجار ـ الجمع بين التجارة ونشر الدعوة ـ المراكز الثقافية في غرب إفريقيا : أودغشت ، غانة ، جنىٰ ، تمبكت ـ ارتباط المدارس بالدين ـ إلحاق المدارس بالرباطات والزوايا ـ ازدهار اللغة العربية .

* * *

قامت دولة المـرابطين على أسـاس نشر المـذهب المالكي ، ومحـاولة بعث القوىٰ الإسلامية واستنهاضهـا ، والعودة بـالمجتمع الإسـلامي إلى عهد السلف الصالح ، واعتمدت في التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأعلنت على البدع والمنكرات ، التي انتشرت ، حرباً لا هوادة فيها ، فحطّمت دنان الخمر ، وكسرت آلات الطرب ، وطالبت النـاس بالقيام بفروض دينهم ، ولذلك لقيت دعوة المرابطين التـرحيب أينما حلّت ، واستنجد بها الفقهاء والعلماء لتخليص البلاد من المفاسد والمظالم ، وفتحت البلاد والمدن أبوابها لهؤلاء المجاهدين الذين لا يبغون من الحياة الدنيا سوىٰ الإصلاح[1] . وقد توسّعت هذه الدولة في مبـدأ الجهاد وأعـادت إلى الأذهان صورة الدولة الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ، فعاشت من أجل الجهاد طوال فترة حكمها القصير ، وسخّرت كل مواردهـا لهذا العمـل الفذّ ، وجعلت من البلاد معسـكراً ضخماً تدوي فيه طبول الجهاد ، وبرغم انشغالها الـدائم في الجهاد ، فإنّهـا لم تغفل النـواحي الاجتماعيـة والحضاريـة في هذه البـلاد ، وأرست قواعد الأمن ، والطمأنينة بين النـاس ، فازدهـرت الحياة الاقتصـادية والثقافية في أرجاء الدولة[2] .

(1) د . حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ص 325 .
(2) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فـاس ص 157 .

فقبائل الملثمين التي قامت على أكتافها دولة المرابطين ، كانت قبائل بدوية ، ولكنها امتازت بأنها قبائل بنّاءة غير مخرّبة ، فلم تكن تغير لمجرّد السلب والنهب ، وإنّما من أجل نشر عقيدة سامية كانت تغير لكي تقوم وتصلح ما اعوجّ ، وكان الفضل في ذلك كله راجعاً إلى إمامهم الشيخ عبد الله بن ياسين ، فقد أثرت فيهم الحياة العقلية الرفيعة التي مارسوها في بدء حياتهم في رباط ابن ياسين ، الذي فتح عقولهم للثقافة الإسلامية والتراث العربي ، وتركت تعاليمه في نفوسهم أبلغ الأثر ، فبدأوا منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامهم أرض المغرب ، يقبلون على المدارس في شغف ، فلم يتخلّفوا عن الركب ، ليتابعوا حياة الإغارة والعدوان ، بل انكبّوا على الثقافة والعلم ينهلون ويأخذوا منه بنصيبٍ وافر[1] .

وكان لانتشار المرابطين صوب السودان في الجنوب ، وامتداد سلطانهم على الأندلس ، أن جمعت دولتهم بين المؤثّرات الأندلسية والمغربية ، والسودانية ، فألفت بين تراث هذه البلاد ذات الحضارات المختلفة ، والثقافات المتباينة ، فازدهرت مراكش عاصمة هذا الملك الشاسع ، وبلغت أوجّها ، فكانت « حاضرة الدولة ، ومقرّ السلطان ، وكعبة القصاد ، وفد إليها العلماء من كل فجٍّ لينعموا بالحياة قريباً من الأمراء ، فينالوا رغدهم وعطاءهم ، وقصدها من كل علم فحوله ، حتىٰ أشبهت حضرة بني العباس في صدر دولتهم »[2] .

ومع أنَّ المؤثّرات الأندلسية ، كانت موجودة في المغرب قبل عهد المرابطين ، إلاّ أنها لم تكن تتعدَّىٰ الإقليم الشّمالي ، الذي انتشرت فيه المدن ، ذات الماضي المجيد ، في تاريخ الحضارة الإسلامية مثل فاس ، لا تكاد تتخطّىٰ هذا النطاق إلى الجنوب ، فلم يكن هناك تعاون أو اتفاق بين إقليم السهول ، وإقليم الصحراء ، وأصبح هذا التباين بين قسميّ المغرب

---

(1) د . حسن محمود ، المرجع السابق ص 325 .

(2) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 164 .

الأقصىٰ ، عقبة تحول بين المؤثرات الأندلسية ، وبين أن تعمّ البلاد .

وفي عهد المرابطين استطاعت المؤثرات الأندلسية ، والمغربية بالتالي أن تتخطّىٰ جبال درن في الجنوب ، موغلة في إقليم الصحراء ، حتىٰ وصلت إلى السودان ، حيث الحضارة الزنجية البكر ، حيث وجدت هذه المؤثرات الأندلسية الراقية ، والمتقدّمة من يشجعها من المرابطين والسودان ، ويأخذ بيدها ، ويشدّ أزرها ، ويدلُّ على ذلك أنه عندما صحب معه الشيخ الفقيه أبا بكر المرادي ، وكان مختصّاً بعلوم الاعتقادات وهو أول من أدخلها إلى المغرب الأقصىٰ ، ونزل بأغمات وريكة فلمّا عزم الأمير أبو بكر بن عمر التوجّه إلى الصحراء صحبه معه وولّاه قضاء أزُكِي من صحراء المغرب وبقي بها إلى أن توفي سنة 489 هـ ـ 1096 م ، فخلفه تلميذه أبا الحجاج يوسف بن موسىٰ الضرير الكلبي في علوم الاعتقادات ، وكان يختلف من مراكش إلى أغمات وبعض مدن المغرب يأخذ طلبة العلم عنه علم الكلام وغيره من علوم الاعتقاد ، يقول القاضي عيّاض الذي أخذ عنه علم الاعتقاد « قرأت عليه أرجوزته الصغرىٰ التي ألف في الاعتقادات ، وحدثني بالكبرىٰ وبكتاب التجريد لأبي بكر المرادي شيخه وعنه كأن أكثر أخذه » . وتوفي أبو الحجاج بمراكش عام 520 هـ ـ 1126 م[1] .

وقد ظهر من فقهاء المرابطين الفقيه أبو القاسم بن عذرا ، وأخوه الفقيه سليمان بن عذرا الجزولي ، وكانا قد تولّيا أمور المرابطين الدينية بعد وفاة الشيخ عبد الله بن ياسين[2] . ومن شيوخ المرابطين الشيخ أبو محمد يرزجان بن محمد الجزولي الضرير الذي قدم مراكش وكان عالماً فاضلاً بصيراً بمذهب مالك ، صحب الإمام أبي بكر بن العربي[3] .

---

(1) التادلي ، التشوّف ص ص 83 ، 84 ، الفنية فهرست شيوخ القاضي عيّاض ، تحقيق ماهر زهير رقم 97 ، ص 226 .
(2) التادلي ، المصدر السابق ، ص 257 .
(3) القاضي عيّاض ، ترتيب المدارك ، جـ 4,3 ، ص 780 .

وعكف كثير من العلماء في عصر المرابطين على الزهد والتقشّف وعرفوا بالتقىٰ والورع . وقد ذكر القاضي عيّاض[1] الشيخ لمتاد بن نصير اللمتوني الذي بلغ منزلة كبيرة في علمه حتىٰ أنَّ المثل يضرب بفتياه في بلاد الصحراء ، وتعظيم أمرها ، ومنهم أيضاً أبو عبد الملك مروان اللمتوني الذي ذكره صاحب التشوّف في عداد الأولياء[2] . وأبو إسحٰق باران بن يحيىٰ المسوفي[3] .

وكان بعض الأمراء الذين لا تمكّنهم الظروف من الالتحاق بالمدارس والاختلاف إلى مجالس العلم والعلماء ، فكانوا يرسلون في طلب أعلام الفقهاء ، والعلماء إلى قصورهم ، فيجلسون إليهم ويأخذون العلم عنهم ، ويتفقّهون في الدين على أيديهم ، فكان الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين يرسل في طلب الفقيه الجليل الشيخ علي الصدفي[4] ، ليسمع عليه الحديث ، وينتفع بعلمه وفضله ، واتّصل به الفتح بن خاقان[5] الكاتب المشهور ، وباسمه طرز كتاب قلائد العقيان[6] .

واتّخذ المرابطون العلماء لتهذيب بنيهم ، فيذكر ابن خلدون ذلك بقوله : « فقد نقل عنهم من اتخاذ المتعلمين لأحكام دين الله لصبيانهم ،

---

(1) القاضي عيّاض ، المصدر السابق ص 780 .

(2) التادلي ، المصدر السابق ، رقم 93 ، ص 223 .

(3) نفس المصدر السابق ، ص 100 ، رقم 19 .

(4) هو الشيخ أبي إسحٰق علي الصدفي ، كان إماماً مشهوراً في ا لعلوم ، من حديث ، وفقه ، وولي القضاء في عدة أماكن ، وقصده الناس لأخذ العلم عنه حتىٰ وفاته سنة 514 هـ .
ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة جـ 1 ص ص 144 ـ 146 .

(5) هو أبو نصر الفتح بن خاقان ، صاحب كتابيّ « مطمح الأنفس ، وقلائد العقيان » اتصل بملوك الطوائف ، فلمّا جاءت دولة المرابطين اتصل ببعض أمرائهم ، وكانت وفاته بمراكش في أحد الفنادق وجد فيه قتيلاً سنة 529 هـ (1134 م) .
ابن خلّكان ، وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، جـ 3 ص 193 ، ابن الأبار ، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ترجمة 275 .

(6) د . محمود علي مكي ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد) مجلد 7 ، 8 سنة 1958 و 1960 ص ص 117 ، 118 .

والاستفتاء في فروض أعيانهم ، واقتناء الأئمّة للصلوات في نواديهم ، وتدارس القرآن بين أحيائهم ، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم ، وقضاياهم »[1] .

وكان الأمير علي بن يوسف يرسل أبنائه إلى الأندلس ، لتلقّي العلم يتشدّد في تعليم أولاده ، ويظهر ذلك من الرسالة القصيرة التي أرسلها علي بن يوسف بن تاشفين إلى ابنه أبي بكر الذي كان يقوم على رعايته وتأديبه ، الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان بن زهر ، وكان على ما يبدو أنَّ الأمير أبي بكر لم يكن مكبّاً على الدرس منصرفاً إلى التحصيل ، ممّا دعا والده إلى تقريعه ونهره ، يقول فيها : « كتابنا ألهمك الله رشد نفسك ، ومن حضرة مراكش - بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان ابن الوزير أبي العلاء بن زهر ، محل أبينا ، يشكو ما يكابده ويقاسيه من تضريبك ، فأمسك عليك رمقك ، وخذ من الأمور ما يسر ، وإلاَّ أنفذناك إلى ميورقة »[2] .

وقد أقبل أمراء المرابطين ، وعمالهم على الحياة الثقافية ، ينهلون منها ، ومن مواردها في تواضع المستفيد ، لا في كبرياء الملوك الحاكمين ، مثال ذلك الأمير ميمون بن ياسين الذي عني بالرواية وسماع العلم ، وحجَّ البيت الحرام ، وسمع منه الناس ، وحدث عنه أبو القاسم بن بشكوال ، وغيره وتوفي هذا الأمير سنة 530 هـ[3] - 1106 م .

وكان من أجل مظاهر تسامحهم في الاستعانة ، والاستفادة بمعظم الكتاب ، والشعراء الذين خدموا ملوك الطوائف ، حتىٰ الذين استمرُّوا على ولائهم ، وإخلاصهم لدولهم الزائلة ، فشجعوا العلماء منهم ، خاصة في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين ، ومن هؤلاء الأدباء والكُتّاب ابن

---

(1) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ 6 ص 208 .
(2) د . حسين مؤنس ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد) المجلد الثاني سنة 1954 ص ص 68 ، 70 .
(3) ابن الأبار ، المصدر السابق ، ترجمة 1823 ص 718 .

القصيرة[1] ، والفتح بن خاقان ، وأبو القاسم بن الجد ، المعروف بالأحدب[2] ، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة[3] ، وأبي عبد الله بن أبي الخصال ، وأخيه أبي مروان[4] ، كما اتّخذ الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين الكاتب المؤرّخ ابن الصيرفي[5] الذي ألّف في

---

(1) هو أبو بكر بن سليمان الكلاعي الإشبيلي ، نشأ في دولة المعتضد ابن عباد ملك إشبيلية وكان يعتمد عليه في السفارات ، ولما استولىٰ النصارىٰ على طيطلة واشتدّ هجومهم على الأندلس كان ابن القصيرة هو الذي قام بعبء السفارات التي ردّدها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين ، ولمّا قام يوسف بن تاشفين بخلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ، أهمل لمدة ثلاث سنوات إلى أن استدعاه يوسف بن تاشفين ، وظلّ يتولىٰ منصب الكتابة ليوسف حتىٰ وفاة الأمير سنة 500 هـ ، ثمّ لابنه الأمير عليّ بن يوسف طوال السنوات الأولىٰ من حكمه ، وتوفي ابن القصيرة سنة 508 هـ ، وكان له مكان عظيم في الشعر والنشر بدولة المرابطين . ابن بشكوال ، الصلة في تاريخ أئمّة الأندلس ترجمة 1137 . ابن خاقان ، قلائد العقيان ص ص 104 ، 106 .

(2) هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري ، من أعيان لبلة وإشبيلية ، وقد بدأ حياته مشتغلاً بالحديث والفقه ، والأدب ، والأنساب حتىٰ تبحّر فيها ، ثم قلّده يزيد الراضي بن المعتمد بن عباد وزارته ، وظلّ مقرّباً في دولة بني عباد حتىٰ خلعهم يوسف بن تاشفين فبقي مدة معتزلاً لمناصب الحكم ، وقدمه أهل بلده لبلة ، فولوه خطة الشوري بعد امتناع منه وكراهية ، ثم استدعاه عليّ بن يوسف لتولّي الكتابة في ديوان رسائله فأجاب إلى ذلك حتىٰ وفاته . ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ترجمة 1149 . ابن خاقان ، المصدر السابق ص ص 109 ، 115 .

(3) هو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسي، وكان من بيت نباهة ، وشهرة في الأدب ، وكان له أخوان ، أبو محمد طلحة ، وأبو الحسن محمد ، وكان من جلّة الوزراء ، والكتاب في بلاط المتوكل بن الأفطس ببطليوس ، فلمّا خلع المرابطون بني الأفطس ، كتب ابن القبطرنة لهم حتىٰ وفاته سنة 520 هـ (1126 م) . ابن خاقان ، المصدر السابق ص 148 . ابن الأبار ، المصدر السابق ، ترجمة 1743 .

(4) هو محمد بن محمود الغافقي الشقوري ، وكان من مرابطي النشأة وأصبح هو وأخيه أبي مروان عبد الملك من أعظم كُتّاب دولة المرابطين ، وكان من أبرز علماء النثر الأندلسي .
ابن بشكوال ، المصدر السابق ترجمة 1178 ، ابن خاقان ، المصدر السابق ص ص 175 ، 181 .

(5) هو أبو زكريا يحيىٰ بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي الذي يكنّىٰ بأبي بكر ويعرف بابن الصيرفي .
ابن الأبار ، المصدر السابق ، ترجمة 2045 .

تاريخ المرابطين كتاب « الأنوار الجليّة في أخبار الدولة المرابطية » وهذا الكتاب ما زال مفقوداً .

وكان الفنانون والصنّاع يلقون من أمراء المرابطين ، وولاتهم الشيء الكثير من التشجيع والحماية ، فعندما حضر المهندس عبد الله بن يونس الأندلسي إلى مراكش في سنة 470 هـ - 1077 م في عهد الأمير يوسف بن تاشفين لم يكن بها إلّا بستان واحد ، لأبي الفضل مولي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، لأنّ الماء في هذه المنطقة ليس بعيد الغور ، استخدم السواقي بعد أن قام بحفر آبار مربّعة كبيرة من أعلىٰ إلى أسفل ، فكثرت البساتين ، وقد أكرمه الأمير يوسف طوال إقامته بمراكش[1] .

وكان للتأثير الأندلسي صداه في السودان الغربي ، ويظهر ذلك في شواهد القبور التي كشفت عنها في منطقة النيجر ، والتي صنعت في مدينة المربة بالأندلس ، فقد وجدت شواهد منها في إحدىٰ المقابر ، وتحمل تاريخ سنة 494 هـ[2] - 1100 م كما وجدت شواهد قبور من عهد المرابطين أيضاً في منطقة النيجر الأوسط ، منقوشة بالعربية والإسبانية[3] .

كما يبدو هذا التأثير أيضاً في قصور ملوك غانة التي وصف أحدها الإدريسي فقال : « قد أوثق بنيانه ، وأحكم إتقانه ، وزيّنت مساكنه بضروب من النقوشات والأدهان ، وشمسيات الزجاج ، وكان بنيان هذا القصر سنة 510 هـ[4] - 1116 م .

إلّا أنّ التأثيرات المغربية في السودان الغربي كانت أكثر وضوحاً ، وهذا أمر طبيعي ، لأنّ الإسلام دخل هذه البلاد عن طريق المغرب ، فحمل معه إلى

---

(1) الإدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ص 67 ، 68 .
(2) محمد أحمد المغربي ، موريتانيا ومشاغل المغرب الإفريقية ص 14 .
(3) Bovill, E.W., The Golden trade of the Moors, p.101, note I.
(4) الإدريسي ، المصدر السابق ص 6 .

غرب إفريقيا تقاليد المغرب وثقافته « يرتدون عمائم بحنك مثل المغرب ، وملبسهم شبيه بلبس المغاربة ، جلباب ودراريع ، بلا تفريج ، وهم في ركوبهم كأنّهم العرب »[1] . وكانت مدارسهم تكاد تكون مغربية صرفة ، حتىٰ طريقة الكتابة نفسها تأثّرت بالطابع المغربي ، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي ، بل لقد كانت تدرس نفس المناهج المغربية ، وكانت الكتب المتداولة ، هي كتب المالكية مثل كتب القاضي عيّاض[2] ، وموطأ الإمام مالك والمدوّنة الكبرىٰ للفقيه سحنون[3] ، وغيرها من كتب المالكية[4] .

كما ظهر تأثّر السودان بتعاليم ابن ياسين المالكية من التشدّد في الدين ، وأداء فروض الشريعة إلى أبعد الحدود ، ومع أنّ الرحالة ابن بطوطة قد زار هذه المناطق بعد عصر المرابطين بحوالي قرنين ، فقد أشار إلى التزام السودان

---

(1) القلقشندي ، صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا ، جـ 5 ص 281 .

(2) من كتب القاضي عياض ، كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ، وكتاب إكمال المعلم في شرح مسلم ، كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدوّنة والمختلطة ، كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، وكتاب الإعلام بحدود قواعد الإسلام . أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض ، التعريف بالقاضي عياض ، تحقيق د . محمد بن شريفة ص 116 .

(3) هو أبو سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، الملقّب بسراج القيروان ولد بالقيروان سنة 160 هـ (766 م) تلقّىٰ العلم بالقيروان ثم رحل إلى المشرق سنة 188 هـ (803 م) فزار مصر والحجاز والشام ، وأخذ الفقه عن علمائها ، ثم عاد إلى بلده سنة 191 هـ (806 م) فأظهر بها علم أهل المدينة ومذهب مالك بن أنس ، وهو أول من جعل له مركزاً ثابتاً ، تولّىٰ القضاء سنة 234 هـ (848 م) في عهد الأمير أبو العباس أحمد بن الأغلب بعد تمنّع شديد وشروط عديدة منها إطلاق يده في تنفيذ الأحكام الشرعية على الأمراء الأغالبة ورجال الدولة وإلى جانب القضاء استمرّ سحنون في إلقاء الدروس والمحاضرات في أصول الدين وفروعه بجامع عقبة ، وقد ألّف سحنون كتاباً عظيماً هو المدوّنة الكبرىٰ ، جمع فيه مسائل الفقه على مذهب مالك وهو أهمّ مرجع عند المالكية لآراء مالك الفقيه ـ توفّي سنة 240 هـ (854 م) . الدباغ ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان جـ 2 ص ص 49 ، 67 . ابن فرحون الديباج ، المذهب في معرفة أعيان المذهب ص ص 249 ، 290 .

(4) انظر كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تحقيق د . محمد حجّي والأستاذ إبراهيم الكتّاني .

بهـذه التعـاليم ، وعلى مـواظبتهم على الصلوات ، والتـزامـهم لـهـا في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها ، وازدحام المساجـد بالمصلّين ، حتىٰ إذا لم يبكر المرء بالذهاب إلى المسجد لم يجد موضعاً ، وحرصهم الشـديد على حفظ القـرآن ، وتعلّم الـدين ، ومعـاقبتهم أولادهم بـوضـع القيـود في أرجلهم لعدم حفظهم القرآن ، وكانوا يستفتون الفقهـاء ويأتمـرون بأمـرهم ، وكان من يلجأ إلى المسجد ، أو دار الفقيه ، أو الخـطيب أمن العقاب ، ولم يتعرَّض له أحد بسوء[1] .

ونتج عن امتزاج التقاليد الإسلامية التي نقلها المرابطون بالتقاليد الزنجية المحلية ، أن ظهرت تقاليد إسلامية زنجية ، فنرىٰ في حيـاة الملوك والرعيّـة المظاهر الإسلامية والعربية ، فيذكر الإدريسي موكب ملك غانة فيقول : « ومن سيرته قربة من الناس ، وعدله فيهم ، وله جملة قواد ، يركبون إلى قصره ، في صباح كل يوم ، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه ، فإذا وصل إلى باب القصر سكت ، فإذا اجتمع إليه جميع قواده ، ركب وسـار يقدمهم ، ويمشي في أزقّة المدينة ، ودائر البلد ، فمن كانت له مظلمة ، أو نابه أمر تصدّىٰ له ، فلا يزال حاضراً بين يديه حتىٰ يقضي مظلمته ، ثم يرجع إلى قصره ، ويتفرَّق قواده ، فإذا كان بعد العصر ، وسكن حر الشمس ، ركب مرة ثانيـة ، وخرج وحوله أجناده ، فلا يقدر أحد على قربه ولا على الوصول إليه ، وركوبه كل يوم مرتين سيرة معلومة وهذا مشهور من عدله[2] .

فإذا كان الملك يخرج لتفقّد الرعيّة مرتين في اليوم ، فإنَّ هذا يدلُّ على عدله ، وخشيته من وقوع الـظلم على أحد ، أو عـدم وصول شكـوىٰ مظلوم ضعيف إليه .

وبلغ من تأثّر ملوك السودان بالحضارة العربيـة الإسلاميـة ، أن حاولت

---

(1)ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، جـ 2 ص 193 .

(2) الإدريسي ، المصدر السابق ص 6 .

الأسر الحاكمة أن تدعىٰ الانتساب إلى الأصول العربية ، وإلى البيت العلوي فملك غانة كان ينسب نفسه إلى ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[1] .

الدعاة

اعتمد المرابطون على دعاتهم في نشر الدين الحنيف منذ بدء دعوتهم ، فكان الشيخ عبد الله بن ياسين يرسل الدعاة بعد تدريبهم في رباط إلى القبائل الملثمة والزنجية لترغيبهم في الإسلام ، فاعتنق ملك التكرور وارجابي بن رابيس الإسلام على أيديهم ، وطبّق أحكام العقيدة الإسلامية بنجاح في مملكته ، فاعتنق أهل المملكة الإسلام ، وقام وارجابي بجهاد ما يليه من أهل السودان وأرسل الدعاة لنشر الإسلام ، ونجح في نشر الإسلام بين أهل سلي ، وحسن إسلام ملك سلي فقام بدوره في حركة الجهاد ونشر الإسلام في البلاد المجاورة خاصة قلنبو الوثنية[2] . وتكون من التكرور دعاة للإسلام بين قبائل الولوف والفولبي والمادنجو ، ونشروا المدارس الإسلامية في السودان الغربي ، واستعانوا بالدعاة من المرابطين في بلاطهم لتعليمهم الشريعة والقراءة والكتابة ، حتىٰ أنهم قلّدوهم في ملابسهم[3] .

وقد ازدادت أهمية الدور الذي يقوم به دعاة المرابطين بعد الفتوحات الكبيرة التي قام بها جيش المرابطين ، فكان دعاة المرابطين يتعقّبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الإسلام ، وليعلموا على تدعيم الدين ، ويرجع

---

(1) الإدريسي ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها . ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ 5 ص 433 .

Ford Dary II, Agents of Islamization, "Islam in Tropical Africa", p.24.

(2) البكري ، المصدر السابق ص 172 ،

Ifemesia, C.C., op.cit, p.50,

Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa, p.28.

(3) Mahoney, F. and Idewu, H.O., The peoples of Sengambia, pp.135 - 136.

الفضل في تحوّل كثير من أهالي البلاد المفتوحة إلى الإسلام إلى جهود الداعي منذ اللحظة الأولىٰ التي يعترف فيها المتحوّل إلى الإسلام بالعقيدة ، فيسير على المبادىء القائمة على الإخاء والمساواة ومحاربة الطبقة ، وكان هؤلاء الدعاة يحظون بأوفىٰ نصيب من التقدير والاحترام ، وفي بعض قبائل إفريقيا الغربية كانت كل قرية تضم داراً لاستقبالهم وضيافتهم ، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير ، ويحتلّون بين الماندنجو مكاناً أعظم شأناً ، وينالون احتراماً يلي احترام الملك ، ويعتبر الرؤساء التابعون لغيرهم أقلّ منهم هيبة ، وفي دول السودان الغربي التي اتّخذت القرآن أساساً للحكم في المسائل الدينية ، تحتاج الدولة لخدماتهم ، احتياجاً شديداً ليفسّروا لهم معاني القرآن[1] .

فلضمان استمرار التأييد الكامل للدولة المرابطية المتّسعة ، كان من الضروري خلق إدارات مركزية ذات سلطات مطلقة ، يربطها بمركز الدولة اتصالات مستمرة ، لضمان السيطرة على أطرافها ، كما كان من الضروري أيضاً لضمان الولاء الكامل للدولة خوفاً من نزعة أي من هؤلاء الحكّام الإقليميين إلى الاستقلال بإقليمه عن المرابطين ، فكان الإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يكفل كلا الغرضين ويحقّقه ، فبنمو المدارس الإسلامية ، والمعاهد في السودان الغربي ظهرت طبقة متعلّمة مثقفة تضم بعض العلماء ، استطاعوا تنظيم إدارات الإمبراطورية ، وتجارتها على أكمل وجه ، وهذه الطائفة لم تستغل مركزها أو قرابتها ، وإنّما استطاعت أن تشيع الأمن والنظام في إدارات الإمبراطورية المختلفة[2] .

وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء الدعاة المعلمين ، أنه كان لا يتعرّض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات لا يعادي بعضها بعض فحسب ، بل يتقاتلون مع بعضهم البعض في حرب ، فيحترمهم الناس مثل

---

(1) توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د . حسن إبراهيم ، ص ص 391 ـ 392 .

(2) Ronald, Oliver and Fage, J.D., A Short history of Africa, p.88.

هذا الاحترام الشديد ، لا في البلاد التي انتشر فيها الإسلام وحدها بل في القرىٰ الوثنية التي يؤسّسون فيها مدارسهم ، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلّمي أبنائهم ، وكانت هذه المدارس يختلف إليها الأطفال ، فيحفظون القرآن ويتفقّهون في عقائد الإسلام وشعائره ، فإذا ما نجح الداعي على هذا النحو بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة ، فإنّه لا يتوانىٰ عن التأثير في الأهالي الذين جاء ليعيش بينهم ، ويساعد على ذلك أنَّ من عاداته وطباعه في الحياة تشبه عاداتهم وطباعهم في كثير من الوجوه[1] .

ولعلَّ أبرز خصائص انتشار الإسلام في بلاد السودان ، أنّه ابتدأ بالطبقات العليا ، والأسر الحاكمة ، ثم انتشر بعد ذلك بين الرعايا[2] . وتوضح لنا قصة إسلام أول ملوك مالي هذه الحقيقة التي أوردها البكري[3] ، ومع أنّه لم يوضح اسم الملك الذي ذكر بالمسلماني ، والذي أورد قصة إسلامه فقد أوضح أنه كان يوجد ببلاده أحد العلماء المسلمين الذين يقومون بالدعوة الإسلامية وأنَّ الإسلام لم يكن غريباً في مالي عندما أسلم هذا الملك ، لم

(1) توماس آرنولد ، المرجع السابق ص 392 .

(2) Chailley, Marcel, Histoire de l'Afrique Occedental Française, p.33.

(3) يقول البكري عرف ملك مالي بالمسلماني ، لأنَّ بلاده أجدبت عاماً بعد عام ، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتىٰ كادوا يفنونها ، وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرىء القرآن ، ويعلّم السنّة ، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك ، فقال له : أيُّها الملك لو آمنت بالله تعالىٰ ، وأقررت بوحدانيته ، وبمحمد ـ عليه السلام ـ ، وأقررت برسالته ، واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج ممّا أنت فيه وحلَّ بك ، وأن تعمّ الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك ، وناواك ، فلم يزل به حتىٰ أسلم ، وأخلص نيّته ، وأقرأه من كتاب الله ما تيسّر عليه ، وعلّمه الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ، ثم أمهله إلى ليلة جمعة ، فأمره فتطهّر فيها طهراً سابغاً ، وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده ، وبرزوا إلى ربوة من الأرض ، فقام المسلم يصلّي ، والملك عن يمينه ، يأتم به ، فصلّيا من الليل ما شاء الله ، والمسلم يدعو ، والملك يؤمن ، فما انفجر الصباح إلّا والله قد أعمّهم بالسقي . فأمر الملك بكسر الدكاكير (أي الأصنام) وأخرج السحرة من بلاده ، وصحَّ إسلامه ، وإسلام عقبة وخاصته ، وأهل مملكته مشركون ، فوسموا ملكهم منذ الوقت بالمسلماني . البكري ، المصدر السابق ص 178 .

يكتفِ المرابطين بالتحوّل الإسمي للإسلام ، بل أرسلوا العلماء بين القبائل السودانية لبثّ العقيدة الصحيحة ، فنشطت حركة انتشار الإسلام في مملكة مالي الناشئة .

ولم تكتفِ مملكة مالي باعتناق الإسلام ، والحرص على مظاهره ، وتكريم علمائه ، وإنّما أخذت تدعو له بين الوثنيين ، وأخذت ترسل بدورها الدعاة لنشر الدين بين هذه القبائل ، بل لقد اقترنت جميع فتوحاتها الحربية بالدعوة إلى الإسلام ، يقول العمري : « وملك مالي في جهاد دائم ، وغزو ملازم لمن جاوره من كفّار السودان »(1) .

وبعد سيطرة المرابطين على مملكة غانة ، تحمّس ملكها لنشر الإسلام ، حتىٰ أنَّ بعض العشائر السوننكية ، تكاد تختصّ بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط ، وكلمة سوننك في أعالي نهر غمبيا ، استخدمها الماندنجو الوثنيون مرادفة لكلمة داعي ممّا يدلّ على الدور الكبير الذي قام به سوننكي غانة في نشر بالإسلام بعد إسلامهم(2) وفي أغلب الأحيان كان هؤلاء الدعاة يتزوّجون من أهل البلاد ، وبذلك يرحّب الأهالي بدخولهم في نظامهم الاجتماعي ، فيتوطّد نفوذهم وتستقر أحوالهم ، وهكذا تزداد مهمة الداعي سهولة ، ويستطيع نشر الإسلام بينهم بيسر(3) كما كان لبساطة التعاليم الإسلامية ووضوحها ، أثر كبير في جذب هذه الشعوب للإسلام ، وعلاوة على ذلك فالعقيدة الإسلامية بسيطة ، لا تتطلّب تجربة كبيرة للإيمان ، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية ، يصعب فهمها ، كما كانت خالية من المخارج ، والحيل النظرية اللاهوتية ، فهو دين فطرة بطبيعته سهل لا لبس فيه ، ولا تعقيد

(1) العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ ص 507 .

(2) Trimingham, J.S., Islam in West Africa, pp.13 - 14.

(3) Ercelich, J.C., Essai sur les Causes et Méthodies de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest Du XI^e Siècle au XX^e Siècle, "Islam in Tropical Africa", p.121.

في مبادئه ، سهل التكييف والتطبيق على مختلف الظروف ، وإنَّ وسائل الانتساب إلى الإسلام أيسر ، إذ لا يتطلَّب من الشخص لإعلان إسلامه سوىٰ النطق بالشهادتين ، حتىٰ ينضمّ إلى جماعة المسلمين ، كما أنَّ الإسلام لم يفرض على القبائل الزنجية التي اعتنقت الإسلام ، أن تغيّر من نظام معيشتها أو تفكيرها الديني ، إلاَّ ما تخالف العقيدة الإسلامية[1] .

وقد استمرَّ هؤلاء الدعاة في نشاطهم حتىٰ بعد سقوط دولة المرابطين يعملون في دأب ونشاط ، وقد أشار البرتغاليون الذين استعمروا بعض المناطق في غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي ، أي بعد المرابطين بأكثر من ثلاث قرون ، إلى وجود الدعاة من صنهاجة اللثام ، ومن العرب الذين كان لهم تأثير كبير بين التكرور والولوف ، والماندنجو[2] .

دور التجار :

ونتيجة أخرىٰ لتوحيد المرابطين بين هذه الأقاليم ، وسيطرتها على الطرق التجارية ، واستتباب الأمن داخل الدولة ، وعبر هذه الطرق ، التي امتدَّت من أقصىٰ شمال القارة إلى مناطق الذهب بالسودان ، ازدهرت الحركة التجارية ، ونشطت قوافل المسلمين بين الشمال والسودان « كانت أيامهم أيام دعة ، ورفاهية ، ورخاء متّصل ، وعافية وأمن »[3] .

ومع التجارة جاءت الأفكار ، والتعاليم الإسلامية ، وأصبحت المراكز التجارية مراكز للدعوة والفكر الإسلامي ، فكان التجار ورجال العلم من الطلبة

---

(1) Chailley, Marcel, op.cit, p.35,
Trimingham, J.S., The phases of Islamic expansion and culture zones in Africa, "Islam in tropical Africa", p.16.

هوبير ديشان ، الديانات في إفريقيا السوداء ، ترجمة أحمد صادق ، ص 128 .

(2) Lewis, J.M., Regional review of distribution of Islam, "Islam in Tropical Africa", p.16.

(3) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 167 .

والدعاة يحضرون معهم الأفكار المتحضرة عن الحكومات الإسلامية خاصة في النـواحي الإدارية ، فعملوا كمتـرجمين ونسّاخ ووزراء للمـالية لمعـظم حكام ممالك السودان[1] .

فكان هؤلاء التجار يقدمون أنفسهم لبـلاط الملوك الوثنيين حيث كـانوا يستقبلون بترحاب كبير لسموّ أخلاقهم ولمكانتهم وخبرتهم بالسياسة والإدارة ، فسهل لهم ذلك الدخول شيئاً فشيئاً في وسط الحاشية حتىٰ أصبحوا عناصر لا غنىٰ عنها ، وعندما كان يجد هؤلاء التجّار أنَّ السلطة الـدينية في يـد الملوك قوية ، كان هؤلاء التجار بخبرتهم يتوصّلون إلى العمل كمستشارين للملك ، وبذلك يضمنون لأنفسهـم حماية الملك ، والتي عن طريقها يستطيعـون خلق أسواق تجارية يقيمون فيها المساجـد لتأدية صلاتهم ، فتنجـذب إليهم عامـة الناس التي تكن لهم الاحترام[2] .

وقد نجح التجار بفضل مـا وصلوا إليه من مـراكز سـامية في المـمالك السودانية في أن يـدخلوا الملوك في الدين الإسـلامي ، وعن طريقهم كـانت الحاشية والطبقة الأرستقراطية في المملكـة تعتنق الإسلام بـدورها ، وكـانت حركة انتشار الإسلام هذه التي قام بها التجار ، ودعاة المرابطين موجّهـة إلى الأمراء ، والرؤساء الذين في يدهم زمام الأمور ، لأنَّ طبيعة هذه الممالك قبل إسلامها ، كانت تنقسم إلى طبقات اجتماعية مندرجة ، فتعتمـد على الطبقـة الأرستقراطية ، والطبقة العسكرية ، فكان معنىٰ إسلام هذه الطبقة هو دخـول بقية أفراد الشعب في الدين الإسلامي[3] .

وكـان التجار سـواء من البربـر أو العرب أو البـول Peul أو المانـدنجـو يجمعون بين بيع تجارتهم ، وبين نشر الدعوة وكانت مهنة التجارة وحدها تصل

---

(1) Awe, Bolanle, Empires of the Western Sudan, p.57.

(2) Froelich, J.C., op.cit, p.169.

(3) Awe, Bolanle, op.cit, p.57 and Froelich, J.C., op.cit, p.169.

التاجر بصلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام ، وتنفي عنه كل ما يحتمل أن يتهم به من دوافع شريرة فإذا ما دخل مثل هذا التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه ، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة ، فكان منظر التاجر المسلم في صلاته وسجوده الكثير ، وعبادته لله الذي لا يراه في سكينة واستغراق ، يؤثر في الزنجي الوثني ، وكان لما يتحلَّىٰ به من كرم الأخلاق ، وسموّ التفكير أنه كان يفرض احترامه ، والثقة به بين الأهالي الوثنيين الذين يبدي لهم في نفس الوقت استعداده ، ورغبته في مدّهم بمزاياه ، ومعارفه السامية[1] .

وحيثما تزدهر التجارة تنشط الهجرة ، وتنشأ التجمّعات الإسلامية الجديدة حيث تحتاج إلى المعلمين لتعليم الصغار وإدارة الحياة الوثنية ، وليفسروا الشريعة ، وازدهرت المراكز المحلية بوجود المدارس لتعليم المسلمين[2] ، وكل شيخ من هؤلاء الفقهاء تتلمذ على يده عدد كبير من أهل البلاد ، وهؤلاء بدورهم أخذ العلم عنهم عدد آخر من التابعين[3] .

ونتيجة للحركة التجارية النشطة في المنطقة ، وتبادل الأفكار الدينية وانتشار الإسلام ، نشطت قوافل الحج إلى الأراضي المقدسة ، فكانت تخرج من غرب إفريقيا قوافل عديدة ، حيث يجتمع المؤمنون في الأراضي المقدسة ، على اختلاف شعوبهم ، ولغاتهم من كافة أنحاء العالم ، للصلاة والحج في ذلك المكان المقدس ، الذي يولون وجوههم شطره في كل وقت من أوقات عبادتهم ، في أوطانهم المختلفة ، وعندما يعودون إلى بلادهم ، يكونون مملوئين بالحماسة من أجل نشر العقيدة السامية ، فيقف هؤلاء الحجاج جهودهم على الجهاد ، ونشر الإسلام[4] .

---

(1) توماس آرنولد ، المرجع السابق ص ص 391 ، 461 .

(2) Ford, Dary II, op.cit, p.28.

(3) Chailley, Marcel, op.cit, p.34.

(4) توماس آرنولد ، المرجع السابق ص 391 ،

Chailley, Marcel, op.cit, p.34.

وقد ذكر بعض المؤرّخين أنّ قوافل الحج كانت تسافر من السودان الغربي فيذكر ابن خلدون حج ملوكهم فيقول : « وحج جماعة من ملوكهم ، وأول من حجَّ منهم برمندار ، وسمعت في ضبطه برمندانة »[1] .

والملك برمندانة هذا قام بزيارة الأراضي المقدسة ، وأداء فريضة الحج في نهاية القرن الحادي عشر (نهاية الخامس الهجري)[2] .

ازدهرت في عصر المرابطين المراكز التجارية في غرب إفريقيا والتي تحولت إلى مراكز ثقافية ، تشعّ العلم والمعرفة ، وكانت من أهم هذه المراكز أودغشت وغانة وجنىٰ وتمبكت ، بل لقد وصلت مدارسهم إلى مستوىٰ المدارس المشهورة في ذلك الوقت مثل فاس ، والقيروان ، وقرطبة وغيرها[3] .

أودغشت :

تعتبر أودغشت من المراكز الثقافية الهامة ، التي كان لها دوراً كبيراً في نشر الإسلام والثقافة العربية في منطقة السودان ، فقد كانت من المراكز الأولىٰ التي انبعث منها هذا الدين إلى رحاب السودان ، في ركاب المرابطين .

كانت أودغشت عاصمة لصنهاجة اللثام في القرن الرابع الهجري ، ثم استولت عليها مملكة غانة الوثنية ، ولكنَّ الملثمون استطاعوا استعادتها في حركة المرابطين الأولىٰ ، بقيادة الشيخ عبد الله بن ياسين ، ومنها انطلقت موجات من دعاة المرابطين إلى بلاد السودان[4] .

وكان لموقعها الممتاز كمحطة تجارية هامة لقوافل الصحراء ، أثر كبير

(1) ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ 5 ص 433 . القلقشندي ، المصدر السابق ، ص 193 .
(2) Trimingham, J.S., Islam in West Africa, p.85.
(3) Cardot, Véra, Belles pages de l'histoire Africaine, p.133.
(4) Cornevin, Robert, Histoire de l'Afrique, des origines au XVI^{e} Siècle, Tome I, p.297.

في نشـر الأفكار ، والثقـافات التي يحملهـا التجّار والمسـافرون من العلمـاء والطلاب عبر الصحراء[1] .

وقد وصفها البكري المعاصر لحركة المرابطين بأنها مدينة زاهرة ، يتألّف سكانها من العـرب والبربـر والسودانيين ، وكـانت تحيط بأودغشت البسـاتين والنخيل ، وفيها مساجد كثيرة آهلة ، وكان بهـذه المساجـد المعلمون لتعليم القرآن الكريم ، والسنّـة وتعاليم الإسـلام ، كما كثـرت بها المـدارس لتعليم الأطفال[2] .

واشتهرت أودغشت بمبانيها الجميلة ، وسوقها العامرة ، التي لا يسمع الرجل فيها كلام جليسـه لكثرة الضـوضاء والـزحام ، وكـان بها جميـع أنواع التجـارة من الحبوب والفـاكهـة ، التي تـرد إليهـا من بـلاد المغـرب ، وبهـا الصناعات المعدنية التي بلغت درجة كبيرة من الرقيّ والإتقان ، وكانت تتاجر في الأقمشة الحريرية الموشاة التي يدفع ثمنها تبراً[3] .

غانة :

كانت عاصمة إمبراطورية غانة أو أوكار كما أوردها البكري الذي وصفها سنة 460 هـ [4] ـ 1067 م ، فأمدنا بمعلومات مهمة ، فذكر أنه استقرّ بها عدد من المسلمين التجّار والدعاة ، رحلوا إليها من أودغشت ومن المغـرب ، فكانت تضم نحـو اثنيّ عشر مسجـداً ، وعند استيـلاء الأمير أبي بكـر بن عمـر أميـر المـرابـطين عليهـا سنـة 476 هـ ـ 1076 م الحق بكـل مسجـد مـدرسـة لتعليم القرآن ، وقواعد الدين ، واللغة العربية ، وكان القسم الإسلامي من العاصمة الذي يضمّ هذه المساجد مليئاً بالعلماء والفقهاء والأئمّة[5] .

---

(1) Cornevin, R., Ibed.

(2) البكري ، المصدر السابق ص 158 .

(3) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(4) المصدر نفسه ص 147 .

(5) البكري ، المصدر نفسه ، ص 175 .



أطلال مدينة غانة التي عثرت عليها بعثة المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء .I. F. A. N

Cardot, Véra, Belles pages de l'histoire Africaine, p.12.



حائط منزل بين أطلال مدينة غانة

بعثة .I.F.A.N

Cardot, Véra, Ibid. p.16.

كانت اللغة العربية هي لغة العبادة ، والثقافة الوحيدة في البلاد ، هذا علاوة على أنَّ اللغة العربية ، كانت لغة التجارة المستعملة في التبادل التجاري والمكاتبات[1] .

وكان المسلمون يمثّلون حضارة رفيعة في هذه البلاد ، واعترف الغانيون للمسلمين بالتفوّق الثقافي والحضاري ، فكانوا يستدعونهم ليشاركوا في إمارة البلاد ، بخبراتهم الواسعة ، واستعان ملوك غانة بالمسلمين ، كوزراء لهم ومترجمين ، وكثير منهم تولّىٰ الإشراف على بيت المال ، كما استفاد بهم تجار غانة لخبرتهم الواسعة ، وللثقة الكبيرة التي يتمتّعون بها[2] .

وازدهرت مدينة غانة فأصبحت تعجّ بالتجار وعملائهم ، والفقهاء ، والطلبة وكان سكانها يبلغون أكثر من ثلاثين ألف نسمة ، ومساكنها من الحجارة ، وبعضها من طابقين ، وتشمل عدداً كبيراً من الحجرات[3] .

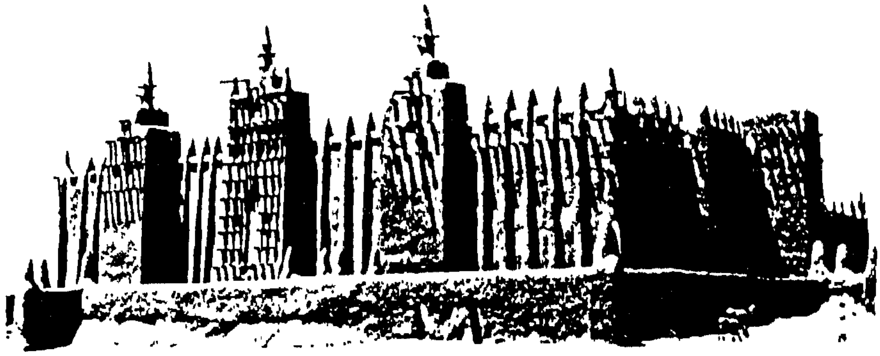
وقد عثرت بعثة المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء L'Institute Française d'Afrique Noire في سنة 1939 ، 1949 ، 1950 على أطلال مدينة غانة التي تدلُّ علىٰ مدىٰ ما كانت عليه من ازدهار ، وما كانت تمتاز به من مبانٍ جميلة وشوارع واسعة[4] .

جنىٰ :

أسّست هذه المدينة على نهر النيجر الأعلىٰ ، في منتصف القرن الثاني من الهجرة النبوية الشريفة (حوالي سنة 800)[5] .

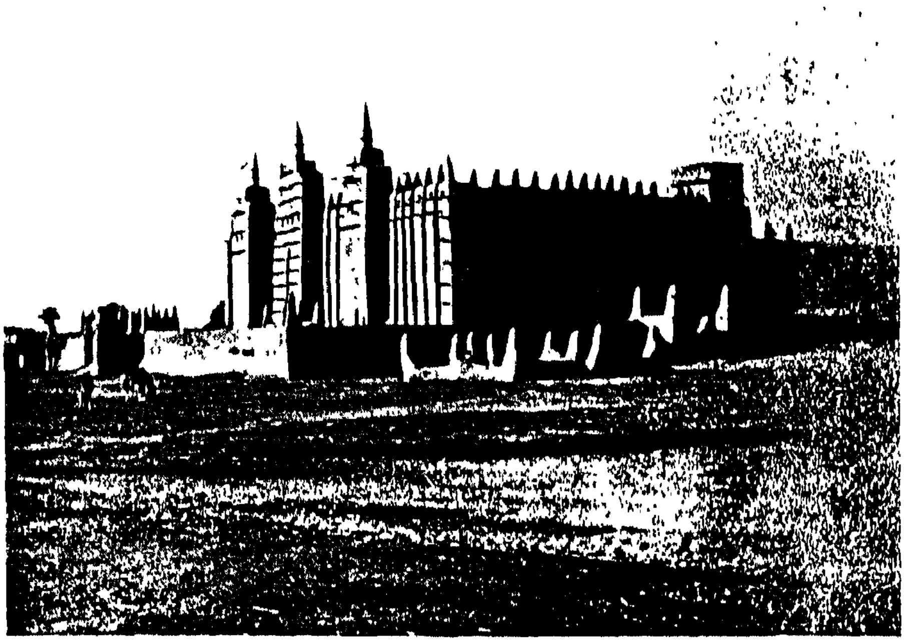
---

(1) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها . نعيم قداح ، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام ص 41 .
(2) البكري ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(3) Addison, John, Ancient Africa, p.48.
(4) Cardot, Véra, op.cit, p.24.
(5) السعدي ، تاريخ السودان ص 11 .
Cardot, Véra, op.cit, p.101.



Cardot, Véra, op.cit, p.119.

المسجد الجامع من جنى .



Cardot, Véra, op.cit, p.113.

المسجد الجامع من جنى .

وأسلم أميرها كنبـرو في نهايـة القرن الحـادي عشر الميـلادي (آخـر الخامس الهجري) في عهد المرابطين ، وحذت حذوة الرعيّة ، وتمَّ إسلامها في نهاية القرن السادس الهجري[1] .

ويبدو أنَّ كثيراً من الدعاة والعلماء كانوا يعيشون في هذه المدينة إذ يذكر السعـدي صاحب تـاريخ السـودان ، أنه عنـدما عـزم هذا الأميـر على اعتناق الإسلام ، جمع كل العلماء في مملكته ، وكان عـددهم أربعة آلاف ومـائتيّ عالم ، وأسلم على يدهم ، وطلب منهم أن يدعو الله أن ينصـر مدينتـه ، ثم هدم قصره ، وبنىٰ مكانه مسجداً عظيماً مبالغة في حبه للدين الإسلامي[2] .

ومع أنَّ عدد العلماء الذي ذكره السعدي مبالغاً فيه ، فإنَّه يدلُّ على أنَّ الحياة العلمية كانت مزدهرة ، وأنَّ الاهتمام بتعلّم الإسلام كان كبيراً[3] .

وازدهـرت جنىٰ في عهد المـرابطين بسبب تـأمين الطرق التجـاريـة ، وانتشار الأمن ، وامتازت بسعتها ، وبأنها سوق عظيمة من أسواق المسلمين ، يلتقي فيها التجار من جميع البلاد[4] .

ووفـد إليها طـلاب العلم والفقهاء ، يقـول السعدي : « وقـد ساق الله تعالىٰ لهذه المدينة المباركة ، سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهله من قبـائل شتّىٰ ، وبـلادٍ شتّىٰ »[5] ـ وكان الـطلبة يسـرعون إلى العلمـاء والفقهاء لاقتبـاس علمهم ، والتتلمـذ على أيـديهم ، وكـانت الحلقـات الـدراسيـة ، والمناقشات العلمية تبدأ من منتصف الليل إلى صلاة الصبح ، وبعد الصـلاة يجلسون حول العلماء إلى الزوال ، تتخلّلها فترة راحة ، وتبدأ من جديد بعد

---

(1) السعدي ، المصدر ا لسابق ص 12 .
(2) السعدي ، المصدر نفسه ص ص 12 ، 13 .
(3) المصدر نفسه ص 11 .
(4) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(5) المصدر نفسه ص 16 .

صلاة الظهر إلى صلاة العصر[1] ، هكذا كانت الحياة الثقافية والعلمية بجنىٰ في ذلك العهد فهي « مدينة ميمونة مباركة ، ذات سعة وبركة »[2] .

تمبكت :

تعتبر من أهم المراكز التجارية والثقافية في غرب إفريقيا ، وقد أنشئت في آخر القرن الخامس الهجري سنة 490 هـ[3] ـ 1906 م ، في عهد الأمير يوسف بن تاشفين ، وقد بلغت مكانة كبيرة في الثقافة العربية ، حتىٰ أنها كانت لا تقلّ عن مكانة القيروان في تونس ، أو فاس في المغرب الأقصىٰ ، أو قرطبة في الأندلس ، أو القاهرة في مصر[4] .

ويذكر السعدي أنَّ قوماً من طوارق مقشرن ، إحدىٰ قبائل الملثمين هي التي اختطَّت هذه المدينة ، وكانوا بدواً ، يرعون الأغنام ، فكانوا «يصيّغون على ضفاف النيجر في موقع هذه المدينة ، ثم يرحلون في الخريف إلى ديارهم ، وبعدها استقرَّ بهم المقام بسبب استقرار المرابطين ، فأنشئت هذه المدينة ، التي أضحت سوقاً هاماً يؤمّها التجار ، والقوافل[5] .

وسرعان ما اقتفىٰ العلماء أثر التجار ، فكانت مركزاً للحياة الفكرية والثقافية ، اجتمع فيها العلماء من جميع الأجناس والألوان ، ووفد إليها علماء وفقهاء من بلاد المغرب ، والأندلس ، ومصر ، والحجاز ، وكافة بلاد السودان ، حيث يجد بها العلماء والطلاب التشجيع والرعاية[6] ، وليأخذوا

---

(1) السعدي ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ،
Cardot, Véra, op.cit, p.108.

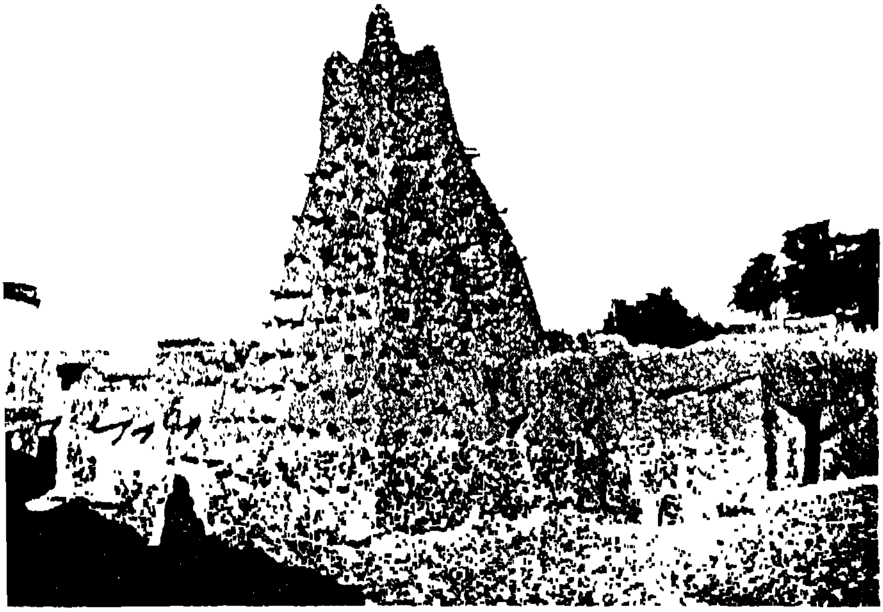
(2) السعدي ، المصدر السابق ص 11 .

(3) السعدي ، المصدر نفسه ص 20 . د . حسن أحمد محمود ، المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين (المجلة التاريخية المصرية) مجلد 12 سنة 1964 ، ص 116 .

(4) Cardot, Véra, op.cit, p.133.

(5) السعدي ، المصدر السابق ص 20 . د . حسن أحمد محمود ، دور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقيا (المجلة التاريخية المصرية) مجلد 14 سنة 1968 ص 83 .

(6) Addison, John, op.cit, p.57.
Anta Diop? L'Afrique Noire Pré -Coloniale, p.131 and
Cardot, Véra, op.cit, p.131.



Cardot, Véra, op.cit, p.129.

جامع سنكري في تمبكت .



Cardot, Véra, p.129.

الجامع الكبير في تمبكت .

العلم عن علمائها[1] .

ومدينة تمبكت مدينة إسلامية منذ نشأتها ، يقول السعدي عنها إنّها : « مدينة إسلامية منذ البداية ، ما دنّستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها لغير الرَّحمٰن ، مأوىٰ العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء ، والزاهدين ، وملتقىٰ الفلك ، والسيار ، فجعلوها خزانة متاعهم ، وزروعهم ، إلى أن صارت مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم»[2] .

وقد أنشأ بها المسجد الجامع أول ما أنشأ ، ثم أنشأ جامعها الشهير سنكري ، وقد بنت هذا الجامع سيدة تعرف باسم سنكري ، وكانت سيدة ثرية[3] ، وإن كان القاضي محمود كعت[4] ، والسعدي[5] لم يذكرا تاريخ بناء هذا الجامع لقدم عهده . وكان جامع سنكري يضم نخبة من الفقهاء ، والعلماء أكثرهم من قبيلة جدالة[6] .

ومع أنَّ السعدي ذكر أنه تخرَّج فيه علماء ، وكان لأكثرهم الفضل في نشر الإسلام ، والثقافة العربية ، حتىٰ أنه برزت منهم طائفة وصلت إلى مرتبة الإمامة ، إلاّ أنه للأسف لم يذكر لنا بعض أسماء هؤلاء العلماء ، أو تراجم لهم في عصر المرابطين ، وكل ما ذكره كان متأخراً ، ومع ذلك فقد ذكر أنَّ هؤلاء العلماء قد تميّزوا بالتخصّص في النحو ، والمنطق ، والأدب واللغة والتفسير ، والحديث .

وكان الطلاب يفدون إلى جامع تنبكت بعد أن يكونوا قد أتمُّوا حفظ

---

(1) Froelich, J.C., op.cit, p.163.

(2) السعدي ، المصدر السابق ص 21 .

(3) كعت ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص 121 . السعدي ، المصدر السابق ص ص 62 ، 63 .

(4) كعت ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(5) السعدي ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(6) السعدي ، المصدر نفسه ص 27 .

أجزاء من القرآن ، في مدارسهم المحلية ، فإذا أتمّوا هذه الدراسات الأولية ، شدّوا الرحال إلى تنبكت ، وأقاموا بها حتىٰ يتمّ تعليمهم ، وكانت معيشة هؤلاء الطلاب ميسرة ، فقد كان يستضيفهم الأثرياء من أهل المدينة وتجارها ، وكان لجامع سنكري أوقافاً ، ينفق من ريعها على طلبة العلم[1] .

وهذه الدراسة لم تكن محدودة بزمنٍ معيّن ، إنّما كانت رهناً بانتهاء الطالب من استيعاب عدد معلوم من كتب الفقه والحديث والمنطق والنحو[2] . بل لقد كان الطلبة ينفقون أكثر من ثلاث سنوات في قراءة موطأ مالك ، وغيره من كتب المذهب المالكي ، والسير ، وعلم الحديث ، وأيام الناس[3] .

وعندما ينتهي الطالب من هذه الدراسات المتنوعة ، فإنّه يحصل على إجازة تؤهّله للعمل بتعليم القراءة ، أو الخطابة ، أو الإمامة ، أو القضاء[4] . ونتيجة لازدهار هذه الحياة العلمية ، أقبل الناس في شغف على اقتناء المكتبات الخاصة التي تعجّ بالكتب العربية ، وكثرت المكتبات العامة[5] .

ومع أنّ الحسن الوزان (ليو الإفريقي) قد زار هذه البلاد بعد انتهاء دولة المرابطين بأكثر من أربعة قرون ، إلاّ أنه ذكر أنه يوجد بتمبكت كثير من الفقهاء ، والأطباء ، والدعاة ، الذين كانوا يعينون بأمر ملكي ، وكان الملك يحترم العلماء والأدباء ، ويشتري كثيراً من المخطوطات ، ولا يبخل بدفع أثمانها مهما ارتفعت ، ممّا يدلُّ على تقديره الشديد لرجال العلم ، والأدب[6] .

---

(1) ، (2) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص ص 85 ، 86 ،

Cardot, Véra, op.cit, p.135.

(2) السعدي ، المصدر السابق ص ص 29 ، 45 . د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 85 ،

Froelich, J.C., op.cit, p.163.

(3) Cardot, Véra, op.cit, p.136.

(4) كعت ، المصدر السابق ص 94 . السعدي ، المصدر السابق ص 51 .

(5) Leo Africanus, A. Geographical history of Africa, Tome Ii, p.468 note 47.

وكان فقهاء وعلماء تنبكت كثيراً ما يقيمون بفاس ، ومراكش ، يعلمون ، ويتعلّمون[1] ، فكانت تمبكت منارة العلم في السودان « سكنها الأخيار من العلماء ، والصالحين ، وذوي الأموال من كل قبيلة ، ومن كل بلاد »[2] .

وارتبطت المدارس في غرب إفريقيا ارتباطاً شديداً بالدين وفي أول الأمر ألحقت المدارس بالرباط ، حيث كان يقيم المرابطون للتعبّد ، والتعلّم ، فكان الشيخ عبد الله بن ياسين معلّمهم الأول ، يعلّمهم الشريعة ، ويقرىء الكتاب والسنّة ، حتىٰ صار حوله فقهاء ، ورتّب لهم أوقاتاً للمواعظ[3] ، وعندما كان ينتهي من تعليم رواد الرباط هذه الأشياء كان يأمرهم بالذهاب إلى قبائلهم لينشروا الإسلام على أسس سليمة ، بعيدة عن البدع والجهل[4] .

وبتوسع المرابطين ، وخروجهم للجهاد ، أصبحت المدارس ملحقة بالمساجد فكان إلى جانب كل مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد ، وكانت هناك أمكنة لنوم الطلاب الذين يحضرون من أماكن بعيدة ، على أنّ المساجد كانت بمثابة المقرّ الرئيسي لتلقّي العلم ، إذ كانت تعقد في المسجد حلقات للدراسة ، والمناقشة في أمور الدين الخافية[5] .

وقد قلّد السودان هذا النوع من المدارس ، فأصبحت تلحق بكل زاوية من زوايا الفرق المذهبية ، والدينية ، مدرسة لتعليم الأطفال ، على أنّ القرىٰ الصغيرة ، التي تخلو من المساجد ، كان أطفالها يتلقّون تعليمهم على يد أحد

---

(1) د . حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص 87 ،
Cardot, Véra, op.cit, p.136 and
Froelich, J.C., op.cit. p.163.

(2) السعدي ، المصدر السابق ص 21 .

(3) النويري ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، جـ 22 ص 151 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 125 .

(4) ابن أبي زرع ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(5) نعيم قداح ، المرجع السابق ص 141 .

الدعاة ، في ساحة صغيرة أو في إحدىٰ الغرف في أحد بيوت القادرين[1] .

وقد وجد السودان في الإسلام ثقافة ملائمة لحاجتهم ، فأقبلوا عليها ، ويتمثَّل حبهم للعلم في إكرامهم للمعلم ، فهو محترم من الجميع ، ويجزلون له العطاء ، لأنَّ كثيراً من المعلمين كانوا يعملون لوجه الخير والمعرفة ، وكان التعلم مقصوراً في أول الأمر على الفقهاء ، والدعاة القادمين من الشمال ، ولكن بعد مدة تكوّنت طبقة مثقّفة من السودان ، تولّت مهمة التعليم ، وكانت غالبيتهم من الفقهاء الذين أتقنوا اللغة العربية ، لغة الدين والثقافة والتجارة[2] . وقد تأثَّر السودان بالتقاليد الروحية الشديدة ، فكان العرف السائد أنَّ الطفولة يجب أن تتلقَّىٰ تهذيباً سليماً ، قبل أن تتسرَّب إليها العادات القبيحة فكان الأطفال يذهبون إلى المدرسة في الخامسة لتلقّي العلم[3] .

وقد انتقل حب المغاربة للنحو والصرف إلى السودان ، لأنَّ كثيراً من كتب النحو ، حملها الأساتذة العرب والبربر ، إلى إفريقيا الغربية ، صحبة ما أدخلوه إلى تلك البقاع ، وكان الطلاب يقبلون على الدراسة بشغف ونهم واضح ، ممَّا ساعد على انتشار المدارس[4] .

وقد بلغت اللغة العربية ، وهي اللغة التي تكتب بها الكتب الدينية وغيرها ، حداً يفوق كل وصف من الغنىٰ والجمال ، فإذا ما تعلموا هذه اللغة ، أصبحت لغة التخاطب بين معظم القبائل ، وهذا يعتبر تقدماً من الناحية الحضارية ، إذ صحب ذلك ظهور صناعات دقيقة متقدمة ، وكتجارة لا كالتجارة الصامتة التي تقوم على الإشارات ، ولا كالمبادلات البدائية في الخامات[5] .

---

(1) Trimingham, J.S., The influence of Islam upon Africa, p.60.

(2) Ford, Dary II, op.cit, p.26.

(3) Anta Diop, op.cit, pp.131 - 132.

(4) نعيم قداح ، المرجع السابق ص 145 .

(5) توماس آرنولد ، المرجع السابق ص 389 .

ملحـق

رسائل ابي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأندلسي

دراسة، ونشر، وتحقيق

أولاً - الدراسة:

هذه المخطوطة لم يسبق نشرها ، وقد عثرت عليها[1] أثناء زيارتي للمملكة المغربية 1973 ، بدار الوثائق الوطنية بالرباط تحت رقم D.1020 وهي ضمن مجموعة من ثلاثين ورقة ، منفصلة في الوسط ، ومبتورة من الأول والآخر ، ممّا يتعذّر معه معرفة الناسخ ، وتاريخ كتابتها ، وهي مكتوبة بخط مغربي متوسط الجودة ، والعناوين مميزة بالحبر الأحمر ، والأصل بحبر أسود . والأوراق ليست في حالة جيدة ، تكثر بها الثقوب ، ومسطرتها تبلغ 16 سطراً في الصفحة ، ومتوسط عدد الكلمات في السطر من 15 إلى 18 كلمة ، ويقع الجزء الذي أنشره بين وجه الورقة رقم 27 ، وظهر الورقة رقم 35 .

وقد قمت بتوضيح الكلمات الصعبة ، والإشارة إلى المدن التي وردت ، واستخرجت الآيات القرآنية ، وأسندت الأحاديث النبوية ، كما ترجمت للأسماء التي وردت في المخطوطة ، وصحّحت الأخطاء الإملائية ، والنحوية وأشرت إلى ذلك في الهوامش .

ويشمل هذا الجزء من المخطوطة :

أولاً : رسالة القاضي ابن العربي إلى الخليفة المستظهر العباسي ، يزكي

---

(1) يرجع الفضل في إرشادي إلى هذه المخطوطة للأستاذ إبراهيم الكتاني مدير دار الوثائق بالرباط .

الأمير يوسف بن تاشفين عنده ، ضمنه ذكر حال يوسف بن تاشفين ، وأفعاله ، وولاءه للخلافة العباسية ، وسيرته في الناس ، وطلب في أثر ذلك من الخليفة استصدار تقليد من الخلافة العباسية لإقرار سيادة ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين الأمير يوسف بن تاشفين على بلاد الذهب (ممّا يلي غانة) والمغرب والأندلس حتىٰ يقوم بأمره ، ويؤيِّد سلطانه ، كما طلب توصية من الخليفة له ولابنه محمد .

وجاء ردّ الخليفة المستظهر على ظهر الخطاب في صورة توقيع ، في سبعة وثلاثين سطراً ، مؤرّخاً في رجب سنة 491 هـ ـ 1097 م[1] . وكان التوقيع تمجيداً للخلافة ، وحثّاً على الطاعة ، وتقديراً لما يبذله يوسف بن تاشفين ، وفي الخاتمة توصية بابن العربي ، وولده .

ثانياً : رسالة وزير الخليفة العباسي محمد بن جهير ، باسم الخليفة نفسه موجه إلى يوسف بن تاشفين كتبت في الثاني عشر من رجب من السنة نفسها ، وفيها تقدير لما قام به أمير المسلمين ، وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، وثناء على حسن رأيه ، وفي نهايتها أيضاً توصية بابن العربي ، وبابنه .

ثالثاً : خطاب الإمام أبي حامد الغزالي ، وكان يتضمَّن مطلبين لابن العربي ، أولهما استصدار فتوىٰ حول موقف الأمير يوسف من أمراء الطوائف ، وحقه في قتال هؤلاء الأمراء ، والظفر بأموالهم ، وحق الطاعة ليوسف بن تاشفين .

والمطلب الثاني هو أن يبعث رسالة تأييد لجهاد الأمير يوسف بن تاشفين وتأييد سياسته ، ورسالة الغزالي غير مؤرّخة ، ولكن من سياق الرسالة ، يفهم أنها صدرت قبل رسالة الخليفة بقليل .

ولفتوىٰ الغزالي أهمية كبيرة ، إذ أظهرت حق يوسف بن تاشفين

(1) أبو بكر ابن العربي ، الرحلة ورقة 29 م .

في جهاد ملوك الطوائف ، وأفتىٰ بشرعية حكم يوسف بن تاشفين ، حتىٰ ولو تأخّر وصول تقليد الخلافة « فالكتب قد يعوق عن إنشائها ، وإيصالها المعاذير »[1] ـ وطلب الإمام الغزالي من الخليفة سرعة إرسال التقليد .

أمّا الرسالة التي وجّهها الغزالي إلى يوسف بن تاشفين ، فيقصّ فيها ما سمعه من الفقيه ابن العربي عن جهود يوسف في جهاد الممالك المسيحية ، وتبجيله لأهل العلم وإكرامهم ، ثم هو يوصي يوسف بن تاشفين خيراً بالإمام ابن العربي وولده محمد ، ويشير إلى جدهما في تحصيل العلم .

رابعاً : رسالة الإمام أبو بكر الطرطوشي إلى يوسف بن تاشفين ، وهذه الرسالة تختلف عن رسالة الإمام الغزالي ، إذ أنها تدور على الوعظ والإرشاد مؤيّدة بكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والروايات عن الصالحين وأهل الخير ، خاصة الخليفة أبو بكر الصدِّيق ، وعمر بن الخطاب ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، كما أنّه يستخدم عبارة « يا أبا يعقوب » في مخاطبته ليوسف بن تاشفين ، ولكنّ المستغرب في هذه الرسالة ، ما ذكر الطرطوشي من أنّ يوسف بن تاشفين ، قد لبس الناعم من الثياب ، وانغمس في ملذّات الحياة ، مع أنّ المصادر لم تذكر شيئاً من هذا ، بل لقد أشارت إلى أنّ يوسف بن تاشفين ظلّ إلى آخر حياته يأكل خبز الشعيرة ، ويلبس الصوف[2] .

ورسالة الطرطوشي يبدو أنّها كتبت في سنة 493 هـ ـ 1099 م بعد وفاة ابن العربي والد أبو بكر بعد وصولهما إلى الإسكندرية ، إذ أنها لا تتضمّن إلاّ توصية بالإبن وحده فيوجّه كلامه إلى الأمير يوسف بقوله :

---

(1) أبو بكر بن العربي ، الرحلة ورقة (31 م) .

(2) ابن أبي زرع ، روض القرطاس في 136 . الحلل الموشية ص 59 .

« وهو وارد عليك بما يسرّك ، فاشدد عليه يدك »[1] .

والقاضي أبو بكر بن العربي ، تلقّىٰ تعليمه الأول[2] في الأندلس ، وعندما غادرها ، برفقة والده ، كان يخطو نحو السابعة عشرة من عمره ، وقد حققت له الرحلة الالتقاء بمشاهير الفقهاء ، والعلماء في ذلك الوقت أمثال الغزالي ، والطرطوشي ، وغيرهما[3] .

وكان أبو بكر بن العربي موضع احترام والي إشبيلية ، الأمير سير بن أبي بكر ، فكان من الفقهاء المشاورين[4] ، لغزارة علمه ، فقصده طلاب العلم من جميع أنحاء الأندلس ، وقد عاش إلى عام 543 هـ ـ 1148 م [5] .

ومع أنَّ عنوان المخطوط هو : « رحلة أبي بكر المعافري » إلَّا أنه لم يذكر فيها تفاصيل الرحلة ، وإنَّما أشار إلى أنَّه سوف يذكر ذلك بالتفصيل في كتاب آخر يسمَّىٰ : « ترتيب الرحلة ، للترغيب في الملَّة »[6] ومع ذلك نجده قد وصف الرحلة في كتاب « قانون التأويل » ، وهو ضمن مخطوطة تضم كتاب آخر لابن العربي يسمَّىٰ : « الأمد الأقصىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ » وقد قام الدكتور إحسان عباس بتحقيق ونشر جزء من كتاب « قانون التأويل » من

---

(1) أبي بكر بن العربي ، المصدر السابق ، ورقة 35 ب .

(2) كان تعليمه الأول على مرحلتين ، الأولىٰ حفظ القرآن ، وقد انتهت في التاسعة من عمره ، والثانية مرحلة تلقِّي العلوم الأولية ، بين التاسعة والسادسة عشرة وفيها درس القرآن ، والنحو معتمداً فيه على أصول متعددة منها كتاب سيبويه وغيره ، وقرأ من الأشعار الستة (المعلّقات) ، وديوان أبي تمام ، والمتنبّي ، وغيرها ، وقرأ كتباً في اللغة ودرس المعاملات ، والجبر والفرائض ، وكانت فترة الدراسة اليومية تمتد من صلاة الصبح إلى صلاة العصر .

د . إحسان عباس ، رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صوّرها « قانون التأويل » ، (الأبحاث) سنة 1968 ص ص 71 ، 72 ، 73 .

(3) د . إحسان عباس ، المرجع السابق ص ص 80 ، 81 ، 82 ، 87 .

(4) ابن فرحون ، الديباج المذهّب ص 282 .

(5) ابن بشكوال ، الصلة جـ 2 ص 590 . ابن فرحون ، المصدر السابق ص 281 .

(6) أبو بكر بن العربي ، المصدر السابق ، ورقة 27 أ .

ورقة (138 أ ـ 143 ب) وهو الخاص برحلة ابن العربي من الأندلس إلى مصر والشام حتىٰ وصل إلى الخليفة العباسي[1] .

وقد ظهرت عدة آراء حول الغاية من هذه الرحلة ، فقد ذكر ابن فرحون أنَّ الغاية من الرحلة هي الحج[2] ، بينما يفهم من كتاب مطمح الأنفس لابن خاقان . أنَّ ابن العربي ، وابنه قد رحلا خشية من تغيير الأوضاع في الأندلس بعد استيلاء المرابطين عليها ، ودخولهم إشبيلية[3] بلد ابن العربي ، والذي كان يتبوّأ فيها المراكز العليا ، مقرّباً في بلاط المعتمد بن عباد[4] .

وقد رجح الدكتور إحسان هذا الرأي معتمداً على قول ابن خاقان عند ذكره وصف رحيل ابن العربي ، وابنه بقوله : « فلمَّا أقفرت حمص[*] من ملكهم (بني عباد) وألقتهم منها ، وتخلَّت ، رحل بابنه إلى المشرق ، وحلَّ فيه محل الخائف ، الفرق ، فجال في أكتافه ، وأجال قداح الرجاء في استقبال العزّ ، واستئنافه ، فلم يسترد ذاهباً ، ولم يجد كمعتمده باذلاً وأهباً[5] .

كما استند الدكتور إحسان عباس أيضاً على بعض العبارات التي وردت لأبي بكر بن العربي في كتابه « قانون التأويل » مثل « ولم يمكن بأرضنا المقام ، فدعت الضرورة إلى الرحلة ، فخرجنا والأعداء يْشمتون بنا » والعبارة الأخرىٰ « فخرجنا مكرمين أو قل مكرهين ، آمنين وإن شئت خائفين »[6] ،

---

(1) د . إحسان عباس ، رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صوّرها « قانون التأويل » ، مجلة الأبحاث سنة 1968 .

(2) ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص 281 .

(3) دخل المرابطون إشبيلية في يوم الأحد 22 رجب سنة 484 هـ (7 سبتمبر 1097 م) . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 155 .

(4) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ص 62 .

(*) يقصد بحمص هنا إشبيلية . د . إحسان عباس ، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي . (الأبحاث) سنة 1963 ص 219 .

(5) ابن خاقان ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(6) د . إحسان عباس ، رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صوّرها « قانون التأويل » الأبحاث سنة 1968 ص 61 .

وفسَّر الدكتور إحسان على ضوء هذه العبارات أن ابن العربي ، وولده خرجا للحج ، وهما يزمعان النجاة من حكم المرابطين ، بعد زوال دولة بني عباد ، وتغيّر الأوضاع في الأندلس[1] . أو لعلَّه سعىٰ أن ينال حظاً جديداً في المشرق ، وأن يهيِّىء لقاء الأئمَّة هناك ، وليكون معيناً له في رحلته وهو رجل كبير السن ، وأنهما فكرا في أن يجعلا من هذه الرحلة سفارة شبه رسمية ، عندما أزمعا على العودة إلى بلادهما ، بعد هذا الغياب الطويل[2] .

لا شك أنَّ ابن العربي قد تأثَّر بزوال دولة بني عباد خاصة أنَّ المعتمد ابن عباد كان يجلّه ويحترمه ، يقول ابن فرحون : « وأبوه (والد أبو بكر) من فقهاء إشبيلية ، ورؤسائها . وحصلت له عند العبادية ، أصحاب إشبيلية رياسة ومكانة[3] ، وإن كنت أعتقد أنَّ ابن العربي لم ينسىٰ ما فعله العباديين لجده عمر بن الحسن فالمعتضد بن عباد قتل بيده جد أبي بكر بن العربي لأمه عمر بن الحسن بن عبد الرَّحمٰن الهوزني ودفنه بثيابه وقلنسوته وهيل عليه التراب داخل القصر حين أحسَّ بمنافسته للاستئثار بالسلطان[4] .

ولكن وضع ابن العربي لم يتغيَّر أو يتأثَّر بدخول المرابطين إشبيلية ، بدليل كثرة مدحه ليوسف بن تاشفين ، والثناء على الأمير سير بن أبي بكر والي إشبيلية[5] .

أمَّا بالنسبة لعبارات « فخرجنا والأعداء يشمتون بنا » ، « فخرجنا مكرمين ، أو قل مكرهين » فهي لا تدلُّ على أنَّ ابن العربي قد اضطره المرابطون لترك إشبيلية ، ولكن يبدو أنَّ ابن العربي قد صدم بعد أن عرف أنَّ المعتمد بن عباد أرسل إلى ألفونسو السادس يستغيث به ، ويستصرخه على

---

(1) د . إحسان عباس ، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي ص 219 .
(2) ابن فرحون ، المصدر السابق ص 281 .
(3) ابن العربي ، المصدرا لسابق ، ورقة 32 أ .
(4) ابن بشكوال ، الصلة رقم 863 ، ص 381 .
(5) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 155 .

المـرابطين ويعـده بإعـطاء البلاد[1] ، فـأحسّ بشماتـة النـاس لاكتشـاف أمـر المعتمد .

وقد أكّد ابن العربي هذا الأمر للإمام الغزالي بقـوله : « وعثـر لأحدهـم على خطاب يشجّع العدو على لقائه[2] ، فنرىٰ في كلمة « لأحدهم » مبلغ أسىٰ ابن العربي وعدم توقّعه أن يتصرف المعتمد هذا التصرّف ، فأغفل ذكر اسمه .

بل إنّنا نجد في كلام ابن العربي للإمام الغزالي ، أنه لم يكن راضياً عن الأوضاع في الأندلس ، قبل دخول المـرابطين فيقـول : « وقد كـانت جزيـرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمائة عـدة ثوار ، تسـوروا على البلاد ، فضعف أهلها عن مدافعتهم ، وتلقّبوا بألقاب الخلفاء ، وخطبوا لأنفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم ، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه ، وليستتابوا الفساق من الأرقاء ، والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضاً ، واستنجدوا بالنصارىٰ ، عندما اعتقـد كل واحـد منهم أنه أحق من صاحبه »[3] لذلك فإنّـه عندمـا وصلت الأنباء بمقتـل رسول يوسف بن تاشفين، القاضي عتيق بن عمران[4] الذي كان يحمل رسالة الخليفة العباسي إلى يوسف بن تاشفين ، فيبدو أنّ الأمير سير بن أبي بكر رشح للأمير يـوسف بن تاشفين القـاضي ابن العـربي للخليفـة العبـاسي . وقـد وافق ابن

---

(1) ابن العربي ، المصدر السابق ، ورقة 32 ب .

(2) المصدر نفسه ، ورقة 30 أ .

(3) المصدر نفسه ، ورقة 30 أ .

(4) هو عتيق بن عمران بن محمد بن عبد الله الـربعي أبو بكـر ، من أهل سبتـة ، ولاّه يوسف بن تاشفين قضاء سبتة ، قدم بغداد وأقام بها سنين يتفقّه ، قتله أمير الجيوش بـدر الجمالي سنـة 484 هـ (1091 م) ، بالإسكندريـة لأنه وجـد معه كتب من المقتـدي بأمر الله العباسي إلى يوسف بن تاشفين .

رسالة يوسف بن تاشفين التي عُثِر عليها في المكتبة الظاهرية في دمشق والمنشـورة في مجلة أرابيكا .

Vajda, G. Arabica, Revue d'études Arabes extrait, Tome XV, Fascicule I, 1968, p.2.

العربي على القيام بهذه السفارة بسبب ما كان يعانيه من ضيق نتيجة لما حدث للمعتمد . وبسبب ما رآه من إخلاص المرابطين في الجهاد ، وحسن معاملتهم ، وتأثّره من رفض ملوك الطوائف مواصلة الجهاد مع يوسف بن تاشفين ، واتصالهم بالممالك المسيحية ، فقرّر القيام بهذه المهمة ، مهمة السفر إلى بغداد لإحضار تقليد الخلافة ، متجشماً أعباء الرحلة فيقول : « وكان الباعث على هذا السبب ، مع هول الأمر ، همّة لزمت ، وعزمة نجمت »[1] .

فكان القصد من هذه الرحلة ، أو هذه السفارة ، إحضار تفويض الخلافة العباسية بصحة ولاية يوسف بن تاشفين ، ووجوب طاعته ، وإحضار فتوىٰ من الإمام الغزالي بهذا المعنىٰ .

وقد ذكر ابن خلدون أنّ هذه الرحلة كانت بمثابة سفارة سياسية قام بها ابن العربي ، وابنه بتوجيه من الأمير يوسف بن تاشفين للخليفة العباسي يقول ابن خلدون : « وخاطب المستنصر[2] العباسي ، الخليفة لعهده ببغداد ، وبعث إليه أبو عبد الله محمد بن العربي المعافري الإشبيلي ، وولده القاضي أبا بكر ، فتلطّفا في القول وأحسنا في الإبلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب ، والأندلس ، فعقد له ، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة ، وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم »[3] .

وربما اطّلع ابن خلدون على كتاب آخر لأبي بكر بن العربي ، يذكر فيه ما يشير إلى هذه السفارة صراحة .

ولكن تأخر ابن العربي في هذه السفارة يدعو للحيرة ، فقد مكث بالمشرق نحو ثمانِ سنوات 584 ـ 493 هـ ـ 1092 ـ 1099 م ، وكان من

(1) د . إحسان عباس ، رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صوّرها « قانون التأويل » ص 73 .
(2) صحتها المستظهر العباسي .
(3) ابن خلدون ، العبر جـ 6 ص 386 .

المتوقّع أن ينتهي في العام التالي لسفره أي في سنة 486 هـ ـ 1093 م ، ولكنّنا نجد أنه لم يقابل الخليفة إلاّ سنة 491 هـ ـ 1097 م ، وهي السنة التي حصل فيها على التقليد ، فهل فكّر ابن العربي في عدم العودة إلى الأندلس ، بعد أن شاهد مجالس العلماء في المشرق وشغف ابنه بالعلم ، وتلهّفه على هذه المجالس ، ويظهر خضوع الأب لرغبات ابنه عندما عزم الأب على الخروج للحج من بيت المقدس ، فرفض الابن المضي للحج ، وفضل تلقّي العلم يقول لوالده : « إن كانت لك نية في الحج فامض لعزمك ، فإنّي لست برائم عن هذه البلدة (القدس) حتى أعلم من فيها ، وأجعل ذلك دستوراً للعلم ، وسلماً إلى أعلىٰ مراقيها[1] فسلّم الأب برغبة ابنه عندما لمح هذه الرغبة[2] .

بل إنّنا نجد الابن يتجاهل شوق والده إلى العودة ، عند رؤية هلال رمضان لسنة 489 هـ ـ 1095 م ، وسماع تكبير الناس فيقول الابن : « فما صرفت بصري إليه (والده) كراهة في المغرب التي كان بها ، وتشوّقاً إلى جهة المشرق التي كنت أؤملها »[3] . كما أنّه ذكر عند مفارقته بغداد أنه كان يودُّ أن يظل ينهل من علمها فيقول : « وكان بودّي لو اختلفت هناك فرد شيبتي ، وأفنيت معهم بقية عمري ، لكن سوابق المقدار تجري على الاضطرار ، والاختيار »[4] .

كما أنّنا نجد في سياق كلام أبي بكر في كتابه : « قانون التأويل » أنّ ابن العربي وولده قد وجدا صعوبات كثيرة في الاتصال بالخليفة العباسي ، فقد حملا معهما رسائل بالتوصية والإكرام من والي دمشق ، وجماعة من رؤسائها ، ومن قاضيها الشهرستاني لتسهيل مهمتهم في بغداد لمقابلة الخليفة وإن كانا لم يستطيعا مقابلة الخليفة إلاّ بعد سنتين من وصولهما لبغداد وقد ذلّل لهما صعوبة

---

(1) د . إحسان عباس ، المرجع السابق ص 61 .

(2) د . إحسان عباس ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(3) د . إحسان عباس ، المرجع نفسه ، ص 83 .

(4) أبو بكر بن العربي ، المصدر السابق ، ورقة 32 ب .

الاتصال بالخليفة[1] ، أحد أصدقاء ابن العربي ، وهو التاجر أبو الحسن بن سعيد البغدادي[2] . وكان هذا التاجر قد زار الأندلس سنة 483 هـ ـ 890 م فأنزله المعتمد بن عباد عند ابن العربي ، فأكرمه وتخلّىٰ له عن مناظرته المسجد فعمل هذا التاجر على توصيلهما للوزير ابن جهير ، وزير الخليفة المستظهر ، فرفع أمرهما إلى الخليفة[3] .

ونلمح أيضاً من خلال ما ذكره ابن العربي للخليفة المستظهر هذه المشقّة في الوصول إلى الخليفة فيقول : « ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسّل بهجرته ، ويتقرَّب بخلوص علانيته ، وسريرته ، ويسأل تشريف رقاعه بملاحظتها ، والنظر في انقطاعه رغبة في الحظ الجسيم ، إلى أن وصل إلى المجلس السامي »[4] .

وعندما تأخَّر ابن العربي ، أرسل يوسف بن تاشفين رسولاً آخر هو القاضي ابن القاسم[5] ، ليحثّ ابن العربي على الإسراع بالعودة ، وقد أشار ابن العربي للخليفة ذلك فيقول : « وقد تكرَّر إعلام الخادم بذلك »[6] .

ولكن برغم هذه الصعوبات فقد نجحت سفارة ابن العربي ، وأحضر تقليد الخليفة ، وفتوىٰ الإمام الغزالي ، الذي كان يعتدّ بفتياه في ذلك الوقت .

---

(1) أبو بكر بن العربي ، المصدر السابق ، ورقة 28 ب .
(2) يُعرف بابن الخشاب ، حدَّث في الأندلس ، وكان من أهل الصدق والثقة والثروة .
ابن بشكوال ، الصلة ص 599 .
(3) د . إحسان عباس ، المرجع السابق ص 89 .
(4) أبو بكر بن العربي ، المصدر السابق ، ورقة 28 أ .
(5) لم أجد له ترجمة .
(6) أبو بكر بن العربي ، المصدر السابق ، ورقة 28 أ .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

قال الشيخ الإمام العالم الفقيه الحافظ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأندلسي رضي الله تعالى عنه

الحمد لله الذي جعل الحمد فاتحة الكتاب، وأول كلام الفصل يوم الحساب، وآخر دعوى أهل الثواب. ونسأل الله أن يصلي على رسوله المصطفى الكلام، وعلى من لديه من القرابة والصحابة، وعلى أهله بعدهم بإحسان إلى يوم الحساب. **أما بعد** فإن الداخل في طلب العلم كثير، والمعين قليل، وعدم الاتفاق في طلبه جليل، وكم من خائض بمعرفة وغير معرفة، وما زال يمشي وما نال الحق، وكم من طالب في بغداد خرج وما فاز بمراد، فالشيخ يوجد والتيسير يعدم، والأجسام تفنى والأرواح تشغل، والعيش عائق والأسباب شاغلة، وقد شاهدنا من طلب العلم بلاد [illegible] ومصر والشام والحجاز، والعراق وما وراء الحجاز، فلا يأتي عليه بما استطاع، ولا ينال إلا الاستفتاح جميعهم، يأملون الغاية، وما حصل عليها، ولا نفع بالنهاية، وما انتهى إليها، فقد طلع طالب الشيوخ والمستظهر على الطريق، واستوحش لتقصيره بهمه، وهو لا يعلم كيف، ولا أين، جمع بين كمال العقل وحسن الفهم، وقسم منهم من يأخذ العلم بمرتبة، ويقطع منه بلا نصيب، فيعدو ويأتي فصيح، ويلتقط غير بصير، أن رسم عنه مقالته كان عنه [illegible] وفيما عليه بين الحق والعكس، وقسم منهم من يعتمد من العلوم فنا، ومن يكرره ويحققه، فلا يحصل ولا به يحتاط، ومنهم من يدخلها على أن لا يشعر، والسر لا يشعر، ومنهم من يدخلها كمن يدرسها وفيه من يحارب، وجعل الله الطالب أول حظ منه، رحمهم الله، وقرب محل الله، ولما نشر من الفضل حلقة الكرم، تبارك المشاهد الكريمة، وحلول تلك المقامات العظيمة، وخلطتها والعزم في عنفوانه، والغضر على شأنه، والكتاب مجتمع بعنوانه، ومع طرب الإطلاق بفتوته، وحصل الانتفاع كيف كان في الرتبة، والحق أن الطيبة يستغني ويغني، ويصفو من الشبهة بما معه، ومن يرد الله بفضله عن طلب كل جلالة، ويشتغل عن موارد كل مشكلة، فيجتنب من كل عثرة زمنه، ويعيب من كل صنف عورة، ويكشف عن كل خفي غوره، والغلط في من لم يبلغ جسيما مبرحه، والوقوف ونشر حكمه، ونشره، وذكرته وترتيبه كتابا يسمى ترتيب الرحلة للترغيب في الملة، وذكرت فيه نقلا وتحقيقا بيانا، ويسير الفضلاء معناه للحكم لجال بينها ناكرا لتعظيم وحفظا بلغهم، ووردنا بالتحصيل والتكرير، ووافقنا فيهم على غاية ما أردنا من التحصيل، والانقلاب عنهم بجمعة لم تقض، ولم تستقل به جملا من أصناف، ويسعد من حرا نبوتهم، فلا تشارح به أصحابنا كما بأن من تحلو أنوار كلا بعد الكلام، ويمكن ذلك إلا بأن يطول التلقي فيه، ويديم الاشتغال، بحوانه عن أسانيده، فالتمست من الله تعالى على تجريد منه

ثانياً ـ نصّ المخطوطة:

(27 أ) بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ، وصلَّىٰ الله على سيِّدنا ومولانا محمد وآله ، وصحبه وسلَّم .

قال الإمام الحافظ القدوة المبارك

الفاضل أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي

المعافري الأندلسي ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ

الحمد لله الذي جعل الحمد فاتحة الكتاب ، وأول كلام الخلق يوم الحساب ، وآخر دعوىٰ أهل الثواب ، ونسأل الله أن يصلِّي على رسوله المصطفىٰ الطاهر ، وعلى من له القرابة للأصحاب ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الحساب ، أمَّا بعد ، فإنَّ الداخل في طلب العلم كثير ، والسعيد قليل ، وعدم الإنصاف خطب جليل ، وكم من حاضر بعرفة[1] من غير معرفة ، ونازل بمنىٰ ، وما نال منى ، وكم قارىء في بغداد ، خرج وما قرىٰ بزاد ، فالشجر يوجد ، والتمر يعدم ، والأجسام تفنىٰ ، والأرواح تتقدَّم ، والقشر عام ، واللبّ خاص ، وقد شاهدت من طلب العلم بإفريقيا ، ومصر ، والشام ، والساحل ، والعراق ، والحجاز ، ما لا يأتي عليه الإحصاء ، ولا ينال بالاستقصاء ، جميعهم يأمل الغاية وما حصل عليها ، ويقصد النهاية ، وما انتهىٰ إليها ، فقد خلع ثياب الوطن ، واستظهر[2] على الغربة ، واستوطن يجتهد بزعمه ، وهو لا يعلم كيف ، ولا أين يرجع بعد طول المغيب بخفي حنين ، ومنهم من يأخذ العلم بدبيب[3] ، ويقنع منه بأدنىٰ نصيب ، فيعود بباع قصير ، وناظر غير بصير ، إن رمىٰ عنه فغايته كالأعمش ، أو برحت فليله ليل أعمىٰ ، وأعطش ، ومنهم من يعتمد من العلوم فناء ، ويرىٰ غيره دهرنا ، فلا

---

(1) في الأصل بمعرفة .

(2) استظهر على الشيء : علاه ، وغلبه .

(3) في الأصل دبدب : مشىٰ الطفل على يديه (عامية) .

عليه حصل ، ولا به حصل ، ومنهم من يدخلها عاثراً لا ينتعش ، وأملس لا ينتقش[1] ، ومنهم من يدخلها لمح بارق ، وقبس طارق ، وعجالة راكب أولىٰ حما[2] برقة[3] ، وخمد نفسه ، وفترت عجالته ، ولما سبق خير القضاء برحلتي إلى تلك المشاهد الكريمة ، وحلولي في تلك المقامات العظيمة ، دخلتها ، والعمر في عنفوانه والغصن مائل[4] بأفنانه ، والكتاب مختوم بعنوانه ومعي صارم ، لا أخاف نبوته[5] ، وحصان لا أتوقع كبوته ، أب في الرتبة ، وأخ في الصحبة ، يستعين ، ويعين ، ويسقي عن النصيحة بماء معين ، وزوىٰ[6] الله بفضله عن قلبي[7] كل بطالة[8] ، وكشح[9] عن فؤادي كل إهالة[10]، فجنيت من كل شجرة زهرة ، ودعيت من كل صنف غورة ، وكشفت عن كل خفاء عورة ، وافتقرت من كل فن فقرة ، حسبما فسرته ، وأوضحته وشرحته ، وبيّنته ، وقررته ، ونزلته ، في كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الملة وذكرت فيه لقاء الأعيان لنا ، وسير الفضلاء معنا ، ولحظهم[11]لجانبنا بناظر التعظيم ، ومقابلتهم بالتبجيل[12]والتكريم ، ووداعنا لهم على غاية الرضىٰ والتسليم ، وانقلابنا عنهم بصفة المرتضىٰ ، وأتبعناهم جملاً من طرائقهم[13]، ونبعاً من فرائدهم ، ما تتأرج به أصائل[14]لها أيام ، ويحلو نوره ديجور الظلام[15] ، وكان ذلك أمراً يطول النظر فيه ويذهل الشادي[16]بخواتمه ، عن مباديه ،

---

(1) لا ينتقش : لا ينخدش .
(2) حما التنور : أحماه وزاده ناراً .
(3) برقة : السفر البعيد .
(4) في الأصل مائس .
(5) نبوته : ارتداده .
(6) نحاه ومنعه .
(7) في الأصل قلب .
(8) هزل .
(9) طرد أو أزال .
(10) الفزع .
(11) نظرهم ، مراقبتهم .
(12) في الأصل بالتحليل .
(13) في الأصل طرايقهم .
(14) في الأصل أصايل ـ وأصائل وهي جمع أصيل وهو الوقت بين العصر والمغرب .
(15) الظلمة .
(16) شاد العلم ، آخذ العلم .

فاستخرت الله تعالىٰ على تجريد هذه (27 ب) الأوراق بشواهد الخلة ، والأعيان في مشاهد الإسلام ، والبلدان ، لنا بمزية التعظيم والتوقير ، وتسهيلهم لنا بتحصيل العلوم على غاية التوقير ، حتىٰ يظهر البون ، ويتبيَّن أنَّ الله تعالىٰ يختص من يشاء بالعون ، ويتحقَّق المسود الناقص ، المنقص رأسه من حولي لبعض بزعمه مني أنه فاسد الفطرة ، خاسر الصفقة ، قبيح الوجه ، يستحق المنحة ، وجعلته مراتب على حسب الوقت الذي حصل فيه كل نوع منه .

المرتبة الأولىٰ : لما وصلنا مدينة السلام[1] ، ولقينا فيها كبراء الإسلام كتب أبي[2] برد الله مثواه ، وبرد في الجنة مثواه ، للخليفة[3] ـ رضوان الله عليه ـ ، وعلى آبائه ، كتاباً في درج[4] طويل ، على صفة أدراجهم في مخاطباتهم ، نسخته من أوله إلى آخره .

الخادم بالأدعية تقبلها الله ابن العربي الأندلسي .

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم عليه توكّلي :

أسعد الله الدنيا وأهلها ، بدوام أنوار المواقف المقدّسة ، النبوية ، الإمامية المستظهرية ، وضاعف مددها ، ولا أرىٰ المسلمون أمدها بغرائب مجد تبدعها ، وفرائض بر تشرعها ، وحوادث[5] أيام تذلل[6] صعابها ، ومستأنف سعود تحرص جانبها ، ولا زالت الأيام التي هي لأيامها غرراً[7] ، وفي إكليل

(1) المقصود بها بغداد .

(2) المقصود والد أبو بكر وهو عبد الله بن العربي . انظر ص 197 .

(3) الخليفة المستظهر بالله العباسي ، ولي الخلافة بعد أبيه الخليفة المقتدي بالله 487 هـ (1094 م) وعمره سبعة عشر عاماً ، توفي سنة 512 هـ (1118 م) وكانت خلافته خمساً وعشرين سنة . ابن تغربردي ، النجوم الواهرة ، جـ 5 ، ص 215 .

(4) ما يكتب فيه .

(5) في الأصل حواديث ـ بمعنىٰ نوائب .

(6) تعهد ، وتسهل .

(7) أياماً بيضاء كريمة .

الخلافة درراً للدهر ، تمائم ، وفي المحل غمائم ، والحمد لله الذي جعل للمواقف المقدسة ، النبوية المقدسة ، النبوية الإمامية المستظهرية شرائط السؤدد ، وخصّها بالمجد الموئل ، المطول بالانتساب كابراً عن كابر ، إلى أعلىٰ خندف[1] فهي أعلاها عماداً[2] وأوراها في مواقف الفضل زنادا ، أرومة الرسالة ، وجرثومة الخلافة ، إليها ينزع هاشم ، وعنها أخذت المكارم ، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل ، وعهد بتخليدها مخبر عن الوحي ، في آله ، وعقبه ، النبي المرسل ، فقد آمنت بعصمة الله من المخبر ، وتحققت أنَّ آخرها على سنن أولها في هداية البشر ، بحسن السير ، أوزعنا الله الشكر على ما من به من توفيقنا ، للتمسك بعراها الوثيقة ، والاهتداء بهداها إلى أوضح الطريقة ، فهم للدين أمتنا ، ويوم الدين وسيلتنا ، استعملنا الله من طاعته ، وطاعتهم ، بما يؤدِّي إلى مرضاته ، ومرضاتهم ، إنَّه الموفّق الهادي لا ربَّ غيره ، وإنَّ الخادم بالأدعية ، المتقبلة ، للمواقف القدسية ، النبوية ، للإمامة المستظهرية ، ألهمه الله منها لما يسمع ، ويرفع بسنه ، لما علم بموجب الشرع أنَّ بيعة الإمام العادل من أركان الديانة ، وممَّا يتعيَّن تعيين ما يحتمل من رعاية الأمانة هاجر إلى ذلك بنفسه ، وابنه المسترق[3] القن[4] من أقصىٰ المغارب ، معتقداً أنَّ عمله أفضل القرىٰ والرغائب ، واحتمل برد الهوىٰ ، وظمأ الهواجر[5] واقتحم دون ذلك مسالك ، بلغت فيها القلوب الحناجر ، لم يهلله بحر يزخر ، ولا قفر يرعد ، يحتسب في ذلك أثره ، ويرجو أن يقبل الله يوم الجزاء عثارة ، إلى أن انتهىٰ هو وابنه إلى مدينة السلام ، لا زالت محروسة من عين الأيام ، عاصمة من التجأ [إليها][6] من مهتضمي الأنام ، ووصل إلى

---

(1) خندف : إمرأة إلياس بن مضر أحد زعماء العرب ، أصبح أولادها يعرفون باسمها .

(2) العماد : المنزلة الرفيعة .

(3) العبد .

(4) في الأصل القنىٰ : والقن بمعنىٰ العبد المملوك هو وأبيه .

(5) جمع هاجرة وهي نصف النهار عند اشتداد الحرّ .

(6) في الأصل بياض .

الحرم الشريف ، لا زال حرماً على الزمان ، ونظاماً حاز سائر[1] الحدثان ، ولم يزل الخادم بالأدعية ، المتقبّلة بحول الله يتوسّل بهجرته ، ويتقرب بخلوص علانيته ، وسريرته ، ويسأل تشريف رقاعه ، بملاحظتها ، والنظر في انقطاعه ، رغبة في الحظ الجسيم ، إلى أن وصل إلى المجلس السامي ، وخدم البساط العالي ، زاده الله شرفاً ، وتعظيماً ، وأنهىٰ أغراض وفادته ، ومقاصد إرادته ، (28 أ) فنفذت الأوامر الشريفة ، أدام سموّها ، وتشريفها ، وأضفىٰ على الجميع ستر سلطانها ، وكنف إحسانها ، بقبول وسائله ، وإلحاح مطالبه ، وإفاضة الإحسان عليه ، وإضمار النبوية ، ولما بسط في الأصل ، وكان هو وابنه في محل الكرامة والمجد ، أبدأ بعرض ما هو عليه ، ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين ، القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين ـ صلوات الله عنه ـ وعلى آبائه الطاهرين ، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد المتجهّز إلى المسلمين ، باستئصال[2] فئة العناد ، ولمة الفساد ، قام بدعوة الإمامة العباسية ، والناس أشياع ، وقد غلب عليهم قوم دعوا إلى أنفسهم ، ليسوا من الرهط الكريم ، ولا من الشعب[3] الطاهر الصميم ، فتبعه جميع من كان في أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية ، وقاتل من توقّف عنها ، منذ أربعين عاماً ، إلى أن صار جميع من في جهة المغرب[4] على سعتها ، وامتدادها له طائعة[5] ، واجتمعت له بحمد الله ، أنوارها ، وأعلا منارها ، على أكثر من ألفيّ منبر وخمسمائة منبر فإنَّ طاعته ضاعفها الله ، من أول بلاد الإفرنج ، استأصل الله شأفتهم ، ودمَّر جملتهم ، إلى آخر بلاد السوس ، ممَّا يلي بلاد غانة ، وهي بلاد معادن الذهب ، والمسافة بين الحدّين المذكورين ،

---

(1) في الأصل سائل .

(2) في الأصل استيصال .

(3) في الأصل شعب .

(4) في الأصل المغارب .

(5) في الأصل طاعة .

مسيرة خمسة[1] أشهر وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الإفرنج[2] ، وغيرهم ، فدخلت[3] أرضهم[4] وقلّلت حربهم ، وألف جموعه حربهم ، وهو مستمر على مجاهدتهم ، ومضايقهم ، في كل أفق ، وعلى كل الطرق ، وقد استرجع كثيراً من المعاقل ، التي استباحها الروم[5] ، من ثغور[6] المسلمين ، وسبت أهلها ، قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه ، وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة[7] ، وقد أعادها جده بحمد الله إلى أولها ، واحترمت لحرمة المسلمين ، والإسلام ، وأعز[8] سلطانه ، وهذا دأبه ، وهجيره ، الذي لا عمل به سواه ، وعدة جيوشه ، إذ جمعها لحركته ستون ألف فارس ، وكان أمله مواصلة الخدمة ، والتشرّف بإنهاء أعماله ، والإعلام بمناقل أحواله ، وأفعاله ، وباحتماله على حماية دين المسلمين ، وإقباله على مجاهدة المشركين ، إلاّ أنّ الحائل المانع دون ذلك لاتفاقه ولم يزل محافظاً على ما هو عليه ، من إقامة الدعوة السعيدة ، والاعتراف بجمل النعم الوافرة العديدة بفضل الله ، ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام ، قاضي من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم[9] ، وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكّد ما ذكرته ، ويؤيّد ما شرحته ، وأشاع القاضي المذكور ذلك بمكة ، وصل الله تشريفها ، وتعظيمها ، وذكر لي أنّ الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم ، وحصاره لهم ، وقد تكرّر إعلام الخادم بذلك ، لما يلزمه من طاعة أولي الأمر ، لاسيّما هذا الأمير ، وقد خصّ بفضائل منها الدين المتين ، والعدل المستبين ، وطاعة

---

(1) في الأصل خمس .
(2) المقصود الممالك المسيحية في الأندلس .
(3) في الأصل قد خللت .
(4) في الأصل غربهم .
(5) المقصود بالروم الممالك المسيحية في الأندلس .
(6) في الأصل أمور .
(7) مظلومة .
(8) في الأصل عزا .
(9) لم أجد له ترجمة .

الإمـام ، وابتدأ حمـاه بحمايـة ثغور المسلمين ، وهـو ممّن يقسم بالسـويّة ، ويعدل في الرعيّة ، ووالله ما في طاعته مع سعتها ، دان منه ، ولا ناء عنه ، من البلاد ، ولا يجري فيه على أحد من المسلمين رسم مكس وسبل[1] المسلمين آمنة ، ونقـوده من الذهب والفضة سليمة من الشوب[2] مطرزة (28 ب) باسم الخلافة[3] ، ضاعف الله تعظيمها وجلالها ، هذه حقيقة حاله ، والله أعلم أني مـا أسهبت ، ولا لغوت ، بـل لعلّي قد أغفلت أو قصّـرت ، ولمـولانـا أميـر المؤمنين المستظهر بالله ـ صلوات الله عليه ـ ، وعلى آبائه الطاهرين ، الطول العميم ، في الأمر بتشريفه بقبول تأميله ، وفي الإشارة إليه بما يقـوّي أمره ، ويشدّ أزره ، ويؤيِّد سلطانه ، ويعلّي شأنه ، مجرىٰ لـه على السنىٰ الكريـم ، الـطول العميم ، فـوالله مـا في الأمـراء ، ولا في شيـع الحـرم ، والنصحـاء الأولياء ، من يحوز في الولاء ، وصحة الانتماء سبقه ، ولا يلبس من النصيحة طـوقه ، والله يمنحـه من الخلافـة المقدسـة ، المبنية على طـرق النبـويـة ، الموسمة ، مـا يصل يـده ، ويقوّي أمـره ويشد عضـدها ، بمنّـه ، وطولـه ، وضراعة الخـادم بالأدعيـة ، المتقبّلة لنفسه ، ولابنـه المسترق ، القن ، بعـد الامتنان بإباحة الصدر لهمـا إلـى الوطن ، فقد بعـدا عنه منـذ سبعة أعـوام ، وأقاما في الجناب المخصب العليل ، والكنف الرحب[4] المأمول ، مدة عامين يسندان له النعم الحـافلة جملاً بعـد جمل ، ويكـرعان في المشـارب الحجة العـذبة عللاً[5] ، بعـد نهل فلله الهمم الشـريفة التي سمت على شكـايتها من

---

(1) كان المفروض فقط هو الزكاة ، والإعشار ، وجزية أهل الذمّة ، وأخماس غنائم المشركين .
ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 137 .

(2) الخلط أو الغش .

(3) نقش في دينـاره (لا إلـه إلاّ الله محمد رسـول الله) وتحت ذلك (أميـر المسلمين يـوسف بن تاشفين) وكتب في الدائرة (ومن يبتـغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخـرة من الخاسرين) وكتب في الوجه الآخر : (الأمير عبـد الله العباسي) وفي الـدائرة تـاريخ ضـربه وموضع سكه . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ص 137 ، 138 .
Lavoix, H., Catalogu des Monnaies de la Bib. Not. p.556.

(4) في الأصل الرحل .

(5) في الأصل علي .

عدوان الأيام ، بيد سيم الكرام ، وأزاحت عنهما جميع الشكايات[1] والآلام ، وهـذه نبذة من الصنـائع المشكـورة ، وجلدة من بضـائـع المكـارم الـرابحـة المشهورة ، وإنَّها لمسـطورة في صحيفة الفخـر مملوءة[2] من جزيـل الأجر ، عقبه بارح النشر ، وإنَّ الشكر ليقلّ في جانبها ، ويقصر عن أنزر لازمها ، ضمنت حياة نفسين ، ونشـرت دفين رسمين ، فكأنهـا قد أخفت ضعف الـورىٰ ، ونشرت أمثل المستودعين في الثرىٰ ، فمن أحيا النفس الواحدة ، (فكأنَّما أحيا الناس جميعاً)[3] ، وعند الله تعالىٰ كفاء ما أولاه مولانـا الإمام المستـظهر بـالله أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه وعلى آبائه الأكرمين ـ ، من جميع الفعل وجزيل ما آتاه في سبيل الفضل ، والخادم العامر القلب ، هو وعقبه بالمحبة الناصفة ، والطاعة الخالصة ، صار[4] في جملة الحاملين ، ويرجو أن لا يكون مقصراً عن درجـة السـابقين ، ويضـرع في وسمـه وسم الملوك ، وابنــه عين التشـريف السامي ، لا تزال النعم الكرام تيجاناً ، وعلى قسماتهم العزّ والكرامـة عنوانـاً يعبد حيث جلا إلى النباهة ذكرها ، وإلى البرّ والكرامة قدرها ، ويظهـر مزيـه وفادتهما ، ورعاية هجـرتهما ، ويثبت لهمـا من المفاخـر ما يحيـد عليه البرّ المؤازر ، ويتضاءل له الحسود والمكاشر[5] ، ويبقىٰ تشريفه على مرّ الأيـام ، ويضرع أن يتضمَّن التشريف العزيز ، ثبـوت رسمه ، في الـديوان الشريـف ، ضاعف الله علاه[6] ، بما خصَّ به ، والمملوك ابنه من الكرامات ، والنعمة ، وأنه متىٰ وفد هو أو ابنه المملوك كـان ذلك للوافـد منهما مجـدداً ، وعلى مرّ الأيام مؤكَّداً مخلداً ، حسب العادة الكريمة له ، ولسلفه الأكرمين ـ رضي الله عنهم ـ ، أنَّهم متىٰ أنعمـوا بنعمـة ، أو خصّـوا بكـرامـة ، ومنـه ثبتت مؤيـدة وتجـددت مخلدة، وليتمثّل الأمـر العالي والتشـريف السامي فيهـما جميـع من يـرد

(1) في الأصل الشكات .

(2) في الأصل مملوة .

(3) سورة المائدة ، الآية : 32 .

(4) في الأصل صادر .

(5) اسم فاعل من كاشر ، معناه ضاحكه وتبسَّط وكشف له عن أسنانه .

(6) في الأصل علا .

أن عليه في كل الآفاق من جميع الطباق ، امتثالاً لما يعد لهما من الإكـرام ، واحتمالاً على ما تأصّلا لجنتهما من المثوبة والأنعام ، وإنَّ ذلك يرثـه الخَلَف منا عن السلف ، وتكون لنا مزية التشرّف بالوصول إلى جهاد العزّ المأمول ، لا أعـدم الله مولانـا الإمام المستـظهر بـالله أميـر المؤمنين ـ صلوات الله عليـه ـ (29 أ) وعلى آبائه المنتخبين ، مبـرة تتضاعف بهـا المعالي ، وسعـادة تحرز أسمىٰ الأماني ، وكفاية يستمد بها حرمة الأيام والليالي ، فذلك بيده ، وغيـر معجزة ، وهو المنعم الجوّاد ، وكل خير من حوله مستفاد ، لا شريك له ، ولا توفيق إلاَّ به ، والحمد لله حق حمده ، وصلواته على سيد المرسلين ، رسوله وعبـده ، وعلى آلـه الـطيّبين ، وعشـرتـه[1] المنتمين الـراشـدين ، آبـاء أميـر المؤمنين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، إلى يوم الدين ، ﴿ وحسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[2] .

فراجعه عنه على ظهره بتوقيع عزيز ، عدد أسطره سبعـة وثلاثين سـطراً بخط بسيم ، كتابي مليح ، بين السطر[3] الأول منه والثاني منه العلامة العزيزة بخط أميـر المؤمنين ، بالقلم الغليظ ، بمـداد ممسك ، المستـظهر[3] بـالله ، عـرضت هذه القصـة بمغـاوز العـزّ والعصمـة ، ومـواقف الإمـامـة المـطهّـرة المكرمة ، زاد الله في جلالها ، وسبوغ ظلالها ، فخرجت المراسم الشريفة ، أنَّ هذا الولي الذي أضحىٰ بحبل الإخلاص معتصماً ، وبشـرطه ملتـزماً[5] ، وإلى أداء فروضه مسابقاً[6] ، وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق مسابقاً ، لا ريبة في اعتقـاده ، ولا شك في تقلّده من الـولاء ، طويـل نجاده إذ كـان من غدا بالدين تمسكه ، وفي النهاية عند مسلكه ، خليقاً بأن يستتبّ صلاح النـظام ،

---

(1) في الأصل عثرته .
(2) سورة آل عمران ، الآية : 173 .
(3) في الأصل الدهر .
(4) في الأصل القاهر .
(5) في الأصل أشرطة .
(6) في الأصل مساوقاً .

على يده ويستشفّ من يوم حسن العقبىٰ في غده ، وأفضل ما نحاه وعليه من الاجتهاد ، دار رحاه جهاد من يليه من الكفار ، وإتيان ما يقضي عليهم بالاحتياج ، والبوار ، اتباعاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار ﴾[1] فهذا هو الواجب اعتماده ، الذي يقوم به من الشرع عماده ، ويؤلّف شمل من في جملته من الأجناد على الطاعة الإمامية التي هي العروة الوثقىٰ ، والذخر الأبقىٰ ، واستقراء قوله تعالىٰ ، والعمل به والمداري به ، والتثبّت بسببه ﴿ يٰأَيُّها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾[2] وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله تعالىٰ ، الزلفىٰ ، ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفىٰ ، ﴿ يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خير محضرة ، وما عملت من سوء تودُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾[3] ، وأن يختصّ رافعها وولده بالدعاء الذي يصفوا عليهما برده ، ويصفوا إليها رده ، ليظهر عليهما من المهاجرة ، جميل الأثر ، ويؤل أمرها فيما يرجوا بهما إلى الاستقامة الفصام ، ونظم النثر ، فليقاتل الأمر الأسمىٰ في ذلك بالامتثال إن شاء الله . كتب في رجب سنة إحدىٰ وتسعين وأربعمائة .

ثمَّ كتب كتاباً مستأنفاً ، بلسان الوزير ابن جهير[4] ، نسخته من أوله إلى آخره .

من الوزير الأجل السيد الأعدل ، عميد الدولة بهذه الملة ، شرف الأمة ، ولي النعمة ، خلاصة أمير المؤمنين محمد بن محمد بن جهير ، إلى

---

(1) سورة التوبة ، الآية : 123 .

(2) سورة النساء ، الآية : 59 .

(3) سورة آل عمران ، الآية : 30 .

(4) هو محمد بن محمد بن جهير ، الصاحب شرف الدين عميد الدولة ، وزير الخليفة القائم ثمَّ من بعده للمقتدىٰ ، فعزله بأبي شجاع ، ثم أعاده المستظهر ، فدبَّر أموره ثمان سنوات واحد عشر شهراً وأربعة أيام توفي 493 هـ (1093 م) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ 5 ص 165 .

زامباور ، معجم الأنساب والأسر الحاكمة جـ 1 ص 9 .

أمير المسلمين ، وناصر الدين ، القائم بدعوة أمير المؤمنين ، أزكىٰ الرغائب بأرض المغاربة ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، أطال الله بقاءه ، ومدته ، وضاعف بسطته ، وكبت أعداءه ، وحسدته ، آمين .

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ،

كتابي من حضرة مولانا أمير المؤمنين ، أبي العباس ، المستظهر بالله ، أدام الله أيامها ، وأوضح أعلامها ، وأعزّ أنصارها ، وأعلا منارها ، الأحوال مستقيمة بإقبال دولته ، منتظمة بيمين تدبيره وسياسته ، تجري على أفضل ما عوّدها الله تعالىٰ من نفاذ الأمر ، ومضائه ، وانبساط السلطان واعتلائه ، ونحن (29 ب) مقابلون نعمته بالشكر ، والاعتراف ، مستديمون مددها بالعدل ، والإنصاف ، متحقّقون إجابة رغبتنا في توفيق أولياء مولانا المخلصين ، وأهل الطاعة من كافة المسلمين لما يقرب من طاعته ، ويوزّع شكر نعمته ، السابغة عليهم بولايته . فلقد استخلف عليهم منه أكرم مستخلف ، وعطف عليهم بولايته ، أفضل مستعطف ، فأصبح وقد أطاعته الأمة العاصية ، وأمكنته الغايات فذلَّل الصعب ، ورأب الشعب ، وقرَّب النازح ، وأرضىٰ الجامح ، وقوَّم المائل ، وأصلح الفاسد ، وأعاد معالم الحق عامرة بعد دثورها ، ومشاربه صافية بعد كدورها ، وبضائع[1] الخير نافقة[2] بعد كسادها ، وأحوال الأمة صالحة بعد فسادها ، مبتغياً فيما أتاه الله مصلحة أخرىٰ ، غير ناس نصيبه من دنياه ، طامحاً بطرفه إلى أعلىٰ الدرجات في داريه ، آخذاً بأفضلها ، الإقبال في حاليه ، فلباس التقوىٰ شعاره ، والعمل الصالح دثاره ، نهاره مقسوم بين تلاوة القرآن ، وإقامة إحسان ، وغوث مكروب ، وفك غار مخروب ، وسد ثغر ، وصلاح أمر ، وتدبير شرق ، وغرب ، وبرّ وبحر ، فأعين الرعيّة قائمة ، بشهادته ، وأنفس البرية مستريحة ، باجتهاده ، لا حرم أنَّ الله يصلح باله ، ويحسن مآله ، تصديقاً لما قال جلَّ جلاله : ﴿ يـٰأَيُّها

(1) في الأصل بضايع .
(2) عكس كاسدة .

الذين آمنوا اتّقوا الله ، وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله ، فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾[1] ، وخليق لمن جمعت فيه هذه الأخلاق الطاهرة ، ونطق القرآن بإمامته الباهرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنّن لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾[2] فالحمد لله الذي أنجز لأمير المؤمنين ما وعده ، وحقّق له التمكين وأيّده ، وأمن السبيل بخلافته ، وأقام الحق بإمامته ، وسخّر له من أوليائه من تنفذ بطاعته أوامره ، ويؤازره على فعل الخيرات ، ويضافره ، وينشر دعوته ، ويظهر سعده ، وكلمته ، وينتهي إلى ما فرض سبحانه عليه من طاعة ولاة الأمر ، المقترنة بطاعته ، وطاعة رسوله ﷺ ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يٰأيّها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾[3] استمناحاً لنعم الله ، التي لا تحدّ ، واستمداداً من عوارفه التي لا تنفذ ، ولما كان الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تمكينه ، ورفعته ، وسموّه ، وبسطته ، وكبت عدوه ، وحسدته ، فمن صحّ عنده خلوص عقد ولايته ، ولزوم طاعته ، لأمير المؤمنين ، الصروف عن أعدائه ، وإظهار العدل في الرعيّة ، . . . وتمسّكاً بما أمر الله تعالىٰ به من مجاهدة أعدائه ، وتحريض عساكر الإسلام على مجاهدة عدوهم ، وبذل نفوسهم ، ومشاركته لهم في نعيمهم وبؤسهم ، وما فتح الله لأمير المؤمنين على يديه من ثغور الإسلام بجزيرة الأندلس ، وما جاورها ممّا كان العدوّ قد تغلب عليه ، واستباحه واستأصل شأفته ، واجتاحه عند اختلاف الخوارج بها ، وتباين مقاصدهم ، وعدولهم عن الواجبات في مصادرهم ، ومواردهم ، انتهيت إلى المواقف المقدسة العليّة الشريفة ، النبوية المستظهرية ، زاد الله في جلالها ، وامتداد ظلالها هذه الجملة ، فخرج (30 أ) من الشكر للأمير أطال الله بقاءه ،

---

(1) سورة الأحزاب ، الآية : 70 ، 71 .
(2) سورة النور ، الآية : 55 .
(3) سورة النساء ، الآية : 59 .

وأعلاه وأحمد[1] طرائقه[2] ، وحسن سيرته ، وجميل مقاصده ، والدعاء بمشارفته على جهاده ، عدو المسلمين ، وتطبيق ما جاء به عن سيد المرسلين ، لا يزال أهل المغرب على الحق ظاهرين ، وذلك لنصوع عقائدهم[3] ، في خلوص اليقين واقتران مذهبهم عن صحة الدين على يد الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي ، وابنه الفقيه أبي بكر محمد أدام الله عزتهما ، ما يؤيِّد[4] به الغافر ، وتتأرَّج به الدفاتر ، وتنتعش به حدود العوائر ، ولقد بالغ هذا الفقيه ، وولده في الثناء على الأمير ، وأطنبا في وصف ما يعتمده من لزوم فرائد[5] العدل والإنصاف ، ومجانبة طرق العسف ، والاعتساف ولما كان رأينا في هذه الطائفة التي تأخذ في الحدود الشرعية بقولها ، وتستضيء في السياسة السلطانية برأيها جميلاً ، وتأمرنا بالبرّ لمن أنسنا منه الطريقة القوية ، وجنوحها إلى من عرفناه بصدق العزيمة ، شكرنا لأمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، اقتداء[6] بهذه الطائفة في آرائه ، ورجوعاً إلى قولهم في الحالة ، آخذاً بآراء المواقف المقدّسة ، زادها الله مضاءاً ، وامتثالاً لقصدها ، وكذلك هذا الفقيه ، وولده المقدم ذكرهما ممَّن شاهدنا من خلالهما وحسن هديهما ، بما يقتضي تقريبهما ، وأدناهما ، فرأيناهما واعتمدن برهما ، وإكرامهما ، وأصدرنا هذه الجملة القاضية بإجلال الأمير محله المنيف ، على استحقاقه للإجلال ، والتشريف ، نظراً لمقالهما[7] ، وإحساناً وتعطّفاً عليهما وامتناناً ، فليعتمد الأمير أطال الله بقاءه ، مصالح أمورهما ، وليتوخَّ ما تعود باستقامة شؤونها ، ولينيبها حسن موقع النيابة ، وليبد لهما صفحة الإقبال بمنن ، وليلزم تقوىٰ الله فيما يجر من الأمور على يديه ،

---

(1) في الأصل أحماد .

(2) في الأصل طرايقه .

(3) في الأصل عقايدهم .

(4) في الأصل ما يؤديين .

(5) في الأصل فراير .

(6) في الأصل اقتداءاً .

(7) في الأصل ما قالهما .

ولـيراقبه ، تعـالىٰ فيما فـرض من أحوال الـرعيّة إليـه ، وليعلم أنَّ المصير ، والمرجع إليه ، وليطالع بأخباره ، وما احتاج إلى علم بجهتـه إن شاء الله .

وكتب في الثاني عشر من رجب سنة إحدىٰ وتسعين وأربعمائة والحمـد لله وحده وصلواته على سيـدنا محمـد نبيّه ، وسـلامه ، وحسبنـا الله ، ونعم الوكيل .

وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق ، ومن سارت بذكره ، الرفاق لطول باعه في العلم ، ورحب ذراعه ، الإمـام أبو حـامد بن محمـد الطوسي الغزالي[1] . فاستدعينا منـه فتيّاً وكتـاباً اختصـرت لفظ الفتيا لـوقتٍ ضاق عن تقييدها ، لكن أنبه عن معناها ، وهو في علم الإمام وذكر ما تقدَّم في وصف خـلال أمير المسلمين ، ونـاصر الـدين أبي يعقوب يـوسف بن تـاشفين أميـر المغربين ، الأندلس والعدوة ، وما أوضحت لديه من اعزاز الدين والذب عن المسلمين ، وهو حميري النسب ، وقبيله ، المرابطون قد وقفوا أنفسهم على الجهاد ، وقد كانت جزيرة الأندلس قـد تملكها من تـاريخ ابتـداء الفتنة سنـة أربعمائة عـدة ثوار[2] ، تسـوروا على البلاد ، فضعف أهلهـا عن مدافعتهم ،

---

(1) هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، الفقيه الشافعي ، كان إمام عصره ، برع في عدة علوم كثيـرة ، ودرس وأفتىٰ ، وصنَّف التصانيف المفيـدة في الأصول والفـروع ، ودرس بالنظامية ببغداد ، ثم ترك ذلك كله ولبس الخام الغليظ ، ولازم الصوم ، وحجَّ وعاد ، ثم قدم القدس ، وأخـذ في تصنيف كتـابـه الأحيـاء ، وأتمَّـه بـدمشق ، ولـه من المصنَّفـات « البسيط » ، « الوسيط » ، « الوجيز » توفي سنة 505 هـ (1111 م) ابن تغري وبردي ، المصدر السابق ، جـ 5 ص 203 . ابن خلّكان ، المصدر السابق ، جـ 3 ، ترجمة 56 ص 353 .

(2) المقصود بهم ملوك الطوائف الذين شغلوا من حياة الأنـدلس نحو ثمـانين عامـاً ، وكان عصـر تفكّك وانحلال سياسي ، واجتماعي شامل ، وهذه الدويلات الصغيرة ، قـامت على أنقاض الدولة الأموية بالأندلس ، وهذه الدويلات هي :

1 — العامريون وقد حكموا في شرق الأندلس في المرية ، مرسية ، وبلنسية ، ودانيـة ، وما والاها من جزائر .

2 — بنوزيري الصنهاجيون في غرناطة ومالقة .

3 — بنو الأفطس في بطليوس .

4 — بنوذي النون في طليطلة .

وتلقبوا بألقاب الخلفاء ، وخطبوا لأنفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم وأثاروا الفتنة بينهم ، لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه ، وليستنابوا الفسّاق من الأرقّاء ، والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضاً ، واستنجدوا بالنصارىٰ عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه وعند ذهاب شركة المسلمين ، انكشف للنصارىٰ ضعف المسلمين ، وعلموا المداخل والمخارج ، إلى بلاد المسلمين ، طلبوا المعاقل ، وأخذوا بالحرب كثيراً منها من غير مؤنه ، ولا مشقّة ، ثم نجا[1] الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم ، فلبّاهم أمير المسلمين ، ووصل إلى البحر ، فاستوقفه بعض الرؤساء ، وفاءاً للمشركين ، وحنقاً على المسلمين ، في استدعائهم له ، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس ، فمنحه الله النصر ، وألجم الكفار السيف ، ثمَّ عاود الجواز في العام الثالث[2] لهذا الفتح فتهيبه العدو ، وتحصن منه ، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه ، وعثر لأحدهم[3] على خطاب يشجع العدو على لقائه ، واستولىٰ على من قدر عليه من الرؤساء على البلاد ، والمعاقل ، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي ، من جزيرة الأندلس ،

---

5 — بنو رزين في السهلة .
6 — بنو عباد في إشبيلية .
7 — بنو هود في سرقطة أو الثغر الأعلىٰ .
8 — بنو القاسم في البونت .
9 — بنو حمود ، وبنو جهور في قرطبة وقد استولىٰ عليها بنو عباد 446 هـ محمد عبد الله عنان دول الطوائف .

(1) في الأصل نجىٰ .
(2) كان الجواز الثالث سنة 483 هـ (1090 م) . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 153 .
(3) المقصود للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، فقد وقعت في يد يوسف بن تاشفين بعض المراسلات السرية الموجّهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة تجتاح بلاده ، وتمعن في تخريبها ، دون أن يستطيع دفعاً لهم ، وشعر من جهة أخرىٰ بما يضمره المرابطون نحوه من النيّات الخطرة ، فقد أيقن أنه لا مفرَّ من الالتجاء إلى ملك قشتالة ، والتفاهم معه على دفع المرابطين عن الأندلس .
عبدالله بن بلكين ، كتاب التبيان ص 169 . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 155 .

حالفوا النصارىٰ ، أو صاروا معهم البا[1] ، ودعاهم أمير المؤمنين إلى الجهاد والدخول في بيعة الجمهور ، فقالوا : لا جهاد إلاَّ مع إمـام من قريش ولست به ، أو نائبه عن إمام ، وما أنت ذلك ، فقـال : أنا خـادم الإمام العبـاسي ، فقالوا له : أظهر لنا تقديمه إليك ، فقال : أوَليست الخطبـة في جميع البـلاد له ، فقالوا : ذلك احتيال ، أو من دواعي النفاق ، فهـل يجب قتالهم ، وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم ، وهل على مسلم حرج في قتالهم ، وهل على الإمام العباسي أن يبعث له بمنشور يتضمَّن تقديمه لهم على جهادهم ، فإنَّهم إنَّما خرجوا عليه لأنَّ[2] الأمير خادمه وهو يخطب لـه على أكثر من ألفيّ منبر ، وتضرب السكة باسمه ، إلى غير ذلك ، ومتىٰ وصف نفسه قال ، لست مستبداً وإنَّما أنا خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وهذا أشد من يؤكِّد بالتخلية ، وأظهر من أن يجد بالتزكية ، فالشيخ الإمام الأجل الزاهد والأوحد ، أبي حامد أتمّ الأجـر وأعمّ الشكر في الإنعـام بالمـراجعة في هـذا السؤال إنشـاء الله ، فأجاب ـ رضوان الله عليه ـ ، لقد سمعت من لسانه ، وهو الموثوق به ، الذي يستغنىٰ مع شهادته عن غيره ، وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء ، وغيـرهـم من سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله ، ما أوجب الدعاء لأمثاله ، ولقد أصـاب الحق في إظهـار الشعـار الإمـامي المستـظهـري في حـرس الله على المستظهرين ظلاله ، وهذا هو الـواجب على كل ملك استـولىٰ على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، فعليهم تزيين منابرهـم بالدعاء للإمام الحق ، بلغهم صريح التقليد من الإمام أو تأخر عليهم ذلك ، لعائق ، وإذا نـادىٰ الملك المستـولي بشعـار الخـلافـة العبـاسيـة ، وجب على كـل الرعايا[3] ، والرؤساء الإذعان ، والانقياد ، ولزومهم السمع والطاعة ، وعليهم أن يعتقدوا أنَّ طاعته هي طاعة الإمام ، ومخالفته هي مخالفة الإمام ، وكل من تمرَّد واستعصىٰ ، وسل يده عن الطاعة ، فحكمه حكم الباغي ، وقد قال الله

---

(1) القوم تجمعهم عداوة واحدة المرجع السابق .
(2) في الأصل بأن .
(3) في الأصل الرعاية .

تعالىٰ : ﴿ وإنَّ طائفتـان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحـوا بينهما ، فإن بغت إحـداهما على الأخـرىٰ ، فقـاتلوا التي تبغي ، حتىٰ تفيء إلى أمـر الله ﴾[1] والفيء إلى أمـر الله الرجـوع إلى السلطان العـادل المتمسـك ، بـولاء الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية ، فكل متمرّد على الحق ، فإنَّه مردود بالسيف إلى الحق ، فيجب على الأمير ، وأشياعـه قتال هؤلاء المتمـردة عن طـاعتـه لاسيّما ، وقد استنجدوا (31 أ) بالنصارىٰ ، المشركين أولياءهم ، وهـم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله فمـن أعظم القربات[2] قتـالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العـادل المتمسك بـطاعة الخـلافة العبـاسية ، ومهما تركوا مخالفة ، وجب الكف ، وإذا قوتلوا لم يجز أن يتتبع مدبرهم ، ولا أن يدفف[3] على جريحهم ، بـل مهما سقـطت شوكتهم ، وانهـزموا ، وجب الكفّ عنهم ، أنه على المسلمين منهم دون النصارىٰ الذين لا يبغي لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين ، وأمَّا ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم ، أو على ورثتهم ، ومـا يؤخـذ من نسـائهم ، ودراريهم ، في القتـال مهـدرة ، لا ضمان فيها ، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة المستولي على المنابر ، والبلاد ، بقوة الشوكة ، وحكم الباغي ، على نـائب الإمام ، فإنَّه وإن تأخَّر عنه صريح التقليد ، لاعتراض العوائق[4] ، المانعـة ، من وصول المنشور بالتقليد ، فهو نائب بحكم قـرينة الحـال ، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولىٰ على قطر من أقطار الأرض ، في أن يخطب عليه ، وينادي بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل ، والنصفـة ، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضىٰ بذلك ، والإذن فيه ، فإن توقّف في كتابة المنشور ، فالكتب قـد يعوق عن إنشـائها ، وإيصـالها المعـاذير ، وإمَّـا الإذن ، والـرضىٰ ، بعد مـا ظهر حـال الأمير في العـدل والسياسـة ، وابتغاء

---

(1) سورة الحجرات ، الآية : 9 .

(2) ما يتقرَّب به إلى الله تعالىٰ من أفعال البرّ والطاعة ، المرجع السابق .

(3) يجهز عليه ويتمّ قتله ، المرجع السابق .

(4) في الأصل العوايق .

المصلحة للتفويض ، والتعيين ، فلا رخصة في تركه ، وقد ظهر حال هذا الأمير ، بالاستفاضة ، ظهوراً لا يشك فيه ، وإن لم يكن على إيصال الكتب ، وإنشائه عائق ، وكانت هذه الفتنة لا تنطفي إلاَّ أن يصل إليهم صريح الإذن ، والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك ، فإنَّ الإمام الحق ، عاقلة أهل الإسلام ، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة بها ، ويسعىٰ في إطفائها بكل ممكن ، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ لو تركت جدماء[1] على ضفة الفرات لم تطل بدهناء[2] ، فأنا المسؤول عنها ، يوم القيامة ، وقال سليمان[3] بن عبد الملك يوماً ، وقد أحدق به الناس ، قد كثر الناس ، فقال عمر بن عبد العزيز ، خصماؤك يا أمير المؤمنين ، يعني أنك مسؤول عن كل واحد منهم ، إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته ، فلا رخصة في التوقّف عن إطفاء الفتنة ، في قرية تحوي عشرة ، فكيف في أقاليم وإقليم إلاَّ أن يعوق عن ذلك عائق ، ويمنع عنه مانع ، المواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلا لها ، أبصر بها ، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنة ، إلاَّ لعرض ظاهر ، وجب على أهل المغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلاَّ ذلك ، فإنَّ المسافة إذا بعدت ، وتخلَّلها المارقون عن ربقة الحق ، لم يبعد أن يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة ، عن أن تمتد بها أعين أعداء الدولة ، فضلاً عن أيديهم وأمَّا من يستجيز التوقّف فيها عن غير عذر ، عن التقليد للأمير ، قد ظهرت شوكته وعرفت سيوسته ، وتناطقت الألسن بعدله ، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه ، ويسد في هذا الحال مسده ، فهذا اعتقاد فاسد في حضرة الخلافة ، حاشاها من أن تنسب إلى قصور ، أو يقتضي في نصرة أهل العدل المتمنين بخدمتها ، والمعتصمين بعروتها ، القائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها (31 ب) وأوامرها المعلومة

---

(1) القشرة العليا للحبة ، المختار الصحاح .

(2) عشبة حمراء يدبغ بورقها ، المرجع السابق .

(3) في الأصل سليمٰن .

بغرائب[1] الأحوال فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض ، وحكم من بغى عليه والله أعلم .

وأمّا الكتاب فنص أوله إلى آخره ،

الأمير جامع المسلمين ، وناصر الدين أمير المؤمنين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، الداعي لأيامه بالخير محمد بن محمد الغزالي .

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ،

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين ، وسائر النبيّين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، قال ﷺ : « ليوم من سلطانٍ عادل خير من عبادة سبعين سنة »[2] ، وقال ﷺ : « ما من والي عشرة إلاَّ ويؤتىٰ به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ، أو بقمة[3] جوره أو طلقة عدله »[4] ، و[قال][5] رسول الله ﷺ : « سبعة يظلّلهم الله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله[6]، وعد الإمام العادل ، أولهم » ، أولهم ، ونحن نرجو أن يكون للأمير جامع كلمة الإسلام ، وناصر الدين ، ظهير أمير المؤمنين من المستظلّين بظل عرشه ، يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلّه ، فإنَّه منصب لا ينال إلاَّ بالعدل في السلطنة ، وقد أتاه السلطان ، وزيّنه بالعدل والإحسان ، ولقد استطارت في الآفاق محامد سيره ، ومحاسن أخلاقه على الإجمال ، حتىٰ ورد الشيخ الفقيه الوجيه ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي ، الأندلسي ، الإشبيلي ، حرس الله توفيقه ، فأورد من شرح ذلك وتفضيله ، عطر به أرجاء العراق ، فإنَّه لما وصل إلى مدينة السلام ، وحضرة الخلافة ، لم يزل يطلب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الأندلس من

---

(1) في الأصل بغرايب .
(2) البخاري ، أحكام ، 7 .
(3) ذلّه وحبسه ، المرجع السابق .
(4) ورد الحديث في البخاري ، الجامع الكبير ص 439 كالآتي : « ما من أمير عشرة إلاَّ ويؤتىٰ به » .
(5) زيادة في النص حتىٰ يستقيم المعنىٰ .
(6) ورد في الترمذي ، مسلم ، ابن حنبل .

الذل ، والصغار ، والحرب ، والاستصغار ، بسبب استيلاء أهل الشرك ، وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام ، بالسبي أو القتل ، والنهب ، وتطرّقهم إلى افتضاح أهل الإسلام ، بما حدث بينهم من تفرّق الكلمة ، واختلاف الثوار المحاولين للاستبداد بالإمارة ، وتقاتلهم على ذلك حتىٰ اختطف من بينهم حماة الرجال، ، بطول القتال ، والمحاربة ، والمنافسة ، وإقضاء الأمر بهم ، إلى الاستنجاد بالنصارىٰ ، حرصاً على الانتقام ، إلى أن أوطؤوهم بيض الإسلام ، وكشفوا إليهم الأسرار حتىٰ أشرفوا على التهائم ، والأغوار ، فرتبوا عليهم الجزاء[1] ، وجزوهم بشر الجزاء ، ولما استنفذوا من عندهم الأموال ، أخذوا في نهب المناهل ، وتحصيل المعاقل ، واستصرخ المسلمون عند ذلك ، بالأمير ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، ظهير أمير المؤمنين ، ابن عم سيد المرسلين ـ صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ـ . واستصرفه معهم بعض الثوار المذكورين ليأسهم عن مداراة المشركين ، فلبّىٰ[2] دعوتهم ، وأسرع لنصرتهم ، وأجاز البحر بنفسه ، ورجاله ، وجاهد في الله حق جهاده ، ومنحه الله تعالىٰ استئصال شأفة المشركين للإفراج عن حوزة المسلمين[3] جزاه الله تعالىٰ أفضل جزاء المسلمين ، وأمدَّه بالنصر والتمكين ، وذكر متابعته الغزوة إلى جهة أخرىٰ بعد ثلاثة أعوام من هذه الهزيمة ، الغزوة المشهورة[4] ، وقتل كل من ظهر من النصارىٰ بالجزيرة المذكورة من الخارجين لإمداد ملوكها على عادتهم أو من سراياهم من أيّ جهة ، يأمنوا من جهات المسلمين ، وقد بثَّ الله الرعب في قلوب المشركين حتى أغناه ذلك عن جرّ العساكر والجنود وعقد الألوية ، والبنود ، وذكر أنَّ أولـٰئك[5] الثوار لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين ، وغلبته لحزب المشركين ، وسألهم رجع المظالم عن

(1) في الأصل الجزا .

(2) في الأصل لبا .

(3) لبّىٰ الأمير يوسف بن تاشفين استغاثة ملوك الطوائف سنة 479 هـ (1086 م) . ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص 144 .

(4) المقصود بها موقعة الزلاقة . انظر ما سبق الفصل الرابع من الرسالة 123 .

(5) في الأصل أنَّ ذلك .

المسلمين ، التي كانت مرتبة عليهم بجزية المشركين ، وإمدادهم بها لهم مداراة لبقاء أمرتهم عادوا إلى ممالاة المشركين ، والقول إليهم القول في جهة للأمير ، وجزوهم على لقائه (32 أ) وصحَّ عند ذلك عنده ، وعند المسلمين ، فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد ، وتداركها ، ومن فيها من المسلمين ، قبل أن يسري الفساد ، ففعل ذلك ، ولمّا تملكها ، رفع المظالم ، وأظهر فيها (من) الدين المعالم ، وأبعد عنه المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ، ورتَّب الجهاد ، وقطع مراد المسلمين ، ثم أضاف إلى ذكر ذلك ما شاهده من تلك السجية الكريمة في إكرام أهل العلم ، وتوقيره لهم ، وتنزيههم ، واتباعه لما يفتون إليه من أحكام الله تعالىٰ ، وأوامره ، ونواهيه ، وحمله عماله على السمع والطاعة لهم ، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقديمة بالخطبة لأمير المؤمنين أعزّ الله أنصاره ، وإلزام المسلمين بالبيعة ، وكانوا من قبل منكفّين عن البيعة ، والنداء ، بشعار الخليفة إلى غيره ، لذلك ممَّا شرحه من عجائب[1] سيرته ، ومحاسن أحواله ، ومكارم أخلاقه ، وكان منصبه في غزارة العلم ، ورصانة العقل ، ومتانة الدين ، يقتضي التصديق به في روايته ، والقبول لكل ما يورده ، من صدق كلمته ، وأنَّه ما أفاض في هذه الفضائل إلى حضرة الخلافة أعزَّ الله أنصارها ، فوقع ذلك موقع الأحماد ، ثم ذكر مع ذلك توقّف طائفة من الثوار الباقين في شرق الأندلس ، عن مشايعة الأمير ناصر الدين ، ومتابعته وأنهم حالفوا النصارىٰ ، واستنجدوا بهم ، فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم ، والتبرّي منهم ، ليتوب عليهم ، أو ليقطع شأفتهم ، وكتب هذا الشيخ سؤالاً على سبيل الاستفتاء[2] وأفتيت فيه بما اقتضاه الحق ، وأوجبه الدين ، وأعجلني المسير إلى سفر الحجاز ، وتركته مشمراً عن ساق الجد ، في طلب خطاب شريف ، من حضرة الخلافة ، يتضمَّن شكر صنيع الأمير ناصر الدين ، في حمايته لثغور المسلمين ، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ، ليكون رئيسهم ، ورؤوسهم تحت

---

(1) في الأصل عجايب .

(2) في الأصل الاستيفاء .

طاعته ، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين بن عم سيد المرسلين ، ويتعيّن جهاده على كافة المسلمين ، ولم يبالغ أحد في بثّ مناقب قوم مبالغة الشيخ الفقيه أبي محمد في بثّ مناقب الأمير ، وأشياعه المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه إلى أن كلّف جميع من رجىٰ بركة دعائهم الدعاء لهم في تلك المشاهد الكريمة ، والمناسك العظيمة ، وأعلىٰ بالدعاء لأمير بلده الأمير الأجل أبي محمد سير بن أبي بكر(1) ، وفقه الله تعالىٰ ، وذكر من فضله ، وحسن سيرته ، وتلطّفه بالمسلمين ، ورفع جميع النوائب عنهم ما جذبه إلى النفوس ، ولقد دعا الشيخ الفقيه إلى المقام ببغداد على البرّ ، والكرامة ، والاتصال ، يتشرّف بها من حضرة الخلافة ، فأبىٰ إلّا الرجوع إلى ذلك الثغر، يلازمه للجهاد مع الأمراء، وفقهم الله تعالىٰ ، ولو أقام لفاز بالحظ الأوفىٰ من التوقير والإكرام ، وما أجدر مثله بأن يوفىٰ حقه ، من الاحترام ، وولده الشيخ الإمام أبو بكر قد أحرز من العلم في وقت تردّده إليه ما لم يحرزه غيره مع طول الأمد ، وذلك لما خصَّ به ، بعناد الذهن ، وذكاء الحس ، وإنفاذ القريحة ، وما يخرج من العراق ، إلّا وهو مستقل بنفسه ، حائزاً قصب السبق بين أقرانه ، ومثل هذا الوالد والولد بالإكرام في الوطن ، وقد تميّز بمزية التوفيق من الأعيان في الغربة ، والله يحفظ من يحفظهما ، ويرعىٰ من يرعاهما فرعاية أمثالهما من آداب الدين المعينة على أمير المسلمين ، وقد قال المحسنون فليستوصي بمن ظفر بهم خيراً ، كم دخل قبلهما العراق ، ويدخل بعدهما من تلك البلاد النائية ، وما يذكر محاسنهما (32 ب) ولا يرفع مساوئها(2) ، وقد انتهىٰ الشيخ الفقيه من ذلك إلى ما لا يمكن أن يلحق فيه

---

(1) الأمير سير بن أبي بكر هو ابن عم الأمير يوسف بن تاشفين ، وأحد القوّاد الكبار الأربعة الذين كان يعتمد عليهم الأمير يوسف ، وقد أوكل إليه أمر الأندلس سنة 483 هـ (1090 م) واستطاع القضاء على دولة بني العباد في إشبيلية وضمّها لدولة المرابطين ، وفتح معظم مدن الطوائف ، وحارب الإمارات المسيحية ، توفي سنة 507 هـ (1113 م) في إشبيلية ودفن بها .

ابن أبي زرع ، روض القرطاس ص ص 141 ، 147 ، 154 ، 161 ، 162 . ابن عذاري والبيان المغرب ، جـ 4 ، ص 56 .

(2) في الأصل مساويها .

شأوه ، فضلاً عن أن يزاد عليه والله تعالىٰ يعمر بها أوطانهما ويصلح شأنهما ، ويوفِّق الأمير ناصر المسلمين ليتوسل إلى الله تعالىٰ في القيامة ، إكرام أهل العلم فهي أعظم وسيلة عند رب العالمين ، ونسأل الله أن يخلِّد ملك الأمير ، ويؤيِّده تخليداً لا ينقطع أبد الدهر ، ولعلَّ القلوب تنبو عن هذا الدعاء ، وتستنكر لملك العباد التأبيد والبقاء ، وليس كذلك فإنَّ ملك الدنيا إذا تزيَّن بالعدل فهو شبكة ملك الآخرة ، فالسلطان العادل إذا انتقل من الدنيا ، انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه ، ومن ملك إلى ملك أجمل ، وأرفع منه ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً ، ومسلكاً كبيراً ، ومهماً وفي العدل في الرعيّة والنصفة في القضية ، فقد خلد ملكه ، وأيِّد سلطانه ، وقد وفق له بحمد الله ، ومنه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيِّين وآله أجمعين ، ثم قفلنا وقد قضينا من الهجرة إلى الخلافة المفترض ، وحصلنا من العلوم على بعض الغرض ، وكان بودِّي أن لو اختلفت هناك ، فردَّ شيبتي ، وأفنيت معهم بقية عمري ، لكنَّ سوابق المقدار تجري على الاضطرار ، والاختيار ، وفي أثناء القفول[1] ألفيت ذلك الوقت زاهد الوقت ، المحرز من العلوم كل مهال ، وتحت الحائك منها كل خشن ، شيخنا أبا بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي[2] بثغر الإسكندرية اللقاءة الثانية، وأقمت معه فيها نتجاذب ذيول الأشكال ، ونختبر فصول القيل ، والمقال حتىٰ صدرت عنه مملوء الحقائب من الرغائب ، وكتب لي كتاباً نسخته من أوله إلى آخره .

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ،

من محمد بن الوليد الطرطوشي إلى الأمير أبي يعقوب بن تاشفين ،

---

(1) الرجوع أو العودة ، المرجع السابق .

(2) أبو بكر الطرطوشي ، نسبة إلى طرطوشة ، ثغر سرقطة ، وكان إماماً عاملاً ، زاهداً متواضعاً ، سكن مصر ، وتوفي بالإسكندرية سنة 520 هـ . وهو صاحب كتاب سراج الملوك الذي يعتبر من الكتب التي وضعت أسس السياسية الملوكية في التفكير الإسلامي .

ابن بشكوال ، الصلة ص 545 . الضبّي ، بغية الملتمس ص 125 . ابن فرحون ، الديباج ص 276 .

سلام عليك ، أمَّـا بعد فـإنِّي أحمد الله إليـك الذي لا إلـه إلاَّ هـو ، وأشكره لديك كثيراً ، كما هو أهلك ، وأخصّك من مواعظه ، وحكمه ما أن احتزت به نجوت من عظيم ما ركبت إن شاء الله تعالىٰ ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليّ العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، قال الله سبحانه : ﴿ يا داود إنَّـا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ﴾[1] إلى قوله يوم الحساب ـ قال سلمان الفارسي[2] ـ رضي الله عنه ـ أتعلمون من الخليفة ؟ ، الخليفة هو الذي يقضي بكتـاب الله ، ويشفق على الرعيّـة ، شفقة الـرجل على أهله ، وقـال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ﴾[3] فمن مكّنه الله في الأرض ، وآتاه الله سلطاناً ، ولم يفعل ما أمر الله تعالىٰ به في هذه الآية خفنا ألاَّ يكون من أهلها ، لأنَّ الله تعـالىٰ وصف هذه الأمـة إذ فتـح الله تعـالىٰ عليهم الأرض ، وأهلك عدوّهم ، بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأمر بالمعروف ، ونهىٰ عن المنكر ، وقال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يلي عملاً ، أو نال سلطانـاً ، إلاَّ اهتزَّ بـه الصراط حتَّىٰ يزول كل عظم عن حقه ، فإن كان محسناً نجا ، وإن كان مسيئاً هوىٰ سبعين خريفاً »[4] فلمَّا بلغ ذلك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، قال ومن يـرغب في العمل بعـد هذا ، قـال له أبو ذرّ[5] ـ رضي الله عنـه ـ : من

---

(1) ﴿ يا داود إنَّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بـالحقِّ ولا تتَّبع الهـوىٰ فيُضلَّك عن سبيل الله إنَّ الذين يضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ .
سورة صٓ ، الآية : 26 .

(2) كنيته أبو عبد الله ، ويُقال له سلمان الخير ، أصله من إصطخر ، وقيل من أصبهـان . وهو من الطبقة الثانية من الصحابة ـ رضـوان الله عليهم ـ كان عـامل الخليفـة عمر بن الخـطاب علىٰ المدائن توفي سنـة (32 هـ ـ 652 م) ابن تغري بـردي ، المصدر السـابق ، جـ 1 ص 89 . المسعودي ، المصدر السابق ، جـ 1 ، 2 ص ص 306 ، 307 .

(3) سورة الحج ، الآية : 41 .

(4) لم أجد له سنداً .

(5) هو أبو ذرّ الغفـاري ، ويُقال إنَّ اسمـه جندب بن جنـادة ، قدم على الـرسول ـ عليـه السلام ـ فصحبه إلى أن مات ـ عليه السلام ـ تـوفي أبو ذرّ سنـة 36 هـ (656 م) . النويـري ، نهايـة =

صلب الله أنفه ، وأصغر حده ، وروىٰ أنَّ رسول الله ﷺ ، قال : « ما من والٍ يلي رعيّة من المسلمين ، فيموت ، وهو غاشٍ لهم إلّا حرم الله (33 أ) تعالىٰ عليه الجنة »[1] ، وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال للعباس[2] عمه ، لما قال له : مرني على إمارة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس يا عم رسول الله نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها ، إنَّ للإمارة حسرة ، وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل »[3] . وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال : « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته ، والرجل راعٍ على أهل بيته ، ومسؤولٌ عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها ، وهي مسؤولة عنه ، وعبد الرجل راعٍ ، على مال سيده ، وهو مسؤولٌ عنه ، ألا فكلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته »[4] . ولقد بلغ هذا من نفوس الصحابة ، والخلفاء الراشدين ، والأئمّة[5] المهتدين مبلغاً ، ومالت له عقولهم ، ولانت حلومهم ، فروي أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرَّ بطريق مكة ، فأبصر راعياً يرعىٰ بمكان جدب ، فناداه : أيا راع ، قد رأيت مكاناً هو أخصب من مكانك ، فالحق به ، ثم قال : كل راع مسؤول عن رعيّته ، وقال علي : رأيت عمر بن الخطاب يغدو على قتب ، فقلت إلى أين ، فقال : بعير من إبل

= الإرب السفر 18 ص ص 227 ، 228 . الذهبي ، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، جـ 2 ص 111 .

(1) البخاري ، أحكام ، 8 .

(2) هو العباس بن عبد المطلب ، أبو الفضل ، وكان العباس أسنّ من الرسول ـ عليه السلام ـ بسنتين وقيل بثلاث ، كان النّبيّ ـ عليه السلام ـ يعظمه ويجلّه ، ويقول هذا عمي وصنو أبي ، كان جواداً مطعماً ، وصولاً للرحم ذا رأي حسن ، ودعوة مرجوّة ، توفي عام 32 هـ (652 م) .

النويري ، المصدر السابق سفر 18 ص ص 216 ، 220 . الذهبي ، المصدر السابق جـ 2 ، ص 98 ، 99 .

(3) البخاري ، أحكام ، 7 . النسائي ، البيعة ، 39 .

(4) البخاري ، جمعة 11 .

(5) في الأصل الأيمة .

الصدقة قد ندّ[1] ، وأنا أطلبه فقلت : أذللت الخلفاء بعدك[2] يا أمير المؤمنين ، فقال : لا تلمني يا أبا الحسن فوالذي بعث محمداً بالنبوّة ، لو أنَّ سخلة[3] ذهبت بشاطىء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة إلَّا أنه لا حرمة لوالي ضيّع المسلمين ، يا أبا يعقوب لقد بليت بأمر لو حملته السموات لانفطرت ، ولو حملته النجوم لانكدرت ، ولو حملته الأرض ، والجبال لزلزلت ، وتدكدكت[4] ، إنَّك حملت الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها ، وأشفقن منها[5] ، فروي أنَّ آدم ـ صلوات الله عليه ـ ، لمَّا استخلفه الله تعالىٰ في الأرض على ذريته ، وما فيها من الأنعام وعهد الله عهوداً أمره فيها ، ونهاه ، فقام فيها بأمر الله سبحانه إلى أن حضرته الوفاة ، فسأله الله سبحانه ، أن يعلِّمه من يستخلفه ، ويقلّده من الأمانة ما قلّده ، فأمر أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذي أخذ عليه ، من الثواب إن طاع ، ومن العقاب إن عصا ، فأبين أن يقبلنه شفقاً من عقابه ثم أمره أن يعرضه على الجبال ، والأرض فأبينها أيضاً ، ثم أمره أن يعرضه على ولده ، فقبله ولده على شرط أنَّ له الثواب إن أطاع ، والعقاب إن عصىٰ فوبخه الله تعالىٰ على مسارعته ، إلى قبول ذلك فقال : ﴿ وحملها الإنسان إنَّه كان ظلوماً ﴾[6] لنفسه ، جهولاً لعقابه ، وما تقلَّد لربه ، وكان العرض تخييراً لا إجابة . وروي أنَّ عمر بن عبد العزيز لمَّا أفضت إليه الخلافة سمعوا في منزله بكاءاً عالياً فسئل عن البكاء ، فقيل إنَّ عمر خير جواريه ، وقال قد نزل بي أمر شغلني عنكنَّ ، فمن أحبت أن أعتقها ، أعتقتها ومن أحبَّت أن أمسكها لم يكن لها نصيب مني ، قال : فبكين يأساً منه ثم دعا أفاضل المسلمين في زمانه ،

(1) نفر ، شرد .
(2) في الأصل بعدي وضعت ك بدل ي حتىٰ يستقيم المعنىٰ .
(3) السخل : أي الثمر الذي لم يشتد نواه .
(4) تهدمت ، المنجد .
(5) سورة الأحزاب ، الآية : 72 .
(6) سورة الأحزاب ، الآية : 72 .

وعلماءهم في وقته سالم بن عبد الله[1] ومحمد بن كعب[2] ، ورجاء بن حيوة[3] ، فقال لهم : إنّي قد ابتليت بهذا الأمر ، فأشيروا عليّ ، فعد الخلافة بلاء ، وأنت ونظراءك تعدون هذا البلاء نعمة ، فقال له سالم بن عبد الله : يا أمير المؤمنين ، إذا أردت النجاة من عذابها ، فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها الموت ، وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أباً وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم ولدك ، فوقر أباك ، وارحم ، وتحنّن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله أحبّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك (33 ب) واكره ما تكره لنفسك ، ثم متّ متىٰ شئت وإنّي لأخاف عليك أشدّ الخوف ، فاتّقِ الله يا أبا يعقوب في أمة محمد ﷺ ، فإنّ لك مع الله تعالىٰ موقفاً يسائلك فيه عنهم ، شخصاً شخصاً ، ذكراً وأنثىٰ ، صغيراً أو كبيراً ، حراً أو عبداً ، ومسلماً وذمياً ، فأعدَّ لذلك المقام كلاماً ، ولذلك السؤال جواباً ، والذي نفسي بيديه إنَّ ذلك لحق مثل ما أنتم تنطقون . وروىٰ عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما من أحد منكم إلاَّ ويخلو لربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا شيء قدمه غفر يوم القيامة ، حتىٰ يسأل عن خمسة ، عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيمَ علم »[4] . واعلم يا أبا يعقوب فإنّه لا يزني فرج في ولايتك ومدىٰ سلطانك وطول عمرك ، إلاَّ أنت المسؤول عنه ، والمرتهن بجريرته ، وكذلك لا يشرب فيها نقطة مسكر ، إلاَّ وأنت المسؤول عنها ، ولا ينتهك فيها عرض مسلم إلاَّ وأنت المطالب ، ولا

---

(1) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كان ثقة ورع كثير الحديث توفي عام 106 هـ (724 م) . الذهبي ، المصدر السابق جـ 4 ، ص ص 115 ، 116 .

(2) محمد بن كعب القرظي توفي عام 120 هـ (737 م) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جـ 1 ص 285 .

(3) هو أبو المقدام رجاء بن حيوة بن جرول الكندي ، وهو الذي نهض بالخلافة لعمر بن عبد العزيز ، وكان كالوزير لسليمان بن عبد الملك توفي عام 112 هـ (730 م) . ابن خلّكان ، وفيات الأعيان ، جـ 2 ص 60 . الذهبي ، المصدر السابق ، جـ 4 ، ص ص 249 ، 250 .

(4) الترمذي ، قيامة ، 11 .

يتعامل فيها بالربا ، إلاَّ وأنت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ، وكل حرمة انتهكت من حرمات الله تعالىٰ ، فعهدتها عليك ، لأنت قادر على تغييرها ، فأمَّا ما خفي من ذلك ، ولم يكن ظاهراً ، لم يره المسلمون ، فأنت المبَّرأ منه إنشاء الله تعالىٰ ، ألا ترىٰ إلى عمر بن الخطاب كيف أشفق أن يطالبه الله ببعير من إبل الصدقة ، وإنَّما هو البعير للمسلمين ، فركب على بعيره وجعل يطلبه[1] بنفسه ، ولا عذر لك عند الله تعالىٰ ، أن تقول لم يبلغني ، فإنَّك إذا احتجبت عن المسلمين ، فكيف تعلمه وتراه . قال الله تعالىٰ : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[2] من تركهم الأفكار ، وإنَّما لقولهم ، لقوم سخط عليهم هذا من الأكفّاء ، والنظر . فما ظنك بين الولاة ، والأمراء ، قال الله سبحانه : ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ، ولا كبيرة إلاَّ أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾[3] ، ولا يصلح لذلك أحداً في التفسير ، الصغير التبسم ، والكبيرة الضحك ، ولقد بلغني أنَّ عبد الله العمري[4] لما حج لقي هارون الرشيد في الطواف ، فقال يا هارون : فنظر إليه الرشيد فعرفه ، فقال : لبيك يا عمارة ، فقال : كم ترىٰ هاهنا من خلق ، قال : لا يحصيهم إلاَّ الله تعالىٰ ، قال : فاعلم أيُّها الرجل أنَّ كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه ، وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ، فبكىٰ هارون الرشيد بكاءاً شديداً ، فجعلوا يعطونه منديلاً يمسح به دموعه ، قال له : والله يا هارون إنَّ الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرع في مال المسلمين ، ولمَّا دخل طاووس اليماني[5] على سليمان[6] بن عبد الملك ، قال : يا أمير المؤمنين هل تدري من أشد الناس

(1) في الأصل يتطلَّبه .
(2) سورة المائدة ، الآية : 79 .
(3) سورة الكهف ، الآية : 49 .
(4) هو عبد الله بن عمر العمري المديني ، توفي سنة 171 هـ (787 م) . ابن تغري بردي ، المصدر السابق جـ 2 ص 69 .
(5) هو طاووس بن كيسان أبو عبد الرَّحمٰن اليماني الجندي من أبناء الفرس ، وهو من فقهاء التابعين توفي سنة 106 هـ (724 م) . ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جـ 1 ص 260 .
(6) في الأصل سليمٰن .

عذاباً يوم القيامة ، قال سليمان : قل ، فقال : أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه ، فاستلقىٰ سليمان بن عبد الملك على سريره باكياً ، فما زال باكياً حتىٰ قام عنه جلساؤه ، قال أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ : إنَّ الملك ، إذا ملك زهده الله في ماله ، ورغّبه في مال غيره ، وأشرب قلبه للإشفاق من الفقر ، فهو يسخط على القليل ، ويحسد على الكثير حتىٰ إذا قضىٰ الله عليه حاسب بأشدّ حسابه ، وأقلّ عفوه ، فاحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والأرض ، فلا يكون لك فيها موقف قدم ، أعاذنا الله ، وإيّاك في هذا الموقف ، ولقد بلغني يا أبا يعقوب إنَّك احتجبت عن (34 أ) المسلمين بالحجارة ، والطين واتخذتها دونهم حجاباً ، وأنَّ طالب الحاجة ليظل يوم بسائل فما يلقاك ، كأنك لم تسمع قول الله عزَّ وجلّ : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ﴾[1] قال الحسن[2] : لا والله ما كان رسول الله ﷺ ، تغلق دونه الحجب ، ولا يعدي عليه بالجفان ، ولا يراح عليها بها ، ولكن كان كل من أتىٰ يلقىٰ رسول الله ﷺ لقيه ، وكان يجلس بالأرض ، ويصنع[3] طعامه في الأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ويردف[4] عليه عبده ، ويلعق أصابعه . وكان يقول : « من رغب عن سنّتي فليس منّي » ، قال الحسن : فما أكثر الراغبين عن سنة التاركين لها ، كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، يأخذ درَّته[5] ، ويمشي في الأسواق ، ويتفقَّد أمر رعيّته ، وكان يعسّ ليلاً في سكك المدينة مع عبد الرَّحمٰن بن[6] عوف ، وغيره من الصحابة ـ رضي الله

---

(1) سورة الفرقان ، الآية : 7 .

(2) هو الحسن بن علي بن أبي طالب ، ابن فاطمة الزهراء بنت الرسول ـ عليه السلام ـ ، توفي سنة 50 هـ (670 م) . ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جـ 1 ص 139 .

(3) في الأصل يوضع .

(4) يركب خلفه ويتبعه ، المرجع السابق .

(5) السوط وهو مشهور لعمر بن الخطاب ، المرجع السابق .

(6) عبد الرَّحمٰن بن عوف ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وأحد الستة أصحاب الشورىٰ ، توفي سنة 32 هـ (652 م) . ابن تغري بردي ، =

عنهم ـ ، يحفظون عورات المسلمين ، فروي عنه أنَّه استعمل سعداً بن أبي وقاص على الكوفة ، فبلغه أنَّ سعداً اتَّخذ قصراً ، وجعل عليه باباً ، وقال : انقطع التصويت ، فأرسل إليه محمد بن مسلمة[1] ، وقال إذا رأيت سعداً ، فأحرق بابه ، فأتىٰ الكوفة ، وأخرج زناده[2] واستورىٰ[3] ناره ، ثم أحرق الباب ، فجعل سعد يعتذر ، ويحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن مسلمة : تفعل ما أمرتك به ، وتوري عنك القول يا أبا يعقوب ، ولقد بلغني أنَّك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا ، وزخرفتها ، فلبست الناعم ، وأكلت اللين ، وتمتعت بلذاتها ، وشهواتها ، فكأنَّك لم تسمع قول الله عزَّ وجلّ : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها ﴾[4] ، أَوَلَم تسمع سبحانه يقول لنبيِّه ﷺ : ﴿ لنبعثنَّهم فيه ﴾ ، ولقد رأيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : لقد كان يمرّ علينا الشهران والثلاثة ، ما توقد في بيت رسول الله ﷺ نار ، قيل : فما كان عيشكم ، قالت : هما أسودان ، التمر والماء ، ولقد روي أنَّ فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ، نالت رغيفاً من شعير ، فجاءت بكسرة إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ما هذا يا فاطمة ، فقالت : رغيف خبزته يا رسول الله ، ولم تطب نفسي أن آكله حتىٰ أجيئك بهذه الكسرة ، فقال : أمَّا إنَّه أول طعام دخل جوف أبيكِ منذ ثلاثة أيام ، هذا لو شاركوكِ في خفض العيش ، لنهيت عنه ، وكان الله تعالىٰ أخذ على الأئمَّة مثل ما روي عن يوسف ﷺ ، أنَّه كان يأكل الشعير ، ويطعم عياله الخشكار[5] ، ويطعم

= المصدر السابق ، جـ 1 ص 89 .
الذهبي ، المصدر السابق ، جـ 2 ، ص ص 105 ، 107 .

(1) هو محمد بن مسلمة بن سلمة ابن جريش الأشهلي الأنصاري توفي في عهد معاوية الخليفة الأموي . الذهبي ، المصدر السابق ، جـ 2 ص ص 245 ، 246 . الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ 4 ص ص 190 ، 210 .

(2) في الأصل زندة .

(3) أخرج ناره ، المرجع السابق .

(4) سورة الأحقاف ، الآية : 20 .

(5) الخبز الأسمر غير النقيّ ، وهي فارسية ، المختار الصحاح .

المسلمين الحواري[1] وكان يجوع نفسه ، فقيل له لم تجوع ، وبيدك خزائن الأرض ، فقال : أخاف أن أشبع فأنسىٰ الجائعين ، وروي أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما أفضت إليه الخلافة ، قال : إنِّي أنزلت نفسي في مال الله سبحانه بمنزلة ولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، وروي عنه أنَّه قال : أخبركم بما يحلُّ لي من مال الله سبحانه ، أستحلُّ منه حلتين ، حلة الشتاء ، وحلَّة القيظ ، وما أحجُّ عليه ، وأعتمر ، وقوتي وقوت عيالي ، كقوت رجل من قريش ، لا من أغنيائهم ، ولا من فقرائهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم ، فكيف والفقراء ببابك يتضاوعون[2] ، وذوو الحاجات يتودّدون ، وأهل الديون ، والغرم في السجون ، محبوسون ، مأسورون ، وأموال المسلمين تحت يدك وفي قبضتك ، أما سمعت أنَّ رسول الله ﷺ قال : « من ترك مالاً فلورثته (34 ب) ومن ترك كلّاً فعلينا »[3] أما سمعت قول الله تعالىٰ : ﴿ إنَّما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾[4] الآية ، إلى قوله الغارمين ـ يا أبا يعقوب إنَّه كبرت السن وانحلَّت القوىٰ ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾[5] ، وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجاءت الآخرة مقبلة ، وحان الفراق ، والتفَّت الساق بالساق ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، فالبدار البدار إلى حياة لا موت فيها ، وشباب لا هرم معه ، وصحة لا سقم فيها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ﴾[6] إلى قوله من فضله ، فروي عن ابن عباس أنَّ النَّبيّ ﷺ قال : « لما أصيب أخوانكم يوم أحد جعل

---

(1) الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق ، المرجع السابق .

(2) ينتشرون ، المنجد .

(3) البخاري ، كتاب الفرائض ، باب ميراث الأسير .

(4) ﴿ أنَّما الصَّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرِّقاب والغارمين ﴾ . سورة التوبة ، الآية : 60 .

(5) ﴿ قال ربِّ إنِّي وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقيّاً ﴾ . سورة مريم ، الآية : 4 .

(6) سورة آل عمران ، الآية : 169 .

الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتـأكل من ثمـارها ، وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحـت العرش ، فلمَّا رأوا طيب مقيلهم ، ومطعمهم ، ومشـربهم ، ورأوا ما أعـدَّ الله لهم من الكرامة ، قالوا : يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعم ، وما صنع الله بنا كي يرغبوا في الجهاد ، ولا ينكصوا عنه ، فقال الله تعالىٰ : أنا مخبرٌ عنكم ، ومبلِّغٌ أخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحيـاءٌ ﴾[1] الآيـة . وقال جـلَّ من قائـل : ﴿ إنَّ الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة ﴾[2] ، إلى قوله الفوز العظيم . فما ظنّك بتجارة الله مشتريها ، يوشك والله ألاَّ تبور ، وقال جلَّ من قائل : ﴿ يـٰأيُّها الذين آمنـوا ، هل أدلُّكم على تجـارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾[3] فلو قطع هنا لانقطعت الأعيان في البحث عن هذه التجارة ، كأنَّ الله بفضله وكرمه ، بيَّن مراده من ذلك ، فقال : ﴿ تؤمنون بالله ورسولـه ﴾[4] إلى قوله كنتم تعلمون » ، وقال رسول الله ﷺ : « مثل المجاهدين في سبيـل الله كمثل الصائم ، القائم ، لا يفتر من صلاة ، ولا صيام حتىٰ يرجع » ، وروي أنَّ رسول الله ﷺ ، تكفَّل الله لمن جاهد في سبيل الله ، لا يخرجه من بيته إلاَّ الجهاد في سبيل الله ، وتصديق كلمته أن يدخله الجنـة ، ويرده إلى مسكنـه الذي خرج منه مع ما نال من أجر ، وغنيمة ، وقال رسول الله ﷺ : « لولا أن أشقَّ على أمتي ، لأحببت ألاَّ أتخلَّف عن سرية تخرج في سبيل الله ، ولكنَّني

---

(1) سورة آل عمران ، الآية : 169 .

(2) ﴿ إنَّ الله اشترىٰ مِنَ المؤمنين أنفُسهم وأموالهم بـأنَّ لهم الجنَّة يُقـاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقّاً في التَّوراةِ والإنجيل والقرآن ومن أوفىٰ بعهده مِنَ الله فاستبشروا ببيعكم الَّذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .
سورة التوبة ، الآية : 111 .

(3) سورة الصف ، الآية : 10 .

(4) ﴿ تؤمنون بالله ورسـوله وتجـاهدون في سبيـل الله بأمـوالكم وأنفسكم ذلك خيـر لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .
سورة الصف ، الآية : 11 .

لا أجد ما أحملهم عليه ، ويشقّ عليهم أن يتخلّفوا بعدي ، والذي نفسي بيده لوددت أن أقاتل في سبيل الله ، فأُقتل ثم أحيا ، فأُقتل ثم أحيا ، فأُقتل ، والذي نفسي بيده لا يكلم[1] أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، ، إذا جاء يوم القيامة ، وجرحه يتعب دماً ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك »[2] ، وقال أنس بن مالك : استشهد عمي يوم أُحُد ، وكان قد غاب عن بدر ، فقال : يا رسول الله ، إنَّ الله أشهدني قتل المشركين ، ليرىٰ ما أصنع ، فلمَّا كان يوم أُحُد قال : إنِّي لأجد ريح الجنة دون أُحُد ، قال : فما استطعت يا رسول الله ، ما أصنع ، فوجدنا بضعاً وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة بالرمح ، أو رمية [بسهم][3] وقتل من المشركين ، فنزل فيه وفي أفعاله : ﴿ ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضىٰ نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدَّلوا تبديلاً ﴾[4] واعلم يا أبا يعقوب أنَّ الله تعالىٰ فرض الجهاد على كافة المسلمين ، ولا يردّه جور جائر ، ولا فسق فاسق ، إلى أن تقوم الساعة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾[5] إلى قوله صاغرون ، فلم يرِّخص لهذه الأمة في ترك جهاد عدوهم إلَّا بإعطاء الجزية (35 أ) أو كلمة الإسلام ، وهذه الآية نسخت كل آية في كتاب الله تعالىٰ تتضمَّن الإعراض عن المشركين ، وروىٰ أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ترك قوم الجهاد ، إلَّا عمَّهم

---

(1) يجرح ، المرجع السابق .

(2) البخاري ، الإيمان ، المواقيت ، الجمعة ، الصوم ، الجهاد . مسلم ، الإمارة ، طهارة المساجد . الترمذي ، الطهارة . النسائي ، الطهارة .

(3) يوجد بياض بالنص . أُضيفت الكلمة من الحديث .
والحديث ورد في البخاري في باب غزوة أُحُد .

(4) سورة الأحزاب ، الآية : 23 .

(5) ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ .
سورة التوبة ، الآية : 29 .

العذاب ، فجهاد الكفار فرض عليك ، فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس ، لأنك أقرب الملوك إليها ، وعندك الكراع[1] والسلاح ، ولامة[2] الحرب وآلتها ، وجيوش المسلمين ، وحماة البيضة[3] طائعون لك ، وكذلك كل من بنواحيك ، وجنبات أعمالك من المجاهدين ، والمقاتلين ، وأولي البطش والقوة ، وأنت في حرج من تضييع من في ثغور أرض الأندلس من جماعة المسلمين ، والحرم ، والذراري أفلا تأسيت بمن سافر إليها ، وأقصىٰ المضيّ من أرض الحجاز من حماة المسلمين ، ومجاهديهم ، حتىٰ استفتحوها ، وبثوا فيها كلمة الإسلام ، وشهادة التوحيد ، فكيف بمن يناسخها ، ويجاورها يا أبا يعقوب إذا أردت الظفر بالعدو ، فعليك بالعدل في الرعيّة ، فقد روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، أنَّ وفداً من الوفود قدم عليه بالفتوح ، فقال له عمر : متى لقيتم عدوكم . فقال من أول النهار ، قال : فمتىٰ انهزموا فقال في آخر النهار فقال عمر : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، وقاوم الشركَ الإيمانُ من أول النهار ، حتىٰ اعتدل النهار ، والله إن كان هذا عن ذنب أخذتموه بعدي ، أو أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت يعلىٰ بن أمية[4] على اليمن يستنصر لكم بصلاحه ، وكتب أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ إلى جنده بالشام ، وإنَّما يؤتىٰ العشرة الآلاف ، وأكثر إذا أوتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ، وممَّا أتحف به ، وهو خير لك من قلاع الأرض ذهباً ، لو أنفقت في سبيل الله ، حديث رواه الأئمَّة الثقاة عن رسول الله ﷺ ، فروىٰ مسلم في كتابه الصحيح ، نقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ ، أنَّه قال : « لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرة على الحق ، حتىٰ يأتي أمر

---

(1) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير ، المنجد .

(2) أداة الحرب من رمح وسيف ودرع ، المرجع السابق .

(3) البلد ، المرجع السابق .

(4) هو يعلىٰ ابن أمية التميمي المكّي ، كان يفتي بمكة ، وقيل إنَّه عمل لعمر على نجران وولي صنعاء في عهد عثمان ، توفي سنة 37 هـ (657 م) .
الذهبي ، المصدر ا لسابق ، جـ 2 ص 326 .

الله ، والله أعلم »[1]، هل أرادكم رسول الله ﷺ ، معشـر المرابـطين ، أو أراد بذلك جملة بلاد المغرب ، وما هم عليه من التمسك بالسنّة ، والجماعـة ، وطهارتهم من البدع والإحداث في الدين ، والاقتفاء بأثر من السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ ، وإنّا لنرجو[2] أن تكون أولىٰ سابقيه ينهـون عن الفساد في الأرض ، ولقـد كنّا في الأرض المقـدسة ، جبـر الله مصابهـا ، تتـرىٰ علينـا أخبارك ، وما قمت به من أداء فريضة الله تعالىٰ في جهاد عدوه ، وإعزاز دينه وكلمته ، وكان من هناك من العلماء ، والفقهـاء ، وحملة الدين ، والعبـاد ، والـزهّاد ، والمنقـطعـون إلى الله تعـالىٰ يـدعـون الله سبحـانـه في نصـرك ، وتأييدك ، والفتح على يديك ، فلأن كنت تستنصر بجنود أهـل الأرض ، لقد كنّا نستنصر لك بجنود أهل السماء ، حتىٰ قدم علينا بالأرض المقدسة ، الفقيه أبـو محمد عبـد الله بن العـربي ، وابنـه الفقيـه الحـافظ أبـو بكـر محمـد بن عبد الله ، فذكراً من سيرتـك في جهاد العـدو ، وإهلاكـه الله تعالىٰ في تلك الأندية ، والمحافل ، والحلل[3] ، والمجالس وصبرك على مكافحة العـدو ، ومصابرته وإعزازك للدين ، وأهله ، والعلم وحملته ، ما زاد المسلمون بصيرة في الدعاء لك ، وحين الاعتقاد فيك ، حتىٰ تمنينا أن نجاهد الكفـار معك ، ونكثر سواد المسلمين في حلّتـك ، نسأل الله تعـالىٰ الذي يهب الجـزيل من فضله أن يهبنا وإيّاك الشهادة في سبيله ، ثم إليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقاً (35 ب) فتتبعه والباطل باطلاً فتجتنبه ، فصلاح الرعيّة بصلاح الراعي ، والفقيه أبو بكـر محمد بن عبـد الله بن العربي ، ممّن صحبنـا أعوامـاً يدارس العلم ، ويمارسه بلوناه ، وخبرناه ، وهو من جمع العلم ، ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، ونـاظر فيـه ، وجد ، حتىٰ فـاق أقرانـه ، ونظراءه ، ثم رحـل إلى العراق فناظـر العلماء وصحب الفقهـاء ، وجمع من مـذاهب العلم عيونهـا ،

---

(1) ورد الحديث في البخاري في باب الاعتصام ، ومسلم في باب الإيمان . لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحق . . .

(2) في الأصل نرجوا .

(3) المجلس والمجتمع حيث يحلّ القوم ، المنجد .

وكتب من حديث رسول الله ﷺ ، وروى صحيحه ، وثابته ، والله تعالىٰ يؤتي الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرّك ، فاشدد عليه يدك ، واحفظ فيه ، وفي أمثاله وصية الله سبحانه ، لنبيّه ـ عليه السلام ـ ، قال الله سبحانه ، وهو أجل القائلين ، ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾[1] والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله تعالىٰ وبركته ، وصلّىٰ الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيّين وآله الطيّبين الطاهرين ، وسلم وشرف ، وكرم ، وأفضل وأنعم .

---

(1) سورة الأنعام ، الآية : 54 .

الخاتمة

كـان لهجرة بعض قبائل البربر واختلاطها بقبائـل السـودان في غـرب إفريقيا ، والاحتكاك المستمر بين شعوب شمال الصحراء وجنوبها أن أدّىٰ إلى نوع من الاتصال الذي كان لـه كبير الأثـر على نوعيـة العلاقـات بين الطرفين العقائدية والاقتصادية .

وبقيام دعوة المرابطين على أكتاف ثلاث من أكبر قبائـل الملثمين وهي لمتونة ومسوفة وجدالة أثر بالغ في تاريخ هذه المنطقة ، فقد كانوا أشبه بالدماء الجديدة التي أمدَّت المسلمين بطاقة كبيرة دفعت حركة الجهاد ونشر الإسلام خطوات إلى الأمام بعد أن توقف المد الإسلامي نتيجة للفتن ، وقيام دويلات شغلت بـالمنازعـات الشخصية والعصبيـة ، ومحاولـة فرض مـذاهب لا تتفق وعقيدة قبائل المغرب المذهبية .

اتخذت دولة المـرابطين من الجهـاد ، ونشر الإسـلام هدفـاً أساسيـاً ، جنَّدت له كل إمكانياتها ، واتَّخذت من مذهب مالك شعاراً لها ، ومناراً تهتدي به في كل تحركاتها .

وفي سبيـل هذه الأهـداف تحركت قبـائـل الملثمين من الصحـراء إلى السودان جنوباً ، وإلى المغرب والأندلس شمالاً ، فغيّـرت البيئة الصحـراوية التي فيها ، بتحرّكها إلى جبال الأطلس ، وعبورها البحر إلى الأندلس .

ورغم أنَّ جهـاد دولـة المـرابـطين في الأنـدلس قـد استنفـذ قـواهـا ، وجهـدها ، فـإنَّ دور المرابـطين في غرب إفـريقيا كـان بعيـد الأثـر في هـذه المنطقة .

ومن خلال هذا البحث توصلت إلى أنَّ ثورة الملثمين على عبد الله بن ياسين كانت بعد وفاة زعيم الحلف الصنهاجي الثاني الأمير يحيىٰ بن إبراهيم الجدالي ، وأنَّ الجوهر بن سكم زعيم الثورة ، كان أحد الفقهاء الذين رافقوا الأمير يحيىٰ أثناء حجه ومروره بالقيروان .

وإذا كان رباط ابن ياسين ما زال يثير كثيراً من الجدل حول مكانه ، فقد رجحت له مكاناً فوق ربوة شعراء على أحد الأودية في الصحراء في مضارب لمتونة ، كذلك ألقيت بعض الضوء على العلاقة بين الأمير أبي بكر بن عمر ، ونائبه في المغرب الأمير يوسف بن تاشفين ، كما حاولت توضيح خط سير الأمير أبي بكر بن عمر في جهاده في السودان الذي انتهىٰ بسقوط إمبراطورية غانة القديمة .

وتوصَّلت إلى أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين ، ترك مواصلة مطاردة فلول المسيحيين في الأندلس بعد معركة الزلاقة ، لوفاة ابنه الأمير أبي بكر ، وخوفه من اضطراب الأوضاع في المغرب وتحرك أمير قلعة بني حماد لمهاجمة شرق المغرب[1] .

وبيّنت أنَّ إمبراطورية غانة لم تنفصل عن المرابطين في عهد الأمير يوسف بن تاشفين ، وإنَّما كانت في عهد ابنه الأمير علي بن يوسف .

ومن النتائج المهمة لهذه الدراسة ، إبراز دور المرابطين الذي لا ينكر في نشر الثقافة العربية والإسلامية في السودان الغربي ، فضلاً عن نقل المؤثرات الأندلسية والمغربية إلى منطقة غرب إفريقيا ، فكان أهل السودان يكتبون على طريقة المغاربة في الخط وإعجام الحروف وترتيبها ، فكانت مدارسهم تكاد تكون مغربية صرفة ، تدرس فيها نفس المناهج والكتب التي تعنىٰ بالمذهب المالكي على الخصوص وظهر تأثرهم بتعاليم ابن ياسين في التشدّد في أداء

---

(1) انظر بحثنا عن أسباب عودة يوسف بن تاشفين بعد الزلاقة في مجلة دعوة الحق العدد 262 جمادىٰ الأولىٰ والثانية 1407 هـ/ فبراير 1987 ، العدد 266 محرم 1408 هـ/ أغسطس 1987 .

فروض الشريعة وفي تربية أطفالهم .

وارتبطت المدارس بالدين الإسلامي ، فكانت تلحق بالمساجد والرباطات ، وكان رباط عبد الله بن ياسين المثل الذي يقتدون به في تعليمهم ، أمّا القرىٰ التي لا يوجد بها مسجد فكان أطفالها يتلقّون تعليمهم على يد أحد الدعاة في ساحة القرية أو في غرفة يتبرّع بها أحد الأثرياء في منزله .

وتكوّنت طبقة من أهل السودان الذين تلقّوا تعليمهم على المغاربة ، فأتقنوا اللغة العربية وعلوم الفقه والحديث وكان العلماء والطلبة يقومون بالرحلة من مدن السودان إلى مدن وحواضر المغرب المختلفة يُعَلِّمون ويَتَعَلَّمون .

وتأسّست مدينة تنبكت في عام 490 هـ ـ 1096 م ، في عهد يوسف بن تاشفين أسستها إحدىٰ قبائل الملثمين فبلغت مكانة كبيرة في الثقافة العربية الإسلامية حتىٰ أنّها كانت لا تقلّ عن القيروان أو فاس أو مراكش أو قرطبة ، اجتمع فيها العلماء من كافة الأجناس والألوان ووفد إليها علماء وفقهاء من المغرب والأندلس ومصر والحجاز وكافة بلاد السودان .

كما كان لإسلام أمير جنىٰ في عهد المرابطين أثر مهم في ازدهار الحياة الثقافية والاقتصادية فكانت تعقد فيها الحلقات الدراسية والمناقشات العلمية التي تبدأ من منتصف الليل إلى صلاة الصبح ، وبعد الصلاة يجلس الطلبة حول العلماء إلى وقت الزوال وبعد استراحة تنشط من جديد بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر .

كما يجب ألاَّ نغفل دور دعاة المرابطين الذين كانوا يصاحبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الدين الإسلامي ، وليعملوا على تدعيم الدين ، واستطاع هؤلاء الدعاة أن يكونوا طبقة من الدعاة من بين قبائل التكرور ، فقامت هي الأخرىٰ بالدعوة للإسلام بين قبائل الولوف ، والفولبي ، والماندنجو ، فأسّسوا المدارس في الزوايا والرباطات والمساجد وقاموا بالتعليم فيها ، فاكتسبوا محبة الناس واحترامهم ، واستمرَّ هؤلاء الدعاة

في نشاطهم حتىٰ بعد سقوط دولة المرابطين .

وكان لتوحيد أقاليم السودان والمغرب والأندلس واستتباب الأمن داخل أرجاء الدولة المرابطية ، أن ازدهرت الحياة الاقتصادية فنشطت القوافل التجارية بين الشمال والجنوب ، تحمل منتجات ومصنوعات الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي إلى السودان ، وتأتي بخيرات السودان إلى أنحاء الدولة المترامية الأطراف ، ومع هذه التجارة جاءت الأفكار والتعاليم الإسلامية فكانت المراكز التجارية مراكز للدعوة والفكر الإسلامي ، وقد نجح بعض التجّار أن يُدخلوا ملوكها في الإسلام بفضل ما وصلوا إليه من مراكز سامية في ممالك السودان وعن طريقهم دخلت الحاشية والطبقة الأرستقراطية ، فكان معنىٰ إسلام هذه الطبقة دخول عامة الناس في الدين الحنيف .

ونتيجة لهذا النشاط التجاري والثقافي وانتشار الإسلام ، نشطت قوافل الحج إلى الأراضي المقدسة وبعودتهم تكون نفوسهم مملوءة حماساً لنشر الإسلام والثقافة العربية .

وبعد سقوط المرابطين استمرَّت علاقة قبائل الملثمين بممالك السودان طيبة ، فكان علماء وفقهاء صنهاجة يقومون بتدريس الفقه والحديث وعلوم العربية ، واستعان بهم ملوك السودان في وظائف القضاء والإفتاء .

وبعد فرغم هذا الجهد المتواضع ، أجد أنَّ هذا الموضوع في حاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث ، ومحاولة الكشف عن المخطوطات الموجودة ببلاد السودان والتي حاول الاستعمار الإقلال من شأنها أو إخفاءها حتىٰ يفرض نوعاً من الغموض على تواصل المغرب بجذوره ودوره الفعال في نشر الثقافة العربية الإسلامية ومحاولة إبراز فترات القطيعة والتركيز على بعض التجاوزات العسكرية .

وعندما أذكر المغرب فأنا أقصد المغرب بمفهومه الواسع القديم الذي يشمل الشمال الإفريقي ، فقد كان لكل جزء منه دوره الفعَّال في الجهاد ونشر الإسلام والمحافظة على العقيدة والمذهب واللغة .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً ـ المصادر العربية

أ ـ مصادر مخطوطة :

1 — أبو بكر المعافري الأندلسي الإشبيلي ، ت 543 هـ ـ 1148 م . رحلة أبي بكر المعافري الأندلسي ، مخطوطة بدار الوثائق بالرباط ، رقم د 1020 .

2 — التوزري (ابن عبد الملك بن الكردبوس التوزري ، ت آخر القرن الثامن الهجري ـ 14 م) . الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس ، رقم 18593 .

3 — العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله ت 749 هـ ـ 1348 م) . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة رقم 530 .

4 — مجهول (أحد المغاربة أو الأندلسيين من معاصري الخليفة يعقوب المنصور الموحدي) . المخطوط ناقص بعض الأوراق من البداية والنهاية . دار الكتب الوطنية ، مكتبة حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ، رقم 18667 .

5 — النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم ت 732 هـ ـ 1331 م) . نهاية الإرب في فنون الأدب ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، رقم 39 معارف عامة .

ب ـ مصادر مطبوعة :

ـ ابن أبي بكر البرتلي الولاتي : « أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي

بكر الصدِّيق » 1119 ـ 1219 هـ . فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور 263 ، تحقيق إبراهيم الكتّاني ومحمد حجّي .
6 — ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي 595 — 658 هـ ـ 1198 — 1259 م . التكملة لكتاب الصلة ، نشره وصحّحه عزت العطار الحسيني ، القاهرة 1955 .
7 — الحلّة السيراء ، تحقيق د . حسين مؤنس ، القاهرة 1963 .
8 — المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، نشر فرانسيسكو كوديرا ، مدريد 1885 .
9 — ابن الأثير (أبي الحسن علي بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني ت 630 هـ ـ 1232 م) . الكامل في التاريخ ، ط . بولاق ، مصر 1303 هـ .
10 — ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك ، 494 — 587 هـ ـ 1100 — 1191 م) . كتاب الصلة في تاريخ أئمّة الأندلس وعلمائهم ، ومحدّثيهم ، وفقهائهم ، وأدبائهم الدار المصرية للنشر 1966 .
11 — ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ت 779 هـ ـ 1377 م) . تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، باريس 1853 م .
12 — ابن تغربردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغربردي 813 — 874 هـ ـ 1410 — 1469 م) . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، بدون تاريخ .
13 — ابن حجر (أحمد بن علي بن محمد علي الكتاني العسقلاني 773 — 852 هـ ـ 1371 — 1448 م) . كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ، مصر 1907 .
14 — ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي 358 هـ ـ 968 م) . صورة الأرض ، بيروت ، بدون تاريخ .
15 — ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان ، ت 529 هـ ـ 1134 م) . قلائد العقيان ، القاهرة 1273 هـ .

16 — مطمح الأنفس ، القاهرة 1325 هـ .
17 — ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الخطيب الملقّب بلسان الدين 766 هـ ـ 1374 م) . أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، جالرمو ، 1910 .
18 — القسم الثالث من أعمال الأعلام ، تحقيق وتعليق د . أحمد مختار العبادي ، والأستاذ إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء 1964 .
19 — ابن خلدون (عبد الرَّحمٰن بن خلدون المغربي ت 808 هـ ـ 1405 م) . العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت 1956 .
20 — ابن خلّكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلّكان 608 — 681 هـ ـ 1211 — 1282 م) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د . إحسان عباس ، بيروت 1968 .
21 — ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ، القرن 12 هـ ـ 18 م) . المؤنس في أخبار إفريقيا والمغرب ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، تونس 1387 هـ .
22 — ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله ت 726 هـ ـ 1325 م) . الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس ، الرباط 1973 .
23 — ابن سعيد (علي بن سعيد المغربي ت 685 هـ ـ 1286 م) . كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ، تطوان 1958 .
24 — ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الباجي ت 594 هـ ـ 1198 م) . تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمّة وجعلهم الوارثين ، تحقيق د . عبد الهادي التازي ، بيروت 1964 .
25 — ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرَّحمٰن بن عبد الله القرشي ت 257 هـ ـ 870 م) . كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة 1961 .

26 — ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي ، القرن الخامس الهجري ، 11 م) . رسالة في الحسبة ، نشر ليفي بروفنسال 1955 . ابن عذاري المراكشي ت في أواخر القرن السابع الهجري ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، نشر د . إحسان عباس ـ بيروت 1967 .

27 — ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن عليّ بن محمد ت 799 هـ ـ 1396م) . الديباج المذّهب في معرفة أعيان المذهب ، القاهرة 1239هـ .

28 — ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني ت بعد سنة 290 هـ ـ 902 م) . كتاب البلدان ، ليدن 1302 هـ ـ 1885 م .

29 — ابن القطّان (علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيىٰ الكتامي ت 628 هـ ـ 1230 م) . جزء من كتاب نظم الجمان ، تحقيق د . محمود علي مكّي ، تطوان بدون تاريخ .

30 — ابن الوردي (زين الدين أبو حفص عمر ، ت 749 هـ ـ 1348 م) .

30 — تاريخ ابن الوردي ، مصر 1285 هـ .

31 — أبو عبد الله محمد ابن القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي ، ت 575 هـ ـ 1179 م) . التعريف بالقاضي عياض ، نشر وتحقيق د . محمد بن شريفة ، الرباط 1974 .

32 — أبو الفداء (الملك المؤيَّد عماد الدين إسماعيل أبي الفداء ، ت 732 هـ ـ 1331 م) . المختصر في تاريخ البشر ، بيروت بدون تاريخ .

33 — أحمد بابا التنبكتي (أبو العباس أحمد بن أحمد عمر ، ت 1036 هـ ـ 1627 م) . نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تحقيق ناطق صالح مطلوب ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس 1973 .

34الإدريسي (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي ت 649 هـ ـ 1251 م) . صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ليدن 1864 .

35 — الإصطخري (أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد الفارسي ، ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري 10 م) . كتاب المسالك والممالك ، تحقيق د . الحيني ومراجعة الأستاذ شفيق غربال ، القاهرة 1961 .

36 — البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري ، ت 487 هـ ـ 1094 م) . المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، مكتبة المثنّىٰ ـ بغداد 1966 .
37 — البيدق (أبو بكر الصنهاجي ، القرن السادس الهجري ـ 12 م) . أخبار المهدي بن تومرت ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس 1928 .
38 — التادلي (أبو يعقوب يوسف بن يحيىٰ بن عيسىٰ بن عبد الرَّحمٰن الزيّات ت 627 هـ ـ 1229 م) . التشوّف إلى رجال التصوّف ، نشر أدولف فور ، الرباط 1958 .
39 — التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني ت 706 هـ ـ 1307 م) . الرحلة التيجانية ، قدَّم لها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس 1958 .
40 — الجزنائي (أبو الحسن علي) ، زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تلمسان 1922 .
41 — الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي ، ت 448 هـ ـ 1056 م) . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، نشره الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة 1952 .
42 — الحميري (أبي عبد الله محمد بن عبد المنعم السبتي جمعه مؤلّفه سنة 866 هـ ـ 1462 م) . الروض المعطار في أخبار الأقطار ، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة 1937 .
34 — الدباغ (عبد الرَّحمٰن بن محمد بن عبد الله الأنصاري ، ت 696 هـ ـ 1296 م) . معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق الشيخ أبي القاسم بن عيسىٰ بن ناجي التفوّضي القيرواني ، تونس 1320 هـ .
44 — الدمشقي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري المعروف بشيخ الربوة ت 727 هـ ـ 326 م) . نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر ، بغداد 1923 .
45 — الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748 هـ ـ 1347 م) . تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مصر 1368 هـ .

46 — الرقيق القيرواني (أبو إسحٰق إبراهيم بن القاسم ، القرن الخامس الهجري ، 11 م) . تاريخ إفريقيا والمغرب ، تحقيق د . المنجي الكعبي ، تونس 1967 .

47 — الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي ، ت 932 هـ ـ 1525 م) . تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية ، تونس 1289 هـ .

48 — السعدي (الشيخ عبد الرَّحمٰن بن عبد الله بن عامر السعدي 1005 — 1066 هـ ـ 1596 — 1655 م) . تاريخ السودان ، نشره هوداس ، أنجي ، باريس 1898 م .

49 — الشريشي (أحمد بن عبد المؤمن ، ت 619 هـ ـ 1223 م) . شرح مقامات الحريري ، مصر 1300 هـ .

50 — الشهرستاني (أبو بكر محمد بن أبي القاسم عبد الكريم ، ت 548 هـ ـ 1153 م). الملل والنحل ، القاهرة 1948 .

51 — الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، 224 — 310 هـ ـ 838 — 922 م) . تاريخ الرسل والملوك ، مصر 1963 .

52 — عبد الله بن بلقين (الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري بغرناطة 447 — 483 هـ ـ 1055 — 2090 م . التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة (مذكرات الأمير) ، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة 1955 .

53 — عبد الواحد المراكشي (محيي الدين أبو محمد عبد الواحد التميمي 581 — 621 هـ ـ 1185 — 1224 م) . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العملي ، القاهرة 1949 .

54 — القاضي عياض (أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض اليحصبي السبتي ت 544 هـ ـ 1149 م) . ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق د . أحمد بكير محمود ، بيروت 1967 . الغنية ، فهرست شيوخ القاضي عياض ، تحقيق ماهر زهير ، بيروت 1982 .

55 — الغرناطي (أبو حامد محمد بن عبد الرَّحيم الأندلسي ، ت 566 هـ ـ 1170 م) . كتاب تحفة الألباب ، نشر فرارد Ferrard ، باريس 1925 .
56 — القزويني (زكريا بن محمد ، ت 682 هـ ـ 1283 م) . آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، بدون تاريخ .
57 — القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ، ت 821 هـ ـ 1418 م) . صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا ، القاهرة 1963 .
58 — كعت (القاضي الفع محمود كعت بن الحاج المتوكّل كعت ، العاشر الهجري ، 16 م) . تاريخ الفتاش في أخبار البلدان ، والجيوش ، وأكابر الناس ، وذكر وقائع التكرور ، وعظائم الأمور ، وتفريق أنساب العبيد من أحرار ، نشره هوداس ، ودلافوس ، أنجي ، باريس 1913 .
59 — المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله ، القرن الخامس الهجري ، 11 م) . رياض النفوس في طبقات علماء ، القيروان وإفريقيا وزهادهم ، وعبادهم ، ونساكهم ، نشره وعلّق عليه د . حسين مؤنس ، القاهرة 1951 .
60 — مجهول (مؤلّف مراكشي من كتّاب القرن السادس الهجري ، 12 م) . الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق د . سعد زغلول عبد الحميد ، جامعة الإسكندرية ، مصر 1958 ، مجهول (انتهىٰ من كتابته في 872 هـ ـ 1467 م) .
61 — الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تونس 1913 م .
62 — مجهول (ألَّفه سنة 712 هـ ـ 1312 م) . مفاخر البربر ، اعتنىٰ بنشرها وتصحيحها ليفي بروفنسال ، رباط الفتح 1932 .
63 — المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن عليّ ، ت 346 هـ ـ 958 م . مروج الذهب ومعادن الجوهر ، نشر يوسف داغر ، بيروت 1973 .
64 — المقدسي (شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر الشامي المقدسي 335 — 360 هـ ـ 946 — 1000 م . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن 1877 م .

65 — المقري (أحمد بن محمد ، ت 1041 هـ ـ 1633 م) . نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، مصر 1936 .
66 — المقريزي (تقي الدين أحمد بن عليّ ، ت 845 هـ ـ 1441 م) . الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ملوك الإسلام ، مصر 1895 م .
67 — ياقوت الحموي (أبو عبد الله ياقوت الحموي ، ت 626 هـ ـ 1228 م) . معجم البلدان ، مصر 1906 .

ثانياً ـ المراجع العربية

68 — د . إبراهيم طرخان ، إمبراطورية غانا الإسلامية ، القاهرة 1970 .
69 — دولة مالي الإسلامية ، القاهرة 1973 .
70 — د . أحمد مختار العبادي ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، وأهميته في تاريخ المرابطين والموحّدين « مجلة تطوان » العدد الخامس المملكة المغربية 1960 .
71 — الصفحات الأولىٰ من تاريخ المرابطين « مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، مجلد 20 سنة 1966 .
72 — د . إحسان عباس ، عصر الطوائف والمرابطين ، بيروت 1962 .
73 — الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق « مجلة الأبحاث » ، الجامعة الأميركية ، بيروت 1963 .
74 — رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صوّرها « قانون التأويل » مجلة الأبحاث ، الجامعة الأميركية ، بيروت 1968 .
75 — أشباخ (يوسف أشباخ) ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ط . ثانية القاهرة 1958 .
76 — توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د . حسن إبراهيم حسن ، القاهرة 1971 .
77 — جان وجيروم طارو ، أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحّدين ، ترجمه وعلّق عليه أحمد بلافريج ، ومحمد الفاسي ، الرباط 1349 هـ

78 — ديشان (هوبير) ، الديانات في إفريقيا السوداء ، ترجمة أحمد صادق ، مصر 1956 .
79 — د . حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفـريقية ، ط . ثانية ، القاهرة 1964 .
80 — انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرىٰ ، القاهرة 1957 .
81 — تاريخ الإسلام السياسي ، القاهرة 1949 .
82 — د . حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، القاهرة 1958 .
83 — دور العـرب في نشر الحضـارة في غرب إفـريقيـا « المجلة التـاريخيـة المصرية » ، مجلد 14 سنة 1968 .
84 — قيام دولة المرابطين ، صفحـة مشرقـة من تاريـخ المغرب في العصـور الوسطىٰ ، القـاهرة 1957 . المـرحلة الإفريقيـة من تاريـخ المرابـطين « المجلة التاريخية المصرية » ، مجلد 12 ، 1964 .
85 — د . حسين مؤنس ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، وأيامهم في الأندلس ، (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريـد) مجلد 2 سنة 1954 .
86 — فجر الأندلس ، دراسات في تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسـلامي إلى قيام الدولة الأموية ، القاهرة 1959 .
87 — الشنقيـطي (أحمـد بن الأمين الشنقيـطي ، ت 1331 هـ ـ 1913 م) . الوسيط من تراجم أدباء شنقيط ، ط . ثانية ، القاهرة 1958 .
88 — د . صلاح الدين المنجد ، مملكة مالي عند الجغـرافيين المسلمين ، بيروت 1962 .
89 — د . السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، القاهرة 1966 .
90 — عباس بن إبراهيم المراكشي ، الإعلام بمن حـلَّ بمراكش وأغمـات ، فاس 1936 .
91 —] . عبد الرَّحمٰن زكي ، الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا ، القاهرة 1969 .

92 — الإسلام في غرب إفريقيا ، القاهرة بدون تاريخ .
93 — تاريخ الدول الإسلامية السودانية في إفريقيا الغربية ، القاهرة 1961 .
94 — عبد السلام بن سودة ، دليل مؤرّخ المغرب الأقصىٰ ، تطوان ، بدون تاريخ .
95 — د . عبد العزيز كامل ، نحو تخطيط علمي لدراستنا الإفريقية (مجلة الجمعية الجغرافية) .
96 — كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة د . نبيه أمين فارس ، منير بعلبكي ، بيروت 1949 .
97 — ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة د . السيد محمود عبد العزيز ، القاهرة 1956 .
98 — مبارك بن محمد الهلالي الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، الجزائر 1350 هـ .
99 — محمد أحمد أبو زهرة ، المذاهب الإسلامية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
100 — محمد أحمد المغربي ، موريتانيا ومشاغل المغرب الإفريقية ، الرباط 1964 .
101 — محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس ، القاهرة 1964 .
102 — د . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون تاريخهم السياسي 430 — 539 هـ ، القاهرة 1969 .
103 — د . محمد عوض محمد ، الشعوب والسلالات الإفريقية ، الدار المصرية للنشر ، 1965 .
104 — د . محمود علي مكي ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد) ، مجلد 7 ، 8 سنة 1958 ، 1960 .
105 — الناصري (أبو العباس الناصري السلاوي ، ت 1315 هـ ـ 1897 م) . الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ ، نشر ولدي المؤلّف جعفر ومحمد الناصري الدار البيضاء 1954 .

106 — نعيم قداح ، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، كوناكري 1960 .
107 — ونسنك أ . ي ، منسنج ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، مطبعة بريل ـ ليدن 1969 .

سقط سهواً هذه المصادر :

108 — البخاري و (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة ، ت 256 هـ ـ 868 م) . صحيح البخاري ، وقف على طبعه إبراهيم عبد الغفار ، القاهرة 1286 هـ . الترمذي (أبو عيسىٰ الترمذي ، ت 279 هـ ـ 892 م) . صحيح الترمذي ، شرح الإمام ابن العربي المالكي ، مصر 1913 .
109 — السيوطي (جلال الدين بن أبي بكر السيوطي ، ت 911 هـ ـ 1506 م) . الجامع الصغير ، حقّقه محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة 1955 .
110 — ابن ماجة (ألَّف لفظ أبي عبد الله بن يزيد القزويني ت 675 هـ ـ 887 م) . سنن ابن ماجة ، حقّقه محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة 1952 .
111 — مسلم (الإمام أبي الحسن مسلم النيسابوري ، ت 261 هـ ـ 874 م) . صحيح مسلم ، وقف على طبعه محمد عبد الباقي ، القاهرة 1955 .

ثالثاً ـ الدوريات العربية

1 — صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد 1954 ، مجلد 7 ، 8 سنة 1958 ـ 1960 .
2 — مجلة الأبحاث ، الجامعة الأميركية ، بيروت سنة 1963 — 1968 .
3 — المجلة التاريخية المصرية ، مجلد 12 ، 1924 ، مجلد 14 ، 1968 .
4 — مجلة تطوان ، المملكة المغربية ، العدد الخامس سنة 1960 .
5 — مجلة الجمعية الجغرافية المصرية سنة 1960 .

6 — مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، مجلد 20 سنة 1966 .
7 — مجلة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، العدد ، سنة . 1965

رابعاً - المراجع الأجنبية

1 - Addison, John,
Ancient Africa, London, 1970.
2 - Apter, D.E.,
The gold coast in transition, Princeton, 1955.
3 - Awe, Bolanle,
Empires of Western Sudan, "A thousand years of West African history, Ibadan Univ. Press, Ibadan, 1967.
4 - Barth, H.,
Travels and Discoveries in North and Central Africa, Vol. IV, London, 1858.
5 - Baumann, H., et, Westermann, D.,
Les peuples et les civilisation de l'Afrique, Paris, 1948.
6 - Binger, L.G.,
Du Niger au Golfe de Guinee, Paris, 1892.
7 - Blyden, E.W.,
Christianity, Islam and Negro race, London, 1881.
8 - Boch, Vila, Jaunto,
Los Almoravides, ed. Instituto General Fronco de Estudios e Investigacion Haspino-Arabe, Tetuan, 1956.
9 - Bourret, F.M.,
Ghana, The road to Independence, London, 1960.
10 - Bovill, E.W.,
The golden trade of the Moors, Oxford Univ. Press, London, 1958.
11 - Boyed, A. and Rensburg, P.,
An Atlas of African History, London, 1962.
12 - Brevié, J.,
Islamisme contre Naturisme au Sudan Française, Paris, 1923.
13 - Ringand, Felix,
Histoire traditionnell du sénégal, Saint Louis, 1955.
14 - Buruns, H.S.,
History of Nigeria, London, 1955.
15 - Cardot, Véra,
Belles Pages de L'histoire Africaine, Paris, 1961.

16 - Chailley, Marcel,
Notes et études sur l'Islam en Afrique Noire, Paris, 1962.
17 - Histoire de l'Afrique Occidentale Française, Paris, 1962.
18 - Chapman, C.E.,
A History of Spain, New York, 1931.
19 - Cheikh Anta Diop,
L'Afrique Noire Pré-Coloniale, Paris, 1952.
20 - Church, R.G.H.,
West Africa, A study of environment and man's use of it, London, 1961.
21 - Cooley, W.D.,
The Negroland of the Arabs, "An enquiry into the early history and geography of central Africa, London, 1841.
22 - Cornevin, Robert,
Histoire de l'Afrique, des origines a nos jours, Paris, 1956.
23 - Histoire de l'Afrique, des origines au XVI^{e}, siécle, Paris, 1962.
24 - davidson, Basil,
Africa in History, London, 1968.
25 - De la Chapelle, F.,
Moors, "Ency. of Islam", Vol. III, 1970.
26 - Esquise d'une histoire de Sahara Occidental, Hisperis, Tome XI, Rabat, 1930.
27 - Delafosse, M.,
Senegal, "Ency. of Islam", Vol. IV, 1970.
28 - Songhay, "Ency. of Islam", Vol. IV, 1970.
29 - Soso, "Ency. of Islam", Vol. IV, 1970.
30 - Tekrur, "Ency. of Islam", Vol. IV? 1970.
31 - Deschamps, Hubert,
L'Afrique Noire Pré-Coloniale, Paris, 1969.
32 - Dozy, R.,
Scriptorum arabum loci de Abbadidis, Leyde, 1924.
33 - Dozy, R.,
Spanish Islam, London, 1913.
34 - Esquer, G.,
Histoire de l'Afrique, Paris, 1950.
35 - Fage, J.D.,
An Atlas of African history, Cambridge, 1958.
36 - An Introduction to the history of west Africa, Cambridge, 1959.
37 - Ford, Dary II.,
Agents of Islamization, "Islam in Tropical Africa", Oxford Univ. Press, 1969.
38 - Fournel, H.,
Les Berbéres, Tome I, Paris, 1875.

39 - Froelich, J.C.,
Essai sur les causes et Méthodies de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest du XI^e siècle au XX^e siècle, "Islam in Tropical Africa", Oxford Univ. Press, 1969.
40 - Les Musulman d'Afrique Noire, Paris, 1962.
40 - Gautier, E.F.,
Le Passé de l'Afrique du Nord, Les Siècles obscurs, Paris, 1937.
41 - Golvin, Lucien,
Note sur le Mot Ribat, "Revue de L'Occident Musulman et de la Mediterranée", Numéro 6, I^er et 2^e Semestres, 1969.
43 - Gouilly, A.,
L'Islam dans l'Afrique Occidentale Française, Paris, 1952.
44 - Gsell, S.,
Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Paris, 1921.
45 - Hadj Sadok, Moh.,
Description du Maghreb et l'Europe au III - IX Siècle, Alger, 1949.
46 - Hunwich, J.O.,
Islam in West Africa, "A thousand years of West African History, Ibadan Univ. Press, Ibadan, 1967.
47 - Hossain Monés,
Les Almoravides, Esquisse Historique, "Separata de la Revista de l'Inistituto des Estudios Islamicos en Madrid, Vol. XIV, 1967 - 1968.
48 - Ifemesia, C.C.,
States of the Central Sudan, "A thousand years of West African History, Univ. of Ibadah, Ibadan, 1969.
49 - Jaunet et Barry,
L'histoire de l'Afrique Occidentale Française, Paris, 1949.
50 - Julien, Ch., André,
Histoire de l'Afrique, Paris, 1955.
51 - Labourt, H.,
Mali, "Ency. of Islam", Vol. III, 1970.
52 - La voix, H.,
Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationales de Paris, DCCCXCI.
53 - Leo Africanus,
A geographical history of Africa, translated and collected by John Pery, Londini, 1600.
54 - Levi Provencal, E.,
Les Historiens de Chorfa, Paris, 1922.
55 - Lewis, I.M.,
Islam and Tribal Politics, "Islam in Tropical Africa". Oxford Univ. Press, London, 1969.

56 - Regional review of the distribution of Islam, "Islam in Tropical Africa", Oxford Univ. Press, London, 1969.
57 - Mahoney, Florance, and Idown, H.O.,
The peoples of Senegambia, "A thousand years of African history", Ibadan univ. Press, Ibadan, 1967.
58 - Maquet, Jacques,
Les civilisations noires, Marabout Univ., Belgique, 1967.
59 - Monteil, Ch.,
Les Empires du Mali.
60 - L'œuvre des étrangers dans L'Empire Soudanais du Mali, Revue et, Islam, Paris, 1929.
61 - Monteil, Ch.,
Les Ghana, des geographes Arabes et de Europeens, Hesperis, Rabat, 1951.
62 - La légende de Ouagadou et L'origine des Soninké, Bull., I.F.A.N., no. 23, Dakar, 1954.
63 - Le Tekrour et La Guinée, "Outre-Mer Revue", no.III, Paris, 1939.
64 - Montell, Vincent,
L'Islam Noire, Paris, 1964.
65 - Le Monde Musulman, Paris, 1963.
66 - Mukarovsky, Hans,
Afrique de hier et d'aujourd'hui, Vienne, 1964.
67 - Murdoch, G.P.,
Africa its peoples and their culture history, New York, 1959.
68 - Nian et Canale,
Histoire de l'afrique Occidentale, Paris, 1960.
69 - Nian, Djibril,
Grands Empires Africains du Moyen age, Ghans, Conakry, 1959.
70 - Mali, Conakry, 1960.
71 - Norris, H.T.,
New evidence on the life of Abdalla B. Yassin and the origins of the Almoravid Movement, "The Journal of African History", XII, 27 Great Britaine, 1971.
72 - Paulo Frenando de Moraes Farias,
The Almoravids, Bull, de I.F.A.N. XXIX? Ser., 364, Dakar, 1967.
73 - Richard, Molard, I.,
L'Afrique Occidentale Française, Paris, 1949.
74 - Rinn, L.,
Marabouts et Khoan, etude sur L'Islam en Algérie, Alger, 1884.
75 - Rodd, F.R.,
People of the veil, London, 1926.

76 - Ronald, Oliver and Fage, J.D.,
A short history of Africa, Great Britain, 1962.
77 - Seligman, C.G.,
Races of Africa, London, 1957.
78 - Shinnle, Margret,
Ancient African Kingdoms, London, 1968.
79 - Slouch, Nahum,
L'Empire des Berghouta et les origines de blad es Siba, "Revue du Monde Musulman, Tome X, Paris, 1910.
80 - Terrasse, H.,
Histoire du Maroc, Tome I, Casablanca, 1946.
81 - Trimingham, J.S.,
Islam in West Africa, Oxford Univ., London, 1959.
82 - A History of Islam in West Africa, Oxford Univ., London, 1962.
83 - Trimingham, J.S.,
The Influence of Islam upon Africa, Liban, 1968.
84 - The phases of Islamic expansion and Islamic culture zones in Africa, Oxford Univ., London, 1969.
85 - Va Jdo, G.,
Arabica, Revue D'études Arabes Extrait, Tome XV, Fascicule I, 1968.
86 - Yver, G.,
Barka, "Ency. of Islam Art".

خامساً - الدوريات الأجنبية

1 - Bull. de L'I.F.A.N. no. XXIX, Dakar, 1967.
2 Centre de Hautes études administratives sur l'Afrique et l'Asie Modernes, Univ. de Paris, Paris, 1962.
3 - Hesperis, Tome XI, Rabat, 1930 and 1951.
4 - The Journal of African History, Vol. XII, Great Britain, 1971.
5 - Revue de l'Afrique Française et des Antiquites Africaines, 1886 - 1888.
6 - Revue du Monde Musulman, Tome X, Paris, 1910.
7 - Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterranée, no.6, 1er et 2^{e} Semestres, Paris, 1969.
8 - Outer-Mer, no.III, Paris, 1939.
9 - Separata de la Revista del Institato de Estudios Islamicos en Madrid, Vol. XIV, 1967 - 1968.

سادساً - دوائر معارف

1 - Cambridge History of Islam, Vol II, 1970.
2 - Encycl. of Islam Art.
3 - Encyl. of Islam, Vol. III and VI., 1970.

فهرس الأعلام

(غ)

(ف)

(ق)

(ل)

(م)

(م)

فهرس القبائل والجماعات والفرق

فهرس الأماكن والبلدان

(و)

(ي)

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 ، 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1988/5/2000/132

التنضيد : سامو برس - بيروت

الطباعة: مؤسسة جواد للطباعة والتصوير - بيروت - لبنان

Dr. ESSMAT A. DANDASH.

THE CONTRIBUTION OF THE ALMORAVIDS TO THE DIFFUSION OF ISLAM IN WEST AFRICA

WITH A CRITICAL EDITION Of «RASĀÏL IBN AL ARABI»

Dar al-Gharb al-Islami

THE CONTRIBUTION OF THE
ALMORAVIDS TO THE DIFFUSION
OF ISLAM IN WEST AFRICA